

بَابُ
الْأَرْبَعُونَ حَدِيثًا
لِلْإِمَامِ مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَسَنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



- ☐ ثُباب الأربعون حديثاً للإمام الخميني عليه السلام
- ☐ إعداد: الدكتور إياد الأرناؤوطي / جامعة بغداد
- ☐ الناشر: دار الولاية للثقافة والإعلام
- ☐ مركز التبليغ الإسلامي
- ☐ الإخراج الفني: علي الهاشمي

لِبَابِ
الْأَرْبَعُونَ حِكْمًا
لِلْإِمَامِ الْخَمِينِ

عَلَيْهِ السَّلَامُ
د. إِيَادُ مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ لَارَنَّا وَوُطِيٍّ

الطَّبْعَةُ الثَّانِيَّةُ

محفوظ جميع الحقوق

الطبعة الثانية
١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م



www.facebook.com/tableegh
twitter.com/tableegh
m.t.i.114@hotmail.com
+٩٨-٩٣٦٤٦٧٧٥٦٣

www.alwelayah.net
alwelayah@alwelayah.net
+٩٨-٢٥-٣٧٧٣٨٣٧١
+٩٨٩٣٠٩٢٦٩٠٤٨

مقدمة الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾^(١)؛ وصلى الله على رسوله الكريم، محمد، سيد العالمين وصفوتهم، وتاج النبيين وغرّتهم، وعلى آله الطيّبين الطّاهرين، أعلام الهدى، وبيارق التّقى، أولياء الله في بريّته، وبقية رسوله في أمّته.

أما بعد:

فكتاب الأربعون حديثاً للإمام الخميني عليه السلام سفر جليل، ومعلّم هدى، خطّته أنامل نفس ملكوتية، عشقت ربها حتى فنيت، وتذوّقت فيضه الأقدس حتى ذابت في نور كبريائه وعظمته.

ومن أبرز خصائص الكتاب أنّه كتاب علمي تربويّ، يخاطب العقل بالحجج البالغة، والقلب بالأحاسيس المثيرة، فتدعن النفوس، وتدمع العيون، وتقشعرّ الجلود.

والكتاب ضخّم في حجمه، عميق في أبحاثه، ولاختصاره وتقريبه من أذهان غير المتخصّصين، ولا سيّما أننا نعيش في زمن تعقّدت فيه مظاهر الحياة، وتشعبت أغصانها، توكلت على الله سبحانه، واستخلصت لباب الكتاب بما يساوي ثلثه تقريباً، معتمداً النسخة العربية التي ترجمها سماحة السيد محمد الغروي، الطبعة

السابعة، عام ١٤٣١ هـ، لعدم معرفتي باللغة الفارسية؛ وسالكاً المنهج الآتي:
١. الحفاظ على أسلوب الإمام المؤلف، فلم أُغيّر في عباراته إلاّ المقدار اليسير.

٢. استخلاص بؤر الدلالة المركزيّة في شرح كلّ حديث، وإبرازها على نحو ييسر على القراء جهد الوقوف عليها.

٣. الحفاظ على السمة التربوية للكتاب، بخطاباته المؤثرة.

٤. مع مراعاة ما مرّ، سعيت لأن يكون «اللباب» بأصغر حجم ممكن، إذ كنت أعيد النظر في العبارة مراراً، لأستغني عن أيّ مفردة يمكن الاستغناء عنها، من دون أن يحدث خلل في البيان.

أتقدّم بخالص شكري لكل من أعانني في الكتاب، ولو بكلمة تشجيع، ولا سيّما أخي الأستاذ الفاضل الدكتور عادل عبد الستار الجنابي الذي قرأ لباب بعض الأحاديث، وأبدى ملحوظاته السديدة.

شكراً لولديّ البارين: عليّ، وأسامة، لما بذلاه من جهد في طبع الكتاب، وإخراجه.

ختاماً ما في «اللباب» من حسنة فالإمام الخميني رحمته الله أولى بها، وما فيه من سيئة فهو من قصوري، أو تقصيري، فأسأل ربي المغفرة، وأسأل أخواني المؤمنين الدعاء.
والحمد لله أولاً وآخراً

إياد الأرنؤوطي

بغداد في الثاني عشر من ربيع الثاني عام ١٤٣٦ هـ

مقدمة الطبعة الثانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

أما بعد:

فها نحن نضع بين أيدي المؤمنين الطبعة الثانية من "لباب الأربعون حديثا للإمام الخميني عليه السلام"، هذا الكتاب الجليل، الذي خطته أنامل رجل كتب الله سبحانه له أن يصنع تاريخا جديدا معاصرا لأمتنا الإسلامية، وأن يقود حركة غيرت مسار الأحداث.

ما أحدثناه في هذه الطبعة بالدرجة الأولى، هو إعادة النظر في النصوص الحديثية الشريفة، التي فوجئنا بوجود قليل من الأخطاء اللغوية في بعض نصوصها، من المؤكد أنها من الأخطاء الطباعية، ولكن طمعا في أن تنالنا دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الترحم على متقن العمل، وأداء للأمانة الشرعية، والعلمية، أصلحنا هذه الأخطاء.

اللهم وفقنا لما يرضيك، وجنبنا ما يسخطك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

إياد محمد علي الأرناؤوطي

بغداد في الخامس عشر من صفر عام ١٤٣٧ هـ

مقدمة الإمام الخميني عليه السلام

الحمد لله رب العالمين والصلاة على محمد وآله أجمعين
ولعنة الله على أعدائهم الى يوم الدين
إلهي أنر مرآة القلب بنور الإخلاص؛ واجلُ عن صفحة القلب صدأ
الشرك؛ واهد هؤلاء المساكين في بيداء الحيرة، والضلالة، إلى جادة السعادة،
والفلاح الواسعة...

ووقفنا للتخلق بالأخلاق الكريمة، واجعل لنا نصيباً مما اختصت به
أولياءك من نفحاتك، وألطافك الخاصة...
وأخرج من مملكة قلوبنا جنود الشيطان والجهل، واحلل محلّها جنود العلم
والحكمة والرحمن...

وأخرجنا من هذا العالم بحبّك وحبّ من خصصتهم بقربك... وعاملنا
برحمتك حين الموت وبعده..

واقرن عاقبة أمرنا بالسعادة بحقّ محمد وآله الطاهرين عليهم السلام.

وبعد... يقول هذا العبد الفقير الضعيف: كنت أحدث نفسي منذ مدة، بأن
أجمع أربعين حديثاً من أحاديث أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، المدوّنة في
الكتب المعتمدة، للأصحاب والعلماء (رضوان الله عليهم)، وأن أشرح كلّ

حديث شرحا يتناسب وفهم العامة. ومن هذا المنطلق كتبتها باللغة الفارسية كي
يُنتفع منها الذين ينطقون بالفارسية، ولعليّ بذلك - إن شاء الله - أصبح ممن
يشمله الحديث لخاتم الأنبياء ﷺ، حيث يقول: «من حفظ على أمتي أربعين
حديثاً ينتفعون بها بعثه الله يوم القيامة فقيهاً عالماً»^(١)؛ إلى أن وقّعت للبدء بذلك.
ومن الله تعالى أطلب التوفيق لإتمامه إنّه ولي التوفيق



الْجَدِيدُ الْأَوَّلُ

جَهَادُ النَفْسِ

بالسند المتّصل^(١) عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام:

«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، بَعَثَ سَرِيَّةً، فَلَمَّا رَجَعُوا، قَالَ: مَرْحَبًا بِقَوْمٍ قَضَوْا الْجِهَادَ الْأَصْغَرَ، وَبَقِيَ عَلَيْهِمُ الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ؛ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ؟ قَالَ: جِهَادُ النَّفْسِ»^(٢).

معاني المفردات

السرية: قطعة من الجيش

نشأتا الإنسان

للإنسان نشأتان:

إحدهما: ظاهريّة، ملكيّة، دنيويّة؛ هي بدنه، وتتألف من الأقاليم الملكيّة السبعة: الأذن، والعين، واللسان، والبطن، والفرج، واليد، والرجل.
والأخرى: باطنيّة، غيبيّة، ملكوتيّة، من عالم آخر؛ هي روحه، التي هي من عالم الغيب، والملكوت؛ ولها مقامات متعدّدة، وفي كلّ مقام جنود رحمانيّة، تجذب النفس نحو الملكوت الأعلى، وتدعوها للسعادة؛ وجنود شيطانيّة، تجذب النفس نحو الملكوت السفلي، وتدعوها للشقاء؛ والإنسان هو ساحة حرب بين المعسكرين؛ فإذا تغلّب جنود الرحمن، كان الإنسان من أهل السعادة والرحمة؛ وانخرط في سلك

(١) للإمام الخميني رحمه الله سند متصل بالشيخ الكليني (رضوان الله عليه) مفصّل في الكتاب الأم (الأربعون حديثاً).

(٢) فروع الكافي ج ٥، كتاب الجهاد، باب وجوه الجهاد، ص ٣

الملائكة، وحُشِرَ في زمرة الأنبياء، والأولياء، والصالحين؛ وإذا تغلّب جنود الشيطان، كان الإنسان من أهل الشقاء؛ وحُشِرَ في زمرة الشياطين، والكفار، والمحرومين.

مقامات النفس وكيفية مجاهدتها

المقام الأول: منزل الهلك والظاهر، وعالمهما

وهو منزلها الأدنى، والأسفل.

في هذا المقام تتألق الأشعة، والأنوار الغيبية في هذا الجسد المادي، والهيكل الظاهري، فتمنحه الحياة.

وجهاد النفس في هذا المقام: انتصار الإنسان على قواه الظاهرية، وجعلها مؤتمرة بأمر الخالق، وتطهير المملكة من دنس وجود قوى الشيطان، وجنوده.

ولهذا الجهاد محطات وخطوات:

الخطوة الأولى: التفكير: وهو: أن يفكر الإنسان فيسأل نفسه: لماذا خلقني ربي، وأسبغ عليّ نعمه ظاهرة وباطنة؟ أراء هذه النعم غاية أم أئها عبث لا شيء وراءه؟ هيهات، فكلُّ شيء في الوجود ينطق بعلم الخالق، وحكمته. هل أنبياء الله، ورسله، والعلماء السائرون على خطاهم، أعداء لنا، أو جهال لا يعلمون سواء السبيل؟ هيهات، فسيرهم العطرة تأبى ذلك. ألم تأكل الدنيا من مضوا: ملوكهم ورعيّتهم، أغنياءهم وفقراءهم، رجالهم ونساءهم؟ بلى، لقد طحنهم البلى طحنا؛ وهل تصفو لأحد؟ وهل رأيت أحدا من أهلها إلّا شاكيا التعب فيها، والغدر منها؟؛ فلا بدّ إذن من حياة أخرى، فيها السعادة والخلود؛ لها خلقنا، وعنّها ينبغي أن نبحت؛ إليها دعا الأنبياء، فلاشدد الرحال إلى دار الخلود، ولأشرع بمجاهدة هذه النفس الميالة للشهوات الفانية؛ ولا تنس أن تتوجّه إلى ربّك الكريم لا إلى نفسك، فهو وليّ نعمتك، ليعينك في أداء ما تستطيع من حقّه، فترتقي من منزل إلى منزل، بفضلله ورحمته.

الخطوة الثانية: العزم: وهو أن يقرّر الإنسان ترك المعاصي، كلّ المعاصي، وأداء الواجبات، كلّ الواجبات، ويتدارك ما فاته في أيام حياته، متأسياً بظاهرة بظاهر الرسول الأكرم ﷺ؛ فلا يمكن طيّ أيّ طريق لنيل المعارف الإلهيّة، إلّا بالبدء بظاهر الشريعة، والديمومة على ذلك، وما لم يتأدّب الإنسان بآدابها، لا يحصل له شيء من حقيقة الأخلاق الحسنة، ولا يتجلّى في قلبه نور معرفة الله تعالى.

عليك أن تتذكّر أنّ هجر المعاصي، وإتيان الطاعات، يزيدك عزماً؛ وخلافه يضعفك؛ ومن ذلك: استماع الغناء، ورفقة أصحاب السوء؛ فامدد يدك إلى ربّك ضارعاً متوسلاً بسيد المرسلين ﷺ، وأهل بيته عليه السلام، ليأخذ بيدك إلى جنّة رضوانه، ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾^(١)؛ وبرناجك العملي هو: المشاركة، والمراقبة، والمحاسبة.

والمشاركة: أن تشارط نفسك في أوّل يومك على أن تأتمر بأوامر الله، وتنتهي عن نواهيه، وتتخذ قراراً بذلك، وتعزم عليه ليوم واحد، وهذا أمر يسير، وقد يصوّر لك إبليس اللعين، وجنده، أنّ الأمر صعب وعسير، فalcنه، ولا تكثر له، وأخرج الأوهام الباطلة من قلبك، وجرب ليوم واحد، وسترى.

والمراقبة: أن تتبّه، في مدّة المشاركة، إلى عملك على وفقها، فإذا حدثت نفسك بأن ترتكب عملاً مخالفاً لأمر الله، فاعلم أنّ ذلك من عمل الشيطان وجنده؛ فهم يريدونك أن تتراجع عمّا اشترطته على نفسك، فalcنهم، واستعذ بالله من شرّهم، وأخرج تلك الوسوس الباطلة من قلبك، وقل للشيطان: «إني اشترطت على نفسي أن لا أقوم في هذا اليوم، بأيّ عمل يخالف أمر الله تعالى، وهو وليّ نعمتي، الذي تلطف عليّ بالصحة، والسلامة، والأمن، ولو أنّي بقيت في خدمته إلى الأبد لما أدت حقّ واحدة منها، وعليه فليس من اللائق أن لا أفي بشرط يسير كهذا».

واعلم أنَّ المراقبة لا تعارض أيًّا من أعمالك، كالكسب، والسفر، والدراسة، فكن على هذه الحال إلى الليل، ريثما يحين وقت المحاسبة.

والمحاسبة: أنَّ تحاسب نفسك لترى: هل أدّيت ما اشترطت الله على نفسك؛ ولم تخن ولي نعمتك في هذه المعاملة الجزئية؟. إذا كنت قد وفيت حقًّا فاشكر الله على هذا التوفيق، وإن شاء الله ييسّر لك سبحانه التقدّم في أمور دنيائك، وآخرتك؛ وسيكون عمل الغد أيسر عليك من سابقه، وإذا وجدت نفسك قد ارتكبت أخطاء، بترك الواجب، أو فعل الحرام؛ فاستغفر الله؛ وتب إليه؛ وجدد المشاركة لليوم اللاحق؛ وهكذا.

واظب على هذا العمل مدّة، والمأمول أن يتحول إلى ملكة^(١) فيك، حتى يصبح سهلاً يسيراً عليك للغاية، وستحسّ عندها باللذة، والأنس بطاعة الله تعالى، وترك معاصيه، وفي هذا العالم الدنيوي بالذات؛ في حين أنَّ هذا العالم ليس هو عالم الجزاء، لكنّ الجزاء الإلهي يؤثّر، ويجعلك مستمتعاً، وملتذاً بطاعتك لله، وابتعادك عن المعصية.

واعلم أنَّ الله لم يكلفك ما يشقّ عليك به؛ ولم يفرض عليك ما لا طاقة لك به، ولا قدرة لك عليه؛ لكن الشيطان وجنده، يصورون لك الأمر، وكأنه شاقّ، وصعب.

ولا بد لك من معين في رحلة جهادك، تستمدّ منه زاد سفرك، ووقود رحلتك، وهو التذكّر، وهو ذكر الله تعالى، ونعمائه التي تلطّف بها على الإنسان؛ فعليك أن تتذكّر أنّه من الأمور الفطريّة التي جُبل الإنسان عليها:

أولاً: احترام المنعم وتعظيمه؛ وإذا تأملت في كتاب ذاتك، وجدت أن نعم الله تعالى لا تُحصى؛ ولو اجتمع الثقلان من الإنس والجن، لما استطاعوا إعطاءك

(١) هي حالة في النفس تصدر منها الأفعال بلا تكلف وترو، د. إياد.

واحدة منها. أتعلم أن سلب نعمة الهواء لمدة ربع ساعة سيؤدّي إلى موت كلّ حيوان على هذه الأرض؟. لقد أعطانا كلّ شيء بلا حاجة منه إلينا، ولا منّ منه علينا؛ وأمرنا، ونهانا، لنُسعد؛ إذ لا تنفعه الطاعة، ولا تضرّه المعصية؛ ألا تأمرك فطرتك بوجوب تعظيم هذا المنعم؟.

ثانيا: احترام العظيم وتعظيمه؛ وكذلك نفعل بأهل الجاه من الناس، ممّن نرى فيهم العظمة؛ وأيّ عظيم أعظم من مالك الملوك، الذي عجزت العقول عن إدراك أسرار أدنى مخلوقاته، فضلا عن كنه ذاته.

ثالثا: احترام الحاضر؛ ومن المعلوم أنّ الله تبارك وتعالى حاضر في كلّ مكان، وتحت إشرافه تعالى تُدار جميع ممالك الوجود.

فتوجّه إلى نفسك مخاطبا: تذكر يا نفسي الخبيثة أيّ ظلم فظيع، وأيّ ذنب عظيم، تقترفين إذا عصيت هذا العظيم، في حضرته المقدسة، على مائدة نعمه، بالقوى التي أنعم بها عليك. ألا ينبغي أن تذوي من الخجل، وتغوري في الأرض، لو كان لديك ذرة من الحياء؟.

المقام الثاني: مهلكة النفس الباطنيّة، ونشأتها المملوكيّة

وهو منبع جميع السعادات، والتعاسات؛ والصراع والنزاع فيها بين الجنود الرحمنيّة، والجنود الشيطانيّة أعظم؛ والغلبة والانتصار فيها أشد وأهم؛ لأنّ كلّ ما في مملكة الظاهر قد تنزّل من هناك؛ ومن الممكن أن تسفر هزيمة الجنود الرحمنيّة في تلك المملكة، عن الهلاك الدائم للإنسان، على النحو الذي لا يمكن معه تلافي الخسارة، ولا تشمله شفاعة الشافعين.

ولابدّ في الجهاد أولا من معرفة النفس بقواها المختلفة؛ إذ كيف تجاهد ما لا

تعرف؟ فالنفس الإنسانية فيها ثلاث قوى؛ هي منبع جميع الملكات الحسنة والسيئة؛ وأصل جميع الصور الغيبية الملكوتية؛ هذه القوى هي: الوهمية^(١)، والغضبية^(٢)، والشهوانية^(٣).

هذه القوى الثلاث يمكن أن تكون من الجنود الرحمانية، وتؤدي إلى سعادة الإنسان وتوفيقه، إذا سلمتها للعقل السليم، وللأنبياء العظام؛ ومن الممكن أن تكون من الجنود الشيطانية إذا تركتها وشأنها؛ وأطلقت العنان للوهم ليتحكم في القوتين الآخرين: الغضب، والشهوة؛ وقد بعث الله الأنبياء من أجل إخضاع النفس الإنسانية لقانون العقل، والشرع، وترويضها، وتأديبها.

إن الإنسان له في هذه الدنيا صورة ملكية دنيوية، خلقها الله - تبارك وتعالى - على كمال الحسن، والجمال، والتركيب البديع، وله صورة، وهياة، وشكل ملكوتي، غيبي، تابع لملكات النفس، والخلقة الباطنية، وتتجسم هذه الصورة في البرزخ والقيامة، فإذا غلبت على باطنه ملكة الشهوة والبهيمية، وأصبح حكم مملكة الباطن حكم البهيمية، كانت صورة الإنسان الملكوتية على صورة إحدى البهائم، التي تلائم ذلك الخلق؛ وإذا غلبت على باطنه، وسريره، ملكة الغضب والسبعية، وكان حكم مملكة الباطن والسريرة حكماً سبعياً، كانت صورته الملكوتية صورة أحد السباع والبهائم؛ وإذا غلبت على باطنه وسريره ملكات

(١) هي القوة التي من شأنها استنباط وجوه المكر والحيل، والتوصل إلى الأغراض بالتلبيس والخدع، د. إياد.

(٢) هي القوة الموجبة لصدور أفعال السباع من الغضب والبغضاء، والتوثب على الناس بأنواع الأذى، د. إياد.

(٣) هي القوة التي لا يصدر عنها إلا أفعال البهائم من عبودية الفرج والبطن، والحرص على الجماع، والأكل، د. إياد.

شيطانية كالخداع، والتزوير، والنميمة، والغيبة، كانت صورته الملكوتية على هيئة أحد الشياطين، بحسب ما يناسب تلك الصورة.

ومن الممكن أحياناً أن تتركب الصورة الملكوتية من ملكتين، أو من عدة من ملكات، وفي هذه الحالة تتشكل له صورة غريبة من مجموعها، هذه الصورة، هيأتها مرعبة، مدهشة، سيئة، مخيفة، لا مثيل لها في هذا العالم؛ وقد نُقل عن رسول الله ﷺ أن بعض الناس يُحشرون يوم القيامة على صورة أسوأ من صورة القرد؛ فليس من المحتم أن تكون صورة الإنسان في ذلك العالم على تلك الصورة التي كان عليها في هذه الدنيا؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿١﴾؛ فيا أيها المسكين؛ قد كانت لديك عين ملكية ظاهرة البصر، ولكنك في باطنك وملكوتك كنت أعمى، فلم تكن لديك عين البصيرة الباطنية التي ترى بها آيات الله؛ أنت ذو قامة متناسقة، وصورة جميلة في التركيب الملكي، فعليك أن تحرز الاستقامة الباطنية كي تكون مستقيم القامة في يوم القيامة؛ يجب أن تكون روحك روحاً إنسانية، كي تكون صورتك في عالم البرزخ صورة إنسانية.

في هذا المقام من المجاهدة لابد لك من أمرين:

أحدهما: السيطرة على الخيال.

والآخر: التفكير، بعقد الموازنات بين الملكات الفاضلة والملكات الرذيلة وعواقبهما في الدنيا والآخرة.

وهذا ما سنتناوله بشيء من التفصيل.

أولاً: السيطرة على الخيال

أَمْسِكْ بِزِمَامِ خِيَالِكَ، وَامْنَعِهِ مِنَ التَّحْلِيقِ فِي الْخَيَالَاتِ الْفَاسِدَةِ، وَالْمَعَاصِي وَالشَّيْطَانَةِ، وَكَلِّمْهُ تَوَجُّهًا إِلَى بَاطِلٍ وَضِيعٍ، اصْرِفْهُ نَحْوَ حَقِّ شَرِيفٍ؛ قَدْ يَبْدُو الْأَمْرُ فِي الْبَدَايَةِ صَعْبًا، وَلَكِنَّهُ يَصْبِحُ سَيْرًا بَعْدَ شَيْءٍ مِنَ الْمُرَاقَبَةِ وَالْحَذَرِ؛ فَتَوَجُّهُ إِلَى وَلِيِّ نِعْمَتِكَ قَائِلًا: اللَّهُمَّ... إِنَّ الشَّيْطَانَ عَدُوٌّ عَظِيمٌ، كَانَ لَهُ، وَلَا يَزَالُ، طَمَعٌ بِأَنْبِيَائِكَ، وَأَوْلِيَائِكَ الْعِظَامِ، اللَّهُمَّ، فَأَعْنِي، وَأَنَا عَبْدُكَ الضَّعِيفُ الْمُبْتَلَى بِالْأَوْهَامِ الْبَاطِلَةِ، وَالْخَيَالَاتِ الْفَاسِدَةِ، كَيْ أَسْتَطِيعَ أَنْ أَطْرِدَ جُنُودَهُ مِنَ الْمَمْلَكَةِ الْعَائِدَةِ لَكَ، وَأَقْطَعَ يَدَ هَذَا الْغَاصِبِ مِنَ الْبَيْتِ الْمُخْتَصِّ بِكَ.

ثانيًا: التفكر بعقد الروازنات

أَيُّ أَنْ يَوَازِنَ الْإِنْسَانُ بَيْنَ حَالَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ: بَيْنَ الْأَخْلَاقِ الْفَاسِدَةِ، وَالْمَمْلَكَاتِ الرَّذِيلَةِ، الَّتِي تَنْشَأُ عَنْ قُوَى: الشَّهْوَةِ، وَالْغَضَبِ، وَالْوَهْمِ، عِنْدَمَا تَكُونُ طَلِيقَةً مِنْ لُجَامِ الْعَقْلِ، وَتَحْتَ تَصَرُّفِ الشَّيْطَانِ؛ وَبَيْنَ الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ، وَالْمَمْلَكَاتِ الْفَاضِلَةِ، الَّتِي تَنْشَأُ مِنْ تِلْكَ الْقُوَى عِنْدَمَا تَكُونُ تَحْتَ تَصَرُّفِ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ، لِيَرَى عَلَى أَتْيَاهَا يَصِحُّ الْإِقْدَامُ، وَيَحْسَنُ الْعَمَلُ؟!.

وَازِنْ بَيْنَ الْحَلَمِ وَرَزَانَتِهِ، وَالْغَضَبِ وَخَفَّتِهِ؛ وَازِنْ بَيْنَ جِهَالِ التَّوَاضُعِ، وَقُبْحِ الْكِبَرِ، وَازِنْ بَيْنَ طَمَأْنِينَةِ الزَّاهِدِينَ، وَقَلْقِ الطَّامَعِينَ. وَازِنْ بَيْنَ كُلِّ ذَلِكَ، وَآثَارِهِ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ.

إِنَّ الْإِنْسَانَ عَلَى الدَّوَامِ عَاشِقٌ لِمَا لَا يَمْلِكُ، وَلِمَا لَيْسَ فِي يَدِهِ، فَمَنْ سَعَى وَرَاءَ شَهْوَةِ النِّسَاءِ، لَوْ نَالَ كُلَّ نِسَاءِ الْأَرْضِ لَطَلَبَ نِسَاءَ كَوْكَبِ آخَرَ؛ وَمَنْ سَعَى وَرَاءَ الْمَالِ، لَوْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا لَطَلَبَ عَالَمًا آخَرَ يَمْلِكُهُ؛ وَمَنْ قَادَتْهُ قُوَّةُ الْغَضَبِ، لَوْ

استولى على رقاب أهل الأرض لطلب رقاب أهل كوكب آخر. إنّ غليان مرجل الشهوات لا يهدأ بنيلها أبداً، بل يظل يتقد أكثر فأكثر.

وهب أنك قد استمتعت بنيل ما تلهث وراءه، فماذا بعد ذلك؟ إنّ الكبر، والشيخوخة، والضعف؛ فلا المعدة تهضم كما كانت، ولا العظام تحملك كما كانت؛ فما عاقبتك بعد انقضاء هذه المدة القصيرة التي تمرّ مرّ الرياح؟ وماذا ادخرت من تلك اللذات لحياتك الدائمة؟! ليوم عجزك، وفقرك، ووحدتك؟! لبرزخك وقيامتك؟ للقائك ملائكة الله، وأوليائه، وأنبيائه؟!

إنّ كثيراً من نيران جهنم، وعذاب القبر، والقيامة وغيرها، ممّا سمعت، وقرأت، هي جهنم أعمالك التي تراها هناك، قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(١) لقد أكلت مال اليتيم، وتلذذت بذلك، ولكن الله وحده يعلم ما صورة هذا العمل في ذلك العالم التي سترها في جهنم، وما عاقبة اللذة التي نلتها في الدنيا هناك؟ الله يعلم أيّ عذاب شديد ينتظرك بسبب معاملتك السيئة للناس؛ أفهم أيّ عذاب قد أعددت لنفسك بنفسك، عندما اغتبت؟ وهذه هي جهنم الأعمال، وهي يسيرة، وسهلة بالنسبة إلى جهنم الأخلاق؛ فالذين زرعوا في نفوسهم الملكات الفاسدة، والرذائل السيئة، كالطمع، والحرص، والجدال، والشره، وحبّ المال والجاه، لهم جهنم لا يمكن تصوّرها؛ إذ تظهر النار من باطن النفس ذاتها؛ وأهل جهنم أنفسهم يفرون رعباً من عذاب أولئك، وفي بعض الروايات الموثقة أن في جهنم وادياً للمتكبرين يقال له: سقر، شكا إلى الله تعالى من شدة الحرارة، وطلب أن يأذن له بالتنفس، وبعد أن أذن له تنفّس، فأحرق سقر جهنم^(٢).

(١) الكهف: ٤٩

(٢) ينظر: أصول الكافي، المجلد الثاني - باب الكبر - ح ١٠، والحديث للإمام الصادق عليه السلام.

تدبر قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾^(١)، فأية حسرة هذه التي يذكرها الله تعالى بهذه الشدة، وبهذا التعبير؟

تدبر في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾^(٢)، أي عذاب هذا الذي يصفه الله تبارك وتعالى بأنه شديد، وعظيم؛ وهو العظيم الذي لا حد، ولا حصر، لعظمته؛ ولا انتهاء لعزته، وسلطانه؟ فماذا، وكيف، سيكون هذا العذاب؟! إن عقلي، وعقلك، وعقول جميع البشر، عاجزة عن تصوّره؛ ولو راجعت أخبار أهل بيت العصمة والطهارة وآثارهم، وتأملت فيها، لفهمت أن قياس عذاب ذلك العالم على عذاب هذا العالم، قياس باطل، وخاطيء.

تأمل في رواية مولانا الصادق عليه السلام: «بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله ذات يوم قَاعِدًا إِذْ أَتَاهُ جَبْرَائِيلُ، وَهُوَ كَتِيبٌ، حَزِينٌ، مُتَغَيِّرُ اللَّوْنِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: يَا جَبْرَائِيلُ مَا لِي أَرَاكَ كَتِيبًا حَزِينًا؟ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ كَذَلِكَ، وَإِنَّمَا وُضِعَتْ مَنَافِيخُ جَهَنَّمَ الْيَوْمَ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: وَمَا مَنَافِيخُ جَهَنَّمَ يَا جَبْرَائِيلُ؟ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بِالنَّارِ فَأَوْقَدَ عَلَيْهَا الْفَ عَامٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَأَوْقَدَ عَلَيْهَا الْفَ عَامٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَأَوْقَدَ عَلَيْهَا الْفَ عَامٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ، وَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ، فَلَوْ أَنَّ حَلْقَهُ مِنَ السَّلْسِلَةِ الَّتِي طُولُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا وَضِعَتْ عَلَى الدُّنْيَا، لَذَابَتْ الدُّنْيَا مِنْ حَرِّهَا؛ وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزُّقُومِ وَالضَّرِيعِ قَطَرَتْ فِي شَرَابِ أَهْلِ الدُّنْيَا لَمَاتُوا مِنْ

(١) الزمر: ٥٦

(٢) الحج: ٢

نَتَيْهَا. قَالَ: فَبَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَبَكَى جِبْرَائِيلُ، فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمَا مَلَكًا. فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكُمَا يَقْرَأُكُمَا السَّلَامَ، وَيَقُولُ: إِنِّي أَمْتُكُمَا مِنْ أَنْ تَذْنِبَا ذَنْبًا أُعَذِّبُكُمَا عَلَيْهِ^(١).

فَفَكَّرَ وَتَدَبَّرَ بِدَقَّةٍ فِي مَضْمُونِ هَذَا الْحَدِيثِ الْقَاصِمِ لِلظَّهَرِ، فَإِذَا احْتَمَلْتَ صَحَّتْهُ احْتِمَالًا، كَانَ عَلَيْكَ أَنْ تَهَيِّمَ فِي الصَّحَارِيِّ، كَمَنْ أَصَابَهُ الْمَسُّ. مَاذَا حَدَثَ لَنَا لَكِي نَبْقَى فِي نَوْمِ الْغَفْلَةِ، وَالْجَهَالَةِ؟! أَنْزَلْتَ عَلَيْنَا مِثْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَجِبْرَائِيلَ، مَلَائِكَةَ أَعْطَيْنَا الْأَمَانَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ؟ عَلِيٌّ بْنُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَهُوَ إِمَامٌ مَعْصُومٌ، يَقْطَعُ الْقُلُوبَ بِنَحْيِهِ، وَتَضَرَّعُهُ، وَمَنَاجَاتِهِ، وَعَجْزُهُ، وَبِكَائِهِ، فَمَاذَا دَهَانَا وَصَرْنَا لَا نَسْتَحْيِي أَبَدًا، فَهَتَكَ فِي مُحْضَرِ الرُّبُوبِيَّةِ كُلِّ هَذِهِ الْمَحْرَمَاتِ، وَالنَّوَامِيسِ الْإِلَهِيَّةِ؟ فَوَيْلٌ لَنَا مِنْ غَفْلَتِنَا، وَوَيْلٌ لَنَا مِنْ شِدَّةِ سَكْرَاتِ الْمَوْتِ، وَوَيْلٌ لِحَالِنَا فِي الْبَرْزَخِ وَشِدَائِهِ، وَفِي الْقِيَامَةِ وَظُلُمَاتِهَا، وَيَا وَيْلَ لِحَالِنَا فِي جَهَنَّمَ، وَعَذَابِهَا، وَعِقَابِهَا.

كيف تعالج مفاسد الأخلاق؟

أَيُّهَا الْعَزِيزُ؛ انْهَضْ مِنْ نَوْمِكَ، وَتَنَبَّهْ مِنْ غَفْلَتِكَ، وَاشْدُدْ حِيَازِيمَ الْهِمَّةِ، وَاغْتَنِمِ الْفُرْصَةَ مَا دَامَ فِي الْعُمْرِ بَقِيَّةً، وَمَا دَامَتْ قَوَاكُ تَحْتَ تَصَرُّفِكَ، فَابْحَثْ عَنِ الْعِلَاجِ، أَعْثِرْ عَلَى الدَّوَاءِ لِإِزَالَةِ تِلْكَ الْأَخْلَاقِ الْفَاسِدَةِ الْقَبِيحَةِ، وَتَلَمَّسْ سَبِيلًا لِإِطْفَاءِ نَارِ الشَّهْوَةِ وَالْغَضَبِ؛ اتَّبِعْ لَذَلِكَ الطَّرِيقَ الْآتِي:

أَوَّلًا: انْظُرْ لِنَفْسِكَ فِي مِرَاةِ الشَّرِيعَةِ الْمَقْدَسَةِ، وَشَخَّصْ عَيُوبَكَ الْأَخْلَاقِيَّةَ، وَاحِدَةً وَاحِدَةً.

ثَانِيًا: اشْرَعْ فِي اجْتِنَائِهَا مِنْ نَفْسِكَ، مِنْ خِلَالِ تَكَلُّفِ مَخَالَفَةِ تِلْكَ الرِّذَائِلِ، وَالْعَمَلِ عَلَى نَقِيضِ مَا تَدْعُوكَ إِلَيْهِ. بَعْدَ الْمَجَاهِدَةِ، وَبِتَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى، سَتَدْعُنِ

(١) علم اليقين، المقصد ٤، الباب ١٥، الفصل ١، ١٠٣٢

نفسك، ويزول بعد مدّة وجيزة الخلق السيّ، ويفرّ الشيطان وجنوده من هذا الخندق، وتحلّ محلهم الجنود الرحمانية.

سأضرب لك مثالين على ذلك:

أحدهما: سوء الخلق مع أهل الدار، والجيران، أو الزملاء في العمل، أو أهل السوق، والمحلة، وهو من الأخلاق الذميمة التي توجب ضغطه القبر، وتسبّب هلاك الإنسان، وعذابه في كلا الدارين، وهو وليد الغضب، والشهوة، فعلى المجاهد عندما يعترضه ما يكره، وتتوهّج فيه نار الغضب، لتحرق الباطن، وتدعوه إلى الفحش، والسيّء من القول؛ عليه أن يتذكّر سوء عاقبة هذا الخلق القبيحة، ويبيدي مرونة، ويلعن الشيطان في الباطن، ويستعيذ بالله منه، ويعمل بخلاف ما تشتهيه النفس.

والآخر: إذا كنت من أهل الجدل والمراء في المناقشات العلمية؛ ودخلت في مناقشة أحد في مجلس ما؛ ورأيت أنّه يقول الحق، فاعترف بخطئك، وصدّق قوله، والمأمول أن تزول هذه الرذيلة في زمن قصير.

أيها العزيز، أخرج الأخلاق القبيحة الفاسدة من مملكة روحك، واغرس الملكات الفاضلة؛ وعندما يكتمل جهاد النفس في هذا المقام؛ ويتوفّق الإنسان إلى إخراج جنود إبليس من هذه المملكة؛ وتصبح مسكنًا لملائكة الله؛ حينذاك يصبح السلوك إلى الله يسيرًا؛ ويتضح طريق الإنسانيّة المستقيم؛ وتفتح أمام الإنسان أبواب البركات والجنات؛ وتغلق أمامه أبواب جهنم والدركات؛ وينظر الله تبارك وتعالى إليه بعين اللطف والرحمة؛ وينخرط في سلك أهل الإيمان؛ ويصبح من أهل السعادة وأصحاب اليمين؛ ويفتح له طريق إلى المعارف الإلهيّة، وهي غاية خلق الجنّ والأنس.



الْحَدِيثُ الثَّانِي

الرِّيَاءُ

قال أبو عبد الله عليه السلام:

«كُلُّ رِيَاءٍ شِرْكٌ؛ إِنَّهُ مَنْ عَمِلَ لِلنَّاسِ، كَانَ ثَوَابُهُ عَلَى النَّاسِ؛
وَمَنْ عَمِلَ لِلَّهِ، كَانَ ثَوَابُهُ عَلَى اللَّهِ»^(١).

معاني المفردات

الرياء: إظهار شيء من الأعمال الصالحة، أو الصفات الحميدة، أو العقائد الحقة الصحيحة، للناس، لأجل الحصول على منزلة في قلوبهم، والشهرة بينهم بالصلاح، والاستقامة، والأمانة، والتدين، من دون أن تكون هناك نية إلهية صحيحة.

مراتب الرياء ومقاماته

وللرياء مراتب، والتخلص من جميعها من مختصات أولياء الله؛ فنفس عامة الناس بحسب الغريزة، والفطرة، تميل إلى إظهار خيراتها، وإن لم يقصدوا ذلك، وهذا لا يوجب بطلان العمل، أو الشرك، أو النفاق، أو الكفر، وإن كان ذلك شركا ونفاقا لدى الولي، أو العارف بالله، والتنزه عن مطلق الشرك، والإخلاص في جميع مراتبه، هو أول مقامات الأولياء؛ ثم إن قول الأئمة عليهم السلام: «إِنْ عِبَادَتَنَا عِبَادَةُ الْأَحْرَارِ، أَيُّ حُبِّ اللَّهِ، لَا طَمَعًا فِي الْجَنَّةِ، وَلَا خَوْفًا مِنَ النَّارِ، هُوَ أَوْلَى

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني - كتاب الإيمان والكفر - باب الرياء - ح ٣

درجات الولاية، ولهم في العبادات حالات لا يمكن أن تستوعبها عقولنا؛ عليه
يمكن الجمع بين الحديث السابق، وحديث محمد بن يعقوب بإسناده عن أبي
جعفر عليه السلام قال: «سَأَلْتُهُ عَنِ الرَّجُلِ يَعْمَلُ الشَّيْءَ مِنَ الْخَيْرِ فَيَرَاهُ إِنْسَانٌ فَيَسْرَهُ
ذَلِكَ، قَالَ: لَا بَأْسَ، مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَظْهَرَ لَهُ فِي النَّاسِ الْخَيْرُ إِذَا لَمْ
يَكُنْ صَنَعَ ذَلِكَ لِذَلِكَ»^(١).

ويتحقق الرياء في ثلاث مقامات:

الأول: العقائد الحقة والمعارف الإلهية.

الثاني: الخصال الحميدة، والملكات الفاضلة.

الثالث: الأعمال والعبادات الشرعية، أو الأمور الراجحة عقلاً.

ولكل مقام منها درجتان:

إحداهما: بإثباتها لنفسه: عقائد، أو ملكات، أو أعمال.

والثانية: بنفي ما يقابلها عن نفسه.

وهذا تفصيل ذلك:

المقام الأول: وله درجتان، إحداهما: أن يظهر العقائد الحقة والمعارف الإلهية،
رياءً، كأن يقول: لا مؤثر في الوجود إلا الله، أو: لا أتوكل على أحد سوى الله، أو
أن يثني على نفسه كناية، أو إشارة بامتلاك العقائد الحقة، كأن يتأوه أو يهز رأسه
إذا جرى حديث عن التوكل أو الرضا بقضاء الله. والأخرى: أن ينزه نفسه عن
العقائد الباطلة، بصراحة القول، أو بالإشارة، أو الكتابة.

والرياء في أصول العقائد، والمعارف الإلهية، أشد أنواع الرياء عذاباً،
وأسوأها عاقبة، هذا المرئي لا يخلو عن حالين:

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر - باب في أصول الكفر وأركانه

أحدهما: أن لا يعتقد بالأمر الذي يظهره، فهو من المنافقين، الخالدين في النار. والآخر: أن يعتقد بما يظهره، لكنه يظهره رياء، وهذا من الشرك الخفي؛ لأن المعارف الإلهية، والعقائد الحقّة، يجب أن تكون خالصة لله تعالى، ففي الحديث القدسي: «أَنَا خَيْرُ شَرِيكَ، مَنْ أَشْرَكَ مَعِيَ غَيْرِي فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ لَمْ أَقْبَلْهُ إِلَّا مَا كَانَ لِي خَالِصًا»^(١)، فالله تعالى لا يقبل الأعمال القلبية في حال عدم خلوصها، بل يوكلها إلى الشريك الآخر.

ما ينبغي أن نعلمه، أن الإيمان بالله غير العلم به، ألم يكن إبليس عالماً بالله، ووحدانيته، وسائر صفاته؟ فكمال الإيمان هو إطمئنان القلب، فمن الممكن أن يدرك العقل شيئاً بالدليل، لكن القلب لم يسلم له بعد، فأنت تدرك بعقلك أن الميت لا يستطيع أن يضّرّ أحداً، إذ لا حس له، ولا حركة، ولكن لما كان القلب لم يتقبل هذا الأمر، ولم يسلم أمره للعقل، فإنك لا تقدر على مبيت ليلة مظلمة واحدة مع ميت!! فالتسليم الذي هو من حظ القلب، غير العلم الذي هو من حظ العقل؛ فما لم تكتب جملة (لا إله إلا الله) بقلم العقل على لوح القلب الصافي، لن يكون الإنسان مؤمناً بوحدانية الله؛ وعندما ترد هذه الجملة النورانية الإلهية على القلب، ينتفي الرياء، وتصبح سلطة القلب لذات الحق تعالى، فلا يعرف الإنسان بعدها شخصاً آخر مؤثراً في مملكة الحق، ولا يتوقع من شخص آخر جأها ولا جلالاً، ولا يبحث عن المنزلة والشهرة عند الآخرين؛ فإذا رأيت رياء في قلبك، فاعلم أن قلبك لم يسلم للعقل، وأن الإيمان لم يقذف نوره فيه، وأنك تعد شخصاً آخر إلهاً ومؤثراً في هذا العالم، لا الحق تعالى، وأنك في زمرة المنافقين، أو المشركين، أو الكفار.

(١) أصول الكافي - المجلد الثاني - كتاب الإيمان والكفر - باب الرياء - ح ٩

تهدأ، أيها المرئي، للظلمات التي لا نور بعدها، وللنار التي تخرج من باطن القلب فتحرق ملكوت النفس، وملك البدن، حرقاً لم يخطر على قلبي وقلبك، والتي يخبرنا عنها قوله تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ * الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾^(١). إنها نار الله، التي تتسلط على القلوب فتحرقها، إنه العذاب الذي ينبعث عن الغضب الإلهي؛ فلا تعرض له نفسك، ولا تبع حب الله وكراماته بمحبة مخلوق لا أثر له، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

المقام الثاني: وله درجتان، إحداهما: أن يظهر الخصال الحميدة، والملكات الفاضلة، والأخرى: أن يتبرأ مما يقابلها، وأن يزكي نفسه منها.

إن خطوات الشخص الذي يعرض أخلاقه الحسنة، وملكاته الفاضلة على الناس، ليلفت أنظارهم إليه، هي خطوات النفس، وهو متكبر، وأناي، ومعجب بنفسه، وعابد لها؛ وقد ذكرنا في شرح الحديث الأول، أنه يمكن أن تكون للإنسان في عالم الملكوت صورة تغاير الصورة الإنسانية، وأن تلك الصورة تتبع ملكوت النفس وملكاتهما، فإذا كنت ذا ملكات فاضلة إنسانية، لا تتصرف النفس الأمارة بالسوء فيها، كانت صورتك في عالم الملكوت إنسانية، وإذا كان تحركك بخطي النفس، وكانت رياضتك من أجل الحصول على قوى النفس، وقدرتها، وتسلطها، كانت رياضتك باطلة، وأدى سلوكك إلى سوء العاقبة.

وإذا كان تحركك بخطي الحق، باحثاً عن الله، فإن رياضتك حقّة، وشرعية، وسيأخذ الله تعالى بيدك ويهديك، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^(٢). وتسقط عنك الأناء، ويوزل عنك الغرور.

(١) الهمزة: ٦ - ٧.

(٢) العنكبوت: ٦٩.

وما دامت مملكة وجودك مملوءة بحب الجاه، والشهرة، فلا ملكاتك بالفاضلة، ولا أخلاقك بالإلهية، ولا سبيل للمعارف الإلهية، والتوحيد الكامل، إلى قلبك، إن المتصرف في قلب المؤمن الحقيقي هو الله، لا النفس، ففي الحديث القدسي: «لا تسعني أرضي ولا سمائي، بل يسعني قلب عبدي المؤمن»^(١)، وقلب فيه الله لا يتيه، ولا يتمرد، «قلب المؤمن بين إصبعي الرحمن يقلبه كيف يشاء»^(٢).

اعلم أنك ما دمت على هذه الحال من الرياء، فأنت كافر بالله، معدود من زمرة المنافقين، على رغم ادعائك الإسلام، والإيمان؛ فاستيقظ من نوم الغفلة، فقد جاء في الحديث القدسي: «يا بن آدم خلقت الأشياء لأجلك، وخلقتك لأجلي»^(٣)؛ لقد اتخذ الله تعالى من قلبك منزلاً له، فأنت وقلبك من الحرمات الإلهية، والله تعالى غيور، فلا تهتك حرمة، احذر غيرة الله، وإلا فضحك في هذا العالم على نحو لن تستطيع إصلاحه؛ إن الحق تعالى ستار، ولكنه غيور أيضاً، إنه أرحم الراحمين، ولكنه أشد المعاقبين، يستر ما لم يتجاوز الحد، وقد تؤدي هذه الفضيحة الكبرى إلى تغليب الغيرة على الستر، وقد قال الرسول الأعظم ﷺ: «إِنَّ الْمَلِكَ لَيُصْعَدُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مُبْتَهَجًا بِهِ فَإِذَا صَعَدَ بِحَسَنَاتِهِ، يَقُولُ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ)، اجْعَلُوهَا فِي سَجِّينَ، إِنَّهُ لَيْسَ إِلَيَّ أَرَادَ بِهَا»^(٤).

المقام الثالث: وهو الرياء المعروف عند الفقهاء الماضين، وله درجتان، إحداهما: أن يأتي بالأعمال والعبادات الشرعية، أو بالأموال الراجحة عقلاً، لجلب

(١) عوالي اللآلي ٧/٤

(٢) بحار الأنوار ٤٨/٧٢

(٣) المنهج القوي، المجلد الخامس - ص ٥١٦. علم اليقين - المجلد الأول - ص ٣٨١.

(٤) أصول الكافي، المجلد الثاني - كتاب الإيمان والكفر - باب الرياء - ح ٧.

القلوب، سواء أن يأتي بالعمل نفسه بقصد الرياء، أو بكيفيته، أو شرطه، أو جزئه؛ والأخرى: أن يترك عملاً محرماً أو مكروهاً.

إنَّ عامة الناس؛ يفوزون بالجنة بالأعمال الحسنة، وترك الأعمال السيئة، لذا يدخل الشيطان عليهم من هذا الطريق، ويسقي جذور الرياء في أعمالهم، فتفرّع، وتورق، ويبدل حسناتهم سيئات، ويدخلهم جهنم ودركاتها من طريق المناسك والعبادات؛ لذا كان الرياء في هذا المقام، أكثر من المقامين الآخرين، وأوسع شيوعا.

هذا الرياء من الدقة، والخفاء، إلى الحد الذي يتسرب إلى أعمال الشخص المرائي وهو غافل عنه؛ لأن الإنسان مجبول على حب النفس، وحجاب حب النفس يستر عنه معاييب نفسه.

فمثلاً في دراسة علوم الدين، التي هي من الطاعات والعبادات المهمة، يُبتلى الدارس بالرياء من حيث لا يدري، بسبب الحجاب الغليظ لحب النفس؛ إنه يجب أن يتفرّد في استيعاب معضلة علميّة، وحلّها لدى محضر العلماء، ويتهيج أكثر، كلما كان توضيحه للمسألة العلميّة أحسن، ولفت انتباه الحاضرين أكثر، إن هذا المسكين غافل عن أنه أحرز منزلة لدى العلماء ولكنه سقط من عين ربهم، ومالك ملوك العالم، فإذا ألقت النفس مرة أخرى شباك كيدها، لتقول لك: إن هدفي هو إعلان الحكم الشرعي، وإظهار كلمة الحق، وهو من أفضل الطاعات، وليس لإظهار العلم، والتكبر، وحب الظهور، فاسأل نفسك في الباطن: لو كان زميلي المساوي لي في الدرجة العلميّة هو الذي قال ذلك الحكم الشرعي، وهو الذي حلّ تلك المعضلة، وكنت أيتها النفس مغلوبة في ذلك المحضر، أكان ذلك على حد سواء عندك؟ إذا كان كذلك فأنت صادق؛ وإذا لم

تترك كيدها وقالت لك: إن إظهار الحق فضيلة، وأنا أريد أن أناها، فقل لها: لنفرض أن الله تعالى أنعم عليك بتلك الفضيلة نفسها في حالة مغلوبيتك، وتصديقك بالحق، فهل تبقيين طالبة للغلبة؟ فإذا رجعت إلى باطنك ورأيت أنك ما زلت تميل إلى الغلبة، والشهرة بين العلماء بالعلم والفضل، وأن بحثك العلمي كان للحصول على المكانة في قلوب أولئك، فاعلم أنك مرء في هذا البحث العلمي، وأن عملك هذا في سجين.

وفي صلاة الجماعة، التي هي واحدة من العبادات العظيمة في الإسلام، وفضل إمامتها أعظم، ومن هنا فإن الشيطان ينفذ إلى هذه العبادة أكثر، وهو مع الإمام أشد عداوة، ويسعى إلى أن ينتزع منه هذه الفضيلة، ويفرغ عمله من الإخلاص، من خلال إظهار هذه العبادة العظيمة، أمام الناس، للحصول على منزلة في قلوبهم، فمثلاً يرى إمام الجماعة أن أحد المشهورين بالتقوى والدين قد حضر إلى صلاة جماعته، ولأجل جذب قلبه، يكثّر من الخضوع له، ومن أجل تعظيم نفسه عند الغائبين الذين لم يحضروا صلاة جماعته، يتحدث في المجالس عن ذلك المتدين، ويحاول إفهام الناس أن فلانا يأتيهم به.

إن الشيطان لا يترك حتى إمام جماعة قليلة الأفراد، فيذهب إليه، ويوحي له، فيوسوس في نفسه: إنني قد أعرضت عن الدنيا، وأقيمها في مسجد صغير، مع الفقراء والمساكين.

وقد نقصّر في الحضور في صلاة الجماعة، ونحمل الهم والأسى لعدم توافر الظروف والمناخ لإقامة صلاة الجماعة بإمامتنا، فيدفعنا إلى الإساءة إلى جماعة المسلمين، والطعن بهم، وخلق عيوب للجماعة، ونعد عدم الاشتراك في الجماعة، عزلة، نظهر أنفسنا كأننا زاهدون في الدنيا، ومنزهون عن حب الجاه والذات، في

حين أننا أسوأ من كلتا الفئتين السالفتين، فلا نحن لننا الدنيا الكاملة التي نالتها الطائفة الأولى، ولا دنيا الطائفة الثانية الناقصة، ولا نحن فزنا بالآخرة، ولو أُتيح لنا ما نريد لكننا أشد من كلتا الطائفتين حبا للجاه والمال.

والشيطان لا يكتفي بإمام الجماعة وحده بجعله من أهل النار، بل يدخل إلى صفوف المصلين المؤمنين، فلما كانت فضيلة الصف الأول أعظم من سائر الصفوف، وجانب يمين الإمام أكثر فضلا من جانب يساره، فهو يستهدفه أكثر من غيره.

مسكين هذا المتدين يجره الشيطان من بيته البعيد، ويجلسه في الجانب الأيمن من الصف الأول، ثم يوسوس له كي يتباهى على الناس بهذه الفضيلة، ثم يذهب الشيطان إلى الصفوف الأخرى، ويدفعهم إلى أن يطعنوا من في الصف الأول بسهام الشتم، وأحيانا قد يرى شخص محترم، من أهل الفضل والعلم، قد أخذ الشيطان بيده وأجلسه في الصف الأخير، وكأنه يريد أن يقول للحاضرين: إني بمقامي هذا لا ينبغي أن أصلي مع شخص كهذا، ولكن لكوني قد أعرضت عن الدنيا، وليس لدي هوى في النفس، فقد جئت وجلست في الصف الأخير.

ولا يكتفي الشيطان بالإمام والمأموم، بل يأخذ بزمام بعض المصلين المنفردين عن الجماعة، فيقوده من السوق، أو المنزل، بدلال وتبخر، إلى زاوية في المسجد، إذ يفرش سجاده منفردا، دون أن يرى أي إمام عادلا، ويصلي في حضور الناس، ويطيل السجود، والركوع، والأذكار؛ هذا الإنسان يضمّر في باطنه كلمة للناس: إنني متدين ومحتاط إلى درجة أترك صلاة الجماعة لئلا أبتلى بإمام غير عادل.

أيها العزيز، كن دقيقا في أعمالك وحاسب نفسك في كل عمل، واستنطقها

عن الدوافع، فما الذي يدفعها إلى السؤال عن مسائل صلاة الليل أو على ترديد الأذكار؟ هل تريد أن تتفهم أحكام صلاة الليل وتعلمها قربة إلى الله، أو تريد أن توحى إلى الناس بأنك من أهل صلاة الليل؟ لماذا تريد أن تخبر الناس بأي أسلوب كان، عن الزيارة للمشاهد المشرفة وحتى عن عدد الزيارات؟ لماذا تتحدث عن الصدقات التي تعطيها في الخفاء؟ إذا كان ذلك لله، وتريد أن يتأسى بك الناس؛ لأن «الدال على الخير كفاعله»^(١)، فذلك حسن، واشكر الله على هذا الضمير النقي والقلب الطاهر! ولكن كن حذرا في مناظرة نفسك ومجادلتها، ولا تنخدع بمكرها، وإظهارها الرياء بصورة عمل مقدس، إن أعمالنا ليست خالصة لله، بدليلين:

أحدهما: تسلط الشيطان علينا وسيطرته؛ لأنه لا سلطان له على عباد الله المخلصين، ولا يمدّ يده إلى ساحتهم المقدسة؛ قال تعالى حكاية عن إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾^(٢)، إن الشيطان كلب أعتاب الحضرة الإلهية، وكلب الدار لا يطارده معارف صاحبها، ولكنه لا يسمح بدخول الغرباء، فإذا رأيت أن للشيطان سيطرة عليك، فاعلم أن أعمالك غير خالصة، وأنها ليست لله تعالى.

والآخر: عدم جريان ينابيع الحكمة من قلوبنا على ألسنتنا، على الرغم من أننا نعمل أربعين سنة نتصور أنها قربة إلى الله، في حين قال رسول الله ﷺ: «ما أخلص عبْدُ الله عزَّ وجلَّ أربعين صباحًا إِلَّا جَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ»^(٣).

(١) بحار الأنوار ج ٩٣، ص ١٧، كتاب الزكاة والصدقة، الباب ٢٠، ح ١

(٢) الحجر: ٤٠

(٣) بحار الأنوار، المجلد ٧٠، ص ٢٤٢.

أيها المرائي، أنت مشرك، وأما العاصي فموحد؛ وإن الله يرحم بفضلِهِ العاصي إن شاء، لكنه يقول إنه لن يرحم المشرك إذا رحل من الدنيا بلا توبة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾^(١)، فيا ليتك كنت من أهل الكبائر، متجاهرا بالفسق، متتهكاً للحرمان الظاهريّة، وكنت موحداً، ولم تشرك بالله.

راقب قلبك، وانتبه له، وأخضع كل حركاتك وسكناتك للملاحظة، وفتش في خبايا قلبك، وحاسبه حساباً شديداً مثلما يحاسب شخص من أهل الدنيا شريكه، واترك كل عمل فيه شبهة الرياء ولو كان عملاً شريفاً جداً؛ وإذا رأيت أنك لا تستطيع أداء الواجبات بإخلاص في العلن، فأدها في الخفاء مع استحباب الإتيان بها في العلن. فقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ بِمَا يُحِبُّ اللَّهُ، وَبَارَزَ اللَّهَ فِي السِّرِّ بِمَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ، وَلَهُ مَاقِتٌ»^(٢)، وفي هذا الحديث الشريف احتمالان:

أحدهما: الذي يظهر للناس الأعمال الصالحة، ويخفي الأعمال القبيحة.
والآخر: الذي يظهر للناس هيكل العمل الصالح، وفي الباطن يقصد الرياء.

وكلتا الصورتين يشملهما الرياء.

علامات المرائي

لما كان الرياء شديد الخفاء، حتى على المرائي نفسه أحياناً، فيتوهم عمله

(١) النساء: ٤٨

(٢) وسائل الشيعة. المجلد الأول. الباب الحادي عشر من أبواب مقدمة العبادات ح ١٤ ص ٥٠.

خالصا، ذكروا للرياء علامات، وبوساطة تلك العلامات يطلع على سريره، وينهض لمعالجتها.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ثلاث علامات للمُرَائِي: يَنْشَطُ إِذَا رَأَى النَّاسَ، وَيَكْسُلُ إِذَا كَانَ وَحْدَهُ، وَيَحِبُّ أَنْ يُحْمَدَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ»^(١).

استئصال جذور الرياء

لاستئصال هذه السيئة الخبيثة، على الإنسان أن يسعى إلى تخلص قلبه تماما بالمجاهدة والمشقة، من حب الشهرة بين الناس، وطلب المكانة بينهم، كي يكون العمل خالصا من هذه الجهة، ويتوجه القلب إلى الله فقط، حتى تطهر الروح، وتزول أدران النفس؛ فآية فائدة تجني من حب الناس الضعاف لك، أو من الشهرة، والصيت عند العباد، وهم لا يملكون شيئا من دون الله تعالى؟ ولو فرضنا لذلك فائدة فإنما هي فائدة تافهة، لأيام معدودات.

فإن لم يستطع ذلك يجب أن يستحضر أن قلوب العباد بيد ربهم، لا بأيديهم، لإحاطته المطلقة بكل شيء، فيلمس قلوب الناس من مالك القلوب، أعمل أنت لله وحده فستجد أن الله تعالى، فضلا عن الكرامات الأخروية، ونعم ذلك العالم، يتفضل عليك في هذا العالم نفسه بكرامات عديدة، فيجعلك محبوبا، ويعظم مكانتك في القلوب، ويجعلك مرفوع الرأس وحيها في الدنيا والآخرة، قال الإمام الصادق عليه السلام: «مَا مِنْ عَبْدٍ أَسْرَّ خَيْرًا فَذَهَبَتِ الْآيَامُ أَبَدًا حَتَّى يُظْهَرَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا، وَمَا مِنْ عَبْدٍ يُسِرُّ شَرًّا فَذَهَبَتِ الْآيَامُ أَبَدًا حَتَّى يُظْهَرَ اللَّهُ لَهُ شَرًّا»^(٢).

(١) أصول الكافي - المجلد الثاني - كتاب الإيمان والكفر - بالرياء - ح ٨

(٢) أصول الكافي - المجلد الثاني - كتاب باب الرياء - ح ٤



الْحَدِيثُ الثَّالِثُ

ع
ع
الْعَجَبُ

عن أبي الحسن عليه السلام قال:

«سألتُهُ عن العُجْبِ الذي يُفْسِدُ العَمَلَ، فقال: العُجْبُ درجاتٌ، منها أن يُزَيِّنَ لِلْعَبْدِ سُوءَ عَمَلِهِ فَيَرَاهُ حَسَنًا فَيُعْجِبُهُ، وَيَحْسَبُ أَنَّهُ يُحْسِنُ صُنْعًا، وَمِنْهَا أن يُوْمِنَ العبدُ بربه، فيُؤْمِنَ على الله عز وجل، والله عليه فيه المَن»^(١).

معاني المفردات

العُجْبُ: تعظيم العمل الصالح، واستكثاره، والسرور، والابتهاج به، والتغنج، والدلال بوساطته، وعدّ الإنسان نفسه غير مقصّر.

والعمل المقصود يشمل الباطني والظاهري، القلبي والشكلي، القبيح والحسن؛ لأن العُجْبَ يدخل على أعمال الجوارح، والجوانح، فيفسدها، وعلى صاحب الفضيلة، والعمل الشنيع.

ويفصّل عالم كبير قائلا: «لا ريب في أن من عمل أعمالا صالحة من صيام الأيام، وقيام الليالي، وأمثال ذلك يحصل لنفسه ابتهاج، فإن كان من حيث كونها عطية من الله له، ونعمة منه تعالى عليه، وكان مع ذلك خائفا من نقصها، شقيقا من زوالها، طالبا من الله الازدیاد منها، لم يكن ذلك الابتهاج عُجْبًا؛ وإن كان من حيث كونها صفته، وقائمة به، ومضافة إليه، فاستعظمها وركن إليها ورأى نفسه خارجا عن حدّ التقصير، وصار كأنه يمين على الله سبحانه بسببها فذلك هو العُجْب»^(٢).

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب العجب، ح ٣

(٢) بحار الأنوار، المجلد ٧٢، ص ٣٠٦

درجات العجب

الأولى: العُجْبُ بالإيمان، والمعارف الحقّة، ويقابله العجب بالكفر والشرك والعقائد الباطلة.

الثانية: العُجْبُ بالملكات الفاضلة، والصفات الحميدة، ويقابله العجب بسيئات الأخلاق، وباطل الملكات.

الثالثة: العُجْبُ بالأعمال الصالحة، والأفعال الحسنة، ويقابله العجب بالأعمال القبيحة، والأفعال السيئة.

منشأ العجب

أساس رذيلة العُجْبِ هو حب النفس؛ لأن الإنسان مفطور على حب ذاته، لذا يرى أعماله الصغيرة كبيرة، ويرى نفسه من الصالحين، ومن خاصة الله، بل يرى قبائح أعماله حسنة.

مراتب العجب

لكل درجة من درجات العجب مراتب، تختلف في الشدة، والوضوح، حتى أنّ بعضها لا يمكن للإنسان أن يدركها ما لم يفتش بدقة؛ هذه المراتب هي:

الأولى: الشعور القلبي بالمنة على الله، فيتخيل أن الساحة الإلهية قد اتسعت بسبب إيمانه، أو أن دين الله قد اكتسب رونقاً بأعماله الصالحة، ومن هذا الشعور تنشأ المنّة على عباد الله في الأمور الدنيّة، كأن يمنّ على الضعفاء والفقراء بإعطائهم الصدقات الواجبة والمستحبة ومساعدتهم.

الثانية: التدلل والتغنج على الله تعالى، وهذه غير المنّة، فيرى نفسه في سلك المقرّبين والسابقين، وقد يبدي التواضع رياءً أو أنه لكي يثبت ذلك المقام لنفسه

ينفيه عن نفسه على نحو يستلزم الإثبات؛ ومدّعو الإرشاد من العرفاء، وأهل السلوك والرياضة، أقرب إلى هذا الخطر من سائر الناس.

الثالثة: أن يرى نفسه دائئاً لله، مستوجبا لثوابه، فإذا جاء ذكر المؤمنين بالغيب، قال في نفسه: حتى لو عاملني الله بالعدل، فإني أستحقّ الثواب والأجر، وقد يصرح بهذا الكلام؛ وإذا ما أصابه بلاء اعترض على عدل الله قلبيا، وأظهر الرضا ظاهريا، وعندما يسمع أن الله يبتلي المؤمنين في هذه الدنيا، يسلي نفسه بذلك في قلبه، ولا يدري بأن المنافقين المبتلين كثيرون، وليس كل مُبتَلٍ بمؤمن.

الرابعة: أن يرى لنفسه امتيازاً على سائر الناس بالإيمان، وعلى سائر المؤمنين بكمال الإيمان، ينظر إلى الناس بعين الاحتقار، ويعيهم بلسانه، ويستعظم من نفسه ما يستصغر من غيره، إنه يعرف جيدا عيوب الناس، ولكنه غافل عن عيوب نفسه.

عُجْب أهل الفساد بفسادهم

يُعجب أهل الكفر، والنفاق، وذوو الأخلاق القبيحة، والمعاصي، بكفرهم، ونفاقهم، وقبح أخلاقهم، ومعاصيهم، فيرون أنفسهم أولى حرية في الفكر، وشهامة في الخلق، ورجولة في الأفعال، يرون قبائحهم حسانا، فهم مصداق قوله تعالى ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾^(٢). هؤلاء جهلة يحسبون أنفسهم علماء، فلا تؤثر فيهم الدعوة والنصيحة؛ لأنهم يسدّون أسماعهم عن هداية الأنبياء ﷺ، وبرهان الحكماء، وموعظة العلماء.

(١) فاطر: ٨

(٢) الكهف: ١٠٣ - ١٠٥

حيل الشيطان

إن النفس والشيطان بتهوينهما بعض المعاصي، يلتقيان بالإنسان في ما هو أكبر، وهكذا يسير نحو الهاوية خطوة فخطوة، حتى تسقط جميع المعاصي في نظره، فيستهين بالشريعة والقانون الإلهي، ويؤول عمله إلى الكفر، والزندقة، والإعجاب بهما.

وعلى غرار ذلك يتطور العجب بالطاعات من درجة إلى أعلى؛ حتى يصل إلى المنّ على الله تعالى، إن الشيطان لا يأمر المتقين بقتل النفس، أو الزنا، ولا يقول لهم ابتداء: مُنُّوا على الله بتقواكم، أو ضعوا أنفسكم في زمرة المقرّبين من حضرته؛ وإنما يبدأ فيدفعهم نحو الحرص الشديد على التزام المستحبات، والأذكار، والأوراد؛ ثم يوحى لهم بأنهم بحكم الشرع، والعقل، أفضل من فلان العاصي، وأن أعمالهم موجبة لنجاتهم، فتحصل من هذه الإيحاءات نتيجتان:

إحدهما: سوء الظن بعباد الله.

والأخرى: العُجب بالنفس.

وكلاهما من المهلكات.

قولوا للشيطان والنفس: قد تكون لهذا العاصي، حسنات أخرى، فيشملة الله تعالى بها، بوافر رحمته، فيؤول إلى حسن العاقبة، ولعل الله قد ابتلاه بالمعصية لكي لا يتلى بالعُجب، الذي هو أسوأ منها، قال أبو عبد الله عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ عَلِمَ أَنَّ الذَّنْبَ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ الْعُجْبِ وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا ابْتَلَى مُؤْمِنًا بِذَنْبٍ أَبَدًا»^(١)، وكان شيخنا الجليل العارف الكامل الشاه آبادي (روحي فداه) يقول: «لا تعيبوا على

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب العجب، ح ١ ص ٢١٢.

أحد، حتى في قلوبكم، وإن كان كافرا، فلعل نور فطرته يهديه، ويقودكم تقييحكم ولومكم هذا إلى سوء العاقبة».

مفاسد العُجْب

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ دَخَلَ الْعُجْبَ هَلَكَ»^(١)، فالعجب بنفسه من المهلكات التي تحبط إيمان الإنسان، وأعماله، وتفسدها، وهو أشد من الذنب في حضرة الله تعالى؛ ولهذا قد يتلى الله سبحانه المؤمن بالمعصية لكي يصبح آمنا من العجب؛ وصورة العجب في البرزخ وما بعد الموت، موحشة ومرعبة جدا، قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في وصيته لأمر المؤمنين عليهم السلام: «وَلَا وَحْدَةً أَوْحَشَ مِنَ الْعُجْبِ»^(٢).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَقُولُ: إِذَا ظَفَرْتُ بِابْنِ آدَمَ فِي ثَلَاثٍ فَلَا يُهَمِّنِي عَمَلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ؛ لَأَنَّهُ لَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ: إِذَا اسْتَكْثَرَ عَمَلُهُ، وَنَسِيَ ذَنْبَهُ، وَتَسَرَّبَ إِلَيْهِ الْعُجْبُ»^(٣).

وفضلا عن كون العجب بنفسه من المهلكات، فإنه شجرة خبيثة، نتاجها الكثير من الكبائر، والموبقات، والمفاسد، منها:

الأولى: استصغار المعاصي، وعدم النهوض لإصلاحها؛ لأن حجاب الإعجاب بالنفس، يحول بينه وبين رؤية معائب نفسه، وهذا يحجز الإنسان عن الكمالات جميعا.

(١) وسائل الشيعة، المجلد الأول، الباب ٣ من أبواب مقدمة العبادات ح ١٨

(٢) وسائل الشيعة، المجلد الأول، الباب ٢٣ من أبواب مقدمة العبادات ح ٨

(٣) خصال الصدوق، باب الثلاثة، ح ٨٦

الثانية: اعتماد الإنسان على نفسه، فيحسب أنه في غنى عن الحق تعالى، ولا يرى له عليه فضلا، فيحسب أن الحق تعالى ملزم بأن يعطيه الأجر والثواب.

الثالثة: احتقار عباد الله، فيحسب أعمال الناس لا شيء وإن كانت أفضل من أعماله.

الرابعة: دفع صاحبه إلى الرياء؛ لأنه يرى نفسه كاملا، وأعماله جيدة، فيندفع إلى التظاهر بها، وعرض نفسه على الناس.

الخامسة: يؤدي إلى رذيلة الكبر المهلكة.

كيفية استئصال العجب

إذا استحضر الإنسان حقيقة هذه الرذيلة، وآثارها، فإنه سيلزم نفسه بالnehوض لإصلاحها، وتطهيرها، باستئصال جذورها من باطن النفس، قبل أن يرى في القيامة أن حال أهل الكبائر أفضل من حاله، إذ غمرهم الله برحمته الواسعة، لندمهم، أو لرجائهم فضله تعالى.

عندما يعلن رسول الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أفضل الكائنات وأقربها إلى الله قائلا: «مَا عَرَفْنَاكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ وَمَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ»^(١)، فماذا سيكون حال سائر الناس؟.. نعم إنهم العارفون بعظمة الله تعالى، يعلمون، أنهم لو قضوا جميع أعمارهم في الدنيا بالعبادة والطاعة والتحميد والتسبيح، لما أدّوا شكر نعم الله، فكيف يمكن أداء حق الثناء على ذاته وصفاته المقدسة؟، إنهم يعلمون أن ليس لموجود شيء، فالحياة، والقدرة، والعلم، والقوة، وسائر الكمالات الأخرى هي ملك لكمالته تعالى، والإنسان فقير، بل فقر محض يستظل بظله تعالى، فأية قدرة

(١) مرآة العقول، ج ١٢، ص ١٥٥، باب الاستغفار، ح ١٤

يملكها لكي يتاجر بها؟ أولئك العارفون بالله وبجماله وجلاله شاهدوا شهود عيان نقصهم، وعجزهم، وشاهدوا كمال الواجب تعالى.

أيها المسكين الجاهل بنفسك، الغافل عن واجباتك بإزاء ربك! جهلك هو سبب ما يلحقك من سوء التوفيق، والابتلاء بجميع هذه الظلمات والمكدرات. فلنفكر قليلا في أعمالنا الصالحة لنرى هل نستحق بها المدح، والثناء، والثواب، والرحمة، أو أننا جديرون باللوم، والعتاب، والغضب والنقمة؟ دعوني أسألكم: لو أخبركم الرسول الأكرم ﷺ، بأنكم ناجون، ومن أهل الجنة، سواء أطعتم الله أو عصيتموه، ولن تختلف درجاتكم في الآخرة، ولكن مع ذلك رضا الله تعالى في عبادته، والابتعاد عن الشهوات، والرغبات النفسانية في هذا العالم، فهل كنتم تتركون الشهوات، من أجل رضا الله تعالى والرغبة فيه، أو لا؟ إنني أخبر عن نفسي وعمن هو على شاكلي بآنا كنا نصبح من أهل المعصية ونترك الطاعات ونعمل بالشهوات النفسانية.

إذن جميع أعمالنا من أجل اللذات النفسانية في الآخرة، إننا عبادة للشهوة، ونترك لذة صغيرة، للذة أعظم، إن الصلاة التي هي معراج القرب إلى الله تؤديها قربة لنساء الجنة، لا إلى الله.

إن جميع عبادتنا هذه هي من كبائر الذنوب عند العرفاء بالله وأوليائه. أيها المسكين، إن الصلاة التي تؤديها من أجل المرأة، سواء أكانت في الدنيا أم في الجنة، لا علاقة لها بالله، فلماذا إذاً تتدلل إلى هذا الحد، ألا ترى أن عليك أن تتوب من قولك وأنت تقف أمام الله قبل الدخول في الصلاة: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلدِّينِ فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١)

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١). فهل وجوهكم متوجهة إلى فاطر السماوات والأرض؟ هل أنتم مسلمون وخالصون من الشرك؟ هل صلاتكم وعبادتكم وحياتكم ومماتكم لله؟ أنت بهذه الصلاة مستحق للعذاب، ومستوجب لسلسلة طولها سبعون ذراعاً، فلماذا تحسب نفسك دائماً لله؟.

ضع أمام عينيك قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قال الله عز وجل لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا داودُ بَشِّرِ الْمُذْنِبِينَ وَأَنْذِرِ الصَّادِقِينَ. قال: كَيْفَ أُبَشِّرُ الْمُذْنِبِينَ وَأَنْذِرُ الصَّادِقِينَ؟ قال يا داودُ بَشِّرِ الْمُذْنِبِينَ أَنِّي أَقْبَلُ التَّوْبَةَ وَأَعْفُو عَنِ الذَّنْبِ وَأَنْذِرِ الصَّادِقِينَ أَنَّ لَا يُعْجَبُوا بِأَعْمَالِهِمْ فَإِنَّهُ لَيْسَ عَبْدٌ أَنْصِبُهُ لِلْحِسَابِ إِلَّا هَلَكَ»^(٢)؛ لأنه مستحق للعذاب على وفق العدالة، فإن ثواب عبادات العبد لا يعادل شكر واحدة من نعمائه.

لا تتباهى بقربك من الله، ولا تبالغ في حبك له، أيها العارف، أيها الصوفي، أيها الحكيم، أيها المجاهد، أيها المرتاض، أيها الفقيه، أيها المؤمن، أيها المقدس، أيها المساكين المبتلون بالآمال والأمانى وحب النفس، كلكم بعيدون فراسخ عن الإخلاص وعبادة الله، فلا تتغنجوا ولا تتدللوا.

(١) الأنعام: ١٦٢

(٢) الكافي، المجلد الثاني، باب العجب، ح ١ ص ٣١٤



الْحَدِيثُ الرَّابِعُ

الكبير

عن حكيم، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عَنْ أَذْنَى الْإِحَادِ، فَقَالَ:
«الْكِبَرُ أَذْنَاهُ»^(١).

معاني المفردات

الكبر: حالة نفسية تجعل الإنسان يترفع ويتعالى على الآخرين؛ وهو صفة رذيلة وخبيثة، تنجم عن العجب؛ لأن العجب هو الإعجاب بالذات، والكبر هو التعالي والتعاضم على الناس؛ فعندما يتوهم الإنسان أن فيه صفة من صفات الكمال، تنتابه حالة، هي مزيج من السرور، والتدلل، والتغنج، وهذه هي العُجب، ولكونه يرى الآخرين لا يملكون تلك الصفة، ينتابه شعور بالتقدم عليهم، وهذا يؤدي إلى التعاضم، والترفع، وهذه هي صفة «الكبر». إن الغرور يكبر، فيصبح عجبا، والعجب يكبر، فيصبح كبرا.

درجات الكبر

للكبر قسمان من الدرجات:

إحدهما: درجات تشبه درجات العجب، من حيث ما يُتَكَبَّرُ به، وهي:
الأولى: الكبر بسبب الإيمان، والعقائد الحقّة؛ ويقابله الكبر بسبب الكفر،
والعقائد الباطلة.

(١) أصول الكافي: المجلد الثاني - كتاب الإيمان والكفر - باب الكبر - ح ١.

الثانية: الكبر بسبب الملكات الفاضلة، والصفات الحميدة؛ ويقابله الكبر بسبب الأخلاق الرذيلة، والملكات القبيحة.

الثالثة: الكبر بسبب العبادات، والأعمال الصالحة؛ ويقابله الكبر بسبب المعاصي، والأعمال السيئة.

والأخرى: درجات من حيث ما يُتَكَبَّرُ عليه، وهي:

الأولى: التكبر على الله تعالى؛ وهو أقبحها، وأشدّها هلكة، وتراه في أهل الكفر، والجحود، ومدّعي الألوهية.

الثانية: التكبر على الأنبياء، والرسول، والأولياء عليهم السلام؛ وكثيرا ما كان يحصل في زمان الأنبياء، قال تعالى على لسان المتكبرين: ﴿أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾^(١)، وقال تعالى على لسان آخرين منهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(٢).

الثالثة: التكبر على أوامر الله تعالى، ويظهر في بعض العاصين، كأن يمتنع أحدهم عن الحج، بحجة أنه لا يستسيغ مناسكه من إحرام وغيره؛ بل قد يظهر عند أهل العلم، والتدين، كأن لا يتقبل مقولة الحق إذا جاءت ممن هو قريب له، أو دونه منزلة؛ فإذا سمع ذلك القول نفسه، من كبير في الدين أو الدنيا، قَبِلَهُ؛ أو يترك صلاة الجماعة في مسجد صغير، ولا يقنع بعدد قليل من المأمومين وإن علم أنّ في مثل تلك الجماعة رضا الحق تعالى.

الرابعة: التكبر على عباد الله تعالى، وأقبحه التكبر على العلماء بالله، ومنه رفض مجالسة الفقراء، والتقدم في المجالس والمحافل، وفي المشي، وفي السلوك. وقد يصعب التمييز بين التكبر، والإباء، فلا بُدَّ للإنسان من هداية الله تعالى.

(١) المؤمنون: ٤٧

(٢) الزخرف: ٣١

أسباب الكبر

للكبر أسباب متعددة ترجع كلها إلى توهم الإنسان الكمال في نفسه، مما يبعث على العُجب الممزوج بحب الذات، فيرى الآخرين أدنى منه، ويرفع عليهم قلبيا أو ظاهريا.

والكمال المتوهم قد يكون معنويا، أو ماديا، فقد يتوهم بعض أهل العرفان أنه من أهل الشهود، ومن أصحاب القلوب، والسوابق الحسنی، فيترفع على غيره، واصفا الحكماء، والفلاسفة، بالسطحيّة، والفقهاء، والمحدثين، بالظاهريّة، وأن سائر الناس كالبهائم؛ ولو كان قد تذوق حلاوة المعرفة بالله، لما تكبر على مخلوقات الله، الذين هم مظاهر جماله، وجلاله.

يقول أحد المحققين: «إن أدنى درجة الكبر في العالم هي أن يدير وجهه عن الناس، كأنه يعرض عنهم، وفي العابد هي أن يعبس في وجوه الناس، ويقطب جبينه، وكأنه يتجنبهم، أو أنه غاضب عليهم، غافلا من أن الورع ليس في تقطيب الجبين، ولا في عبوس ملامح الوجه، ولا في البعد عن الناس، والإعراض عنهم، ولا في ليّ الجيد، وطأطأة الرأس، ولملمة الأذيال، بل الورع يكون في القلب» لقد قال رسول الله ﷺ: «هاهنا التقوى»^(١) وأشار إلى صدره.

لقد وهب الله لقمان الحكمة، ومن وصايا ذلك العظيم لابنه: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾^(٢).

وقد نجد بين الفقهاء من ينظر إلى سائر الناس بعين الاحتقار، ويتكبر

(١) بحار الانوار، ج ٧٠ ص ١٩٨، ١٩٩، كتاب الايمان والكفر، باب الكبر.

(٢) لقمان: ١٨

عليهم، فهو ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾^(١)، وما من أحد يستحق الجنة، في رأيه، إلا هو وأمثاله، لقد غفل عن أنَّ الشريعة المطهرة توجب الحفاظ على كرامة المسلم.

وقد نجد بين علماء الطب، والرياضيات، والطبيعة، وأصحاب الصناعات المهمة، كالكهرباء، والميكانيك، من لا يقيم وزناً للعلوم الأخرى، ويحتقر أصحابها، فيتكبر على الناس في باطنه.

وقد نجد من يتكبر بنسكه، وصلاته، غافلاً عن أنَّ الصلاة التي لا تنهى عن الفحشاء، ولا تحافظ على القلب، ليست بصلاة.

وقد نجد صاحب الحسب، والنسب، يتكبر على من لا يملكهما، وصاحب الجمال على فاقده، وطالبه، وصاحب الأتباع، والأنصار، على من ليس له مثل ذلك.

أنماط التعبير عن الكبر

قد لا يظهر المتكبر، لسبب ما، التكبر علانية، إلا أن هذه الشجرة الخبيثة، تمد جذورها في قلبه، ولا بُدَّ من أن يتبين أثر ذلك منه، إذا خرج عن طوره الطبيعي، كأن يستولي عليه الغضب فيفلت منه الزمام، وإذا به تظهر عليه إمارات الكبرياء، والتعاضم، ويباهي الآخرين بما عنده من علم، أو عمل، ويفاخرهم به. وقد يفلت العنان من يد المتكبر، فتظهر آثار الكبر في أعماله، وحركاته، وسكناته، كأن يتقدم في المجالس، ويسبق الآخرين في الدخول، والخروج، ولا يسمح للفقراء بحضور مجالسه، ولا يحضر مجالسهم، ويحيط نفسه بهالة من الحرمة، ويظهر التعالي في مشيته، وفي نظره، وفي حديثه مع الناس.

في مفاصد الكبر

أولاً: يحول دون وصول الإنسان إلى الكمالات الظاهرية، والباطنية.

ثانياً: يحط من قدر الإنسان في أعين الخلق، في الدنيا، ويجعله تافهاً، ويحمل الناس على تحقيره، والاستهانة به؛ جاء عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا وَفِي رَأْسِهِ حِكْمَةٌ وَمَلَكٌ يُمْسِكُهَا، فَإِذَا تَكَبَّرَ قَالَ لَهُ: اتَّضَعْ وَضَعَكَ اللَّهُ، فَلَا يَزَالُ أَعْظَمُ النَّاسِ فِي نَفْسِهِ، وَأَصْغَرُ النَّاسِ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ. وَإِذَا تَوَاضَعَ رَفَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. ثُمَّ قَالَ: ائْتَعِشْ أَنْعَشَكَ اللَّهُ، فَلَا يَزَالُ أَصْغَرُ النَّاسِ فِي نَفْسِهِ، وَأَرْفَعُ النَّاسِ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ»^(١).

فإذا كنت من المبتغين للاحترام، والمقام الرفيع، عليك أن تسلك الطريق الذي يفضي بك إليه، وهو مجارة الناس، والتواضع لهم؛ فإن التكبر ينتج خلاف ما تريد.

ثالثاً: يوجب الذل، والمسكنة، في الآخرة، فصورة الكبر في الآخرة، الهوان، قال الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ الْمُتَكَبِّرِينَ يُجْعَلُونَ فِي صُورِ الذَّرِّ، يَتَوَطَّاهُمُ النَّاسُ، حَتَّى يَفْرَغَ اللَّهُ مِنَ الْحِسَابِ»^(٢)؛ وجاء في وصاياه عليه السلام لأصحابه: «إِيَّاكُمْ وَالْعِظَمَةَ وَالْكِبْرَ، فَإِنَّ الْكِبْرَ رِذَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَمَنْ نَازَعَ اللَّهَ رِذَاءَهُ قَصَمَهُ اللَّهُ وَأَذَلَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣).

ولا أعرف بأن الله تعالى إذا أذل شخصاً ماذا يصنع به؟ وبماذا يبتليه؟ لأن الذل في الدنيا يغيّر الذل في الآخرة، وقد روي عن الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله: «لَنْ

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الكبر ح ١٦.

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الكبر ح ١١.

(٣) وسائل الشيعة، المجلد ١١، أبواب جهاد النفس، باب تحريم الكبر، ح ٩.

يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبَرٍ^(١). وجاء عن الإمام الباقر عليه السلام: «الْعِزُّ رِذَاءُ اللَّهِ، وَالْكِبَرُ إِزَارُهُ، فَمَنْ تَنَاوَلَ شَيْئًا مِنْهُ أَكْبَهُ اللَّهُ فِي جَهَنَّمَ»^(٢).

وعن أبي عبد الله عليه السلام، أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ فِي جَهَنَّمَ لَوَادِيًا لِلْمُنْكَرِينَ يُقَالُ لَهُ: سَقَرٌ، شَكَى إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ شِدَّةَ حَرِّهِ وَسَأَلَهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ أَنْ يَنْتَفَسَ فَنَتَفَسَ فَأَحْرَقَ جَهَنَّمَ»^(٣).
إننا لا نستطيع أن ندرك شدة حرارة نار الآخرة في هذا العالم، إذ إن أسباب شدة العذاب وضعفه، تختلف عن أسباب شدة العذاب الدنيوي وخفتها من جهات عديدة؛ إن جميع إدراكاتنا في هذا العالم ناقصة، وضعيفة، ومحجوبة بحجب كثيرة، لا يتسع المجال لذكرها، ولا تناسبه.

إن جسم الإنسان في هذا العالم لا يتحمل الحرارة، إذ لو بقي ساعة واحدة في نار الدنيا لاستحال إلى رماد؛ ولكن الله القادر، يجعل هذا الجسم يوم القيامة، قابلاً للبقاء في نار جهنم، فلا يذوب بتلك النار، التي شهد جبرائيل بأنه لو جيء بحلقة واحدة من سلاسلها، التي طول الواحدة منها سبعون ذراعاً، إلى هذه الدنيا، لأذابت جميع الجبال من شدة حرارتها.

إنَّ نار هذه الدنيا باردة، ذاوية، عرضية، مشوبة بمواد خارجية غير خالصة؛ أما نار جهنم، فنار خالصة، لا تشوبها شائبة، وجوهر حي قائم بذاته، يحرق أهله بإدراك، وإرادة، ولو تجمعت جميع نيران العالم، وأحاطت بإنسان، لما أحاطت بغير سطح جسمه؛ أما نار جهنم، فتحيط بالظاهر، والباطن، وبالحواس المدركة،

(١) وسائل الشيعة، المجلد ١١، أبواب جهاد النفس، باب تحريم الكبر، ح ٦.

(٢) وسائل الشيعة، المجلد ١١، أبواب جهاد النفس، باب تحريم الكبر، ح ٢.

(٣) وسائل الشيعة، المجلد ١١، أبواب جهاد النفس، باب تحريم الكبر، ح ٦.

وما يتعلق بها؛ إنها نار تحرق القلب، والروح، والقوى، وتتحد بها بنحو لا نظير له في هذا العالم.

عوامل التكبر

من عوامل التكبر: صغر العقل، وضعف القابلية، والضعف، وقلة الصبر. ولو نظر الإنسان بعين الإنصاف إلى كل أمر يتقنه، وكل خصلة يمتاز بها، لأدرك أن ما تصوره كمالاً يتكبر بسببه، إمّا أنه ليس كمالاً أصلاً، وإمّا أنه لا يكاد يساوي شيئاً بإزاء كمالات الآخرين.

أقول لمن يتكبر ظاناً نفسه من أهل العرفان: يا طالب المفاهيم، ومضيّع الحقائق! تمهل، انظر إلى ما لديك من المعارف، فما الأثر الذي تراه من الحق وصفاته في نفسك؟؛ إن العلوم الطبيعية، والرياضية، أفضل مما لديك من العلم؛ لأن تلك العلوم تنتج شيئاً، وليس لعلمك ناتج، أو أن ناتجه معكوس. فالمهندس ينال نتيجة هندسته، والصانع نتيجة صنعته، أمّا أنت فقد قصرت يدك عن النتائج الدنيوية، ولم تصل إلى نتائج عرفانك؛ فحجابك أثقل. إن الحكيم، إذا كان حكيماً، وعرف نسبته إلى الخلق، وإلى الحق، خرج الكبرياء من قلبه، واستقام أمره؛ ولكن هذا المسكين الذي يركض وراء المصطلحات، والمفاهيم، يظن أنها هي الحكمة، وأنها هي التي تصنع العالم.

وأنت يا طالب علوم الفقه، والحديث، وسائر العلوم الشرعية، المتكبر بها، لا تملك من علومك أكثر من حفنة من مصطلحاتها، إن علمك لم يستطع إصلاحك، بل أنتج المفاصد الأخلاقية، والعملية، لذا أخط الأعمال خير من عملك؛ لأن تلك نتائجها عاجلة، ومفاصدها الدنيوية، والأخروية، أقل.

والأحطَّ من هذا المتكبرِّ بالفقه، والحديث، هو ذلك الذي يتكبرُّ بالأُمُور الخارجيّة، كالمال، والجاه، والخدم، والحشم، والقبيلة، وكلما كثر حبه لنفسه، وللدنيا، ازداد تأثراً بهذه الأمور.

في معالجة الكبر

يا أيها الإنسان تذكر أنّ الله أخرجك نطفة، لو مسّتها يدك لاستقذرتها، وتطهّرت منها، ووضعك في منزل ضيق، هو خصيتي الأب، وأخرجك من مجرى البول، في حالة مزرية، قبيحة، وأدخلك في رحم الأم من مكان تنفر من ذكر أسمه؛ وحوّلَكَ هناك إلى علقة، فمضغة، وغذاء يزعجك سماع اسمه، ويخجلُكَ.

في كل هذه التطورات كنت من أرذل الموجودات، وأذلها، وأحطها، ثم شملتكَ رحمته سبحانه، فظهرت فيكَ الحياة، فزادت برحمته تدريجياً قابليتك على إدارة شؤون حياتك، إلى أن أصبحت جديراً بالظهور في محيط الدنيا، فأظهركَ فيها، من خلال أشد المجاري ضعة، وفي أوطأ الحالات، وأنت أضعف في الكمالات، وفي شؤون الحياة.

تذكّر عجزك عن الاحتفاظ بشبابك، وجمالكَ، وصحتك، لو جعت يوماً لتنازلت حتى لأكل الجيفة، ولو غلبكَ العطش لما امتنعت عن شرب الماء الآسن.

انظر إلى نفسك، وما تملك من شؤون الحياة، وزخارف الدنيا، وقارنها بمديتنك؛ وقارن مديتك بوطنك؛ ووطنك بسائر الدول في الدنيا التي لم تسمع بأكثر من واحدة بالمائة منها، وقارن كل الدول بالكرة الأرضيّة، والأرض بالمنظومة الشمسيّة، وبالكرات الواسعة التي تعيش على فتات أشعة الشمس

المنيرة، وقارن كل المنظومة الشمسيّة الخارجة عن محيط فكرك، بالمنظومات الشمسيّة الأخرى، التي تعد شمسنا عضوا صغيرا فيها، ويقال: إن ملايين من المجّرات قد اكتشفت، وأن في هذه المجرة القريبة الصغيرة ملايين من المنظومات الشمسيّة، التي تكبر أصغر شمس فيها على شمسنا ملايين المرات.

هذا كله من العوالم الجسمانيّة التي لا يعرفها إلّا خالقها، وما اكتشف منها لا يبلغ إلّا الجزء الضئيل منها؛ فكيف بعوالم ما وراء الطبيعة، التي لا يمكن للعقل البشري أن يتخيّلها؟.

تذكّر يوما يأمر فيه الله تعالى حواسك بالتوقف عن العمل، فتختل أجهزة وجودك، ويذهب سمعك، وبصرك، وتضمحل قواك، وقدراتك، فتصير قطعة جامدة، وبعد أيام تزكم رائحتك العفنة، أنوف الناس، وتؤذي مشامهم، ويهربون من صورتك وهيئتك، وما أن تمضي عليك أيام آخر حتى تهترأ أعضاؤك وتتفسخ. هذه هي أحوال جسمك، أما أحوال أموالك، وثروتك، فأمرها معروف.

أمّا عالم برزخك: فيكفي فيه أن ما تسمعه عن ظلمة القبر، ووحشته، وضيقه، إنما تقيسه على ما في هذه الدنيا، من ظلمة، ووحشة، وضيق، وهذا قياس باطل.

أمّا نشأة الآخرة فأشد، وأفزع، من جميع الحالات السابقة؛ إنه يوم تبرز فيه الحقائق، وتنكشف فيه السرائر، وتتجسد فيه الأعمال والأخلاق، يوم تصفية الحساب، يوم الذلة في المواقف. تلك هي أحوال يوم القيامة!.

تذكّر أن سيد المرسلين ﷺ، كان يكره أن يقوم له أصحابه احتراماً، وإذا دخل مجلساً لم يتصدر، ويتناول الطعام جالسا على الأرض قائلاً: إنني عبد، أكل مثل العبيد، وأجلس مجلسهم.

فإذا كان التكبر بالكمال المعنوي، فقد كان الرسول الأعظم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، أرفع شأنًا، وإذا كان بالرياسة والسلطان، فقد كانت لهما الرياسة الحقّة؛ ومع ذلك، كانا أشدّ الناس تواضعًا.

اعلم، أن التواضع وليد العلم؛ والكبر وليد الجهل، فامسح عن نفسك عار الجهل والانحطاط، واتّصف بصفات الأنبياء، ولا تنازع الله في الكبرياء، التي هي رداؤه، فمن ينازع الحق في رداؤه، مغلوب، ومقهور بغضبه، ويكَبُّ على وجهه في النار.

وإذا عزمت على إصلاح نفسك، فطريقه العملي، أمر يسير مع شيء من المثابرة.

إن الأسلوب الوحيد للتغلب على النفس الأمّارة، وقهر الشيطان، هو العمل بخلاف رغباتها، اعمل قليلا بخلاف هوى نفسك، فإذا رغبت بأن تتصدر المجلس متقدما على أقرانك، فخالفها، واعمل عكس ما ترغب فيه؛ وإذا كانت نفسك تأنف من مجالسة الفقراء والمساكين، فمرّغ أنفها في التراب وجالسهم، واكلهم، ورافقهم في السفر، ومازحهم، وقد تجادل نفسك فتقول لك: إن لك مقاما، ومنزلة، وإن عليك أن تحافظ على مقامك من أجل ترويج الشريعة، والعمل في سبيلها، فمجالستك الفقراء تذهب بمنزلتك من القلوب، وإن المزاح مع مَنْ هو دونك، يقلل من عظمتك، وجلوسك في ذيل المجلس يحط من هيبتك، فلا تقدر أن تؤدي واجبك الشرعي على خير وجه!! اعلم، أن هذه كلها من مكائد الشيطان، والنفس الأمّارة؛ وانتبه جيدا إلى مكائد النفس في هذه الحالات، فربما قد أعدت لك فخا آخر، فقد يجلس أحدهم في ذيل المجلس ليقول: إن مقامه أرفع من مقامات الحاضرين، ولكنه لتواضعه جلس حيث جلس؛ فلا بُدَّ من المجاهدة

الخالصة الصادقة، وبها يمكن إصلاح النفس. إن جميع الصفات النفسانية قابلة للإصلاح، إلا أن الأمر في البداية يتطلب بعض العناء، ولكن ما أن يضع المؤمن قدمه على طريق الإصلاح حتى يسهل عليه الأمر. المهم هو الشروع في التفكير في تطهير نفسه، وإصلاحها، والاستيقاظ من نوم الغفلة.

إذا كنت من أهل الإيمان الناقص والصوري، فعليك أن تطهر نفسك من هذا الغش حتى تنضم إلى زمرة السعداء والصالحين؛ والغش يزول بنار التوبة والندم، وبإدخال النفس في أتون العذاب واللوم، وصهرها في حرارة الندامة، والعودة إلى الله. عليك أن تعمل في هذا العالم، وإلا فإن ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ * الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْعَدَةِ ﴿^(١)﴾. سوف تذيب قلبك. والله أعلم كم قرن من قرون الآخرة يستغرق إصلاحك هذا!!! إن التطهر في هذه الدنيا سهل يسير، أما في العالم الآخر، فزوال صفة من صفات النفس قد يستغرق قرونا عديدة.

إن الشيطان لم يكن قد تكبر على الله، بل على آدم، وهو من مخلوقات الحق، فقال: ﴿خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ ^(٢). فاستعظم نفسه واستحقر آدم. وأنت تستصغر بني آدم وتستكبر بنفسك عليهم، فأنت تعصي أوامر الله كما عصي الشيطان، فلماذا، تلعن الشيطان وحده؟ أشرك نفسك الخبيثة معه في اللعن أيضا، مثلما أنت شريكه في هذه الرذيلة. إنك من مظاهر الشيطان، بل إنك تجسد الشيطان. ولربما كانت صورتك في البرزخ وفي يوم القيامة صورة شيطانية. فإن المقياس في صورة الإنسان في الآخرة الملكات الحاصلة للنفس؛ فليس هناك ما يمنع من أن تكون على صورة شيطان، أو على صورة نملة صغيرة، إن موازين الآخرة تختلف عن موازين الدنيا.

(١) الهمزة: ٦ - ٧

(٢) الأعراف: ١٢

الحسد والتكبر

قد يتكبر فاقداً الكمال على واجده، كأن يتكبر الفقير على الغني، والجاهل على العالم، فمن يفتقر إلى كمال موجود في غيره، قد يندفع إلى أن يحسده، ثم يصير سبباً للتكبر عليه، والسعي لإذلاله وإهانته؛ فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: «الْكِبَرُ قَدْ يَكُونُ فِي شَرَارِ النَّاسِ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ...» ثُمَّ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَرَّ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ وَسَوْدَاءَ تَلْقَطُ السَّرِقِينَ، فَقِيلَ لَهَا: تَنْحِي عَنْ طَرِيقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: إِنَّ الطَّرِيقَ لَمَعْرُضٍ. فَهَمَّ بِهَا بَعْضُ الْقَوْمِ أَنْ يَتَنَاوَلَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا جَبَّارَةٌ»^(١).

وقد تظهر هذه الصفة في بعض أهل العلم، مسوِّغاً أن التواضع أمام الأغنياء غير محمود، إن هذا المسكين لا يميّز بين التواضع لغني من أجل غناه، والتواضع لغير ذلك. فمرة يتواضع الإنسان مدفوعاً برذيلة حب الدنيا، والانجذاب نحو طلب الجاه، وهذا من الملق، وهو من الرذائل النفسانية، ومرة أخرى يكون طبع التواضع في الإنسان داعية له إلى احترام الناس، والتواضع لهم، أفقرء كانوا أم أغنياء، فتواضعه خالص من غير شائبة، لم يجتذبه الجاه، والمقام. إنه تواضع محمود للفقراء، وللأغنياء على السواء، إن تكبرك على أهل الجاه، والغنى يعني أنك حسود، ولهذا إذا رأيتهم يحترمونك على غير انتظار، وتوقع، تتواضع لهم.

وعلى كل حال، إن مكائد النفس وأحابيلها من الدقة حداً لا يسع معه المرء إلا أن يستعيز بالله منها، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا.

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الكبر، ح ٢



الْحَدِيثُ الْخَامِسُ

الْحَسَدُ

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«قَالَ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) لِمُوسَى بْنِ عُمَرَ: يَا ابْنَ عُمَرَ، لَا تُحْسَدَنَّ النَّاسَ عَلَى مَا آتَيْتَهُمْ مِنْ فَضْلِي، وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَكَ إِلَى ذَلِكَ، وَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ، فَإِنَّ الْحَاسِدَ سَاخِطٌ لِنَعَمِي، صَادٌّ لِقِسْمِي الَّذِي قَسَمْتُ بَيْنَ عِبَادِي، وَمَنْ يَكُ ذَلِكَ، فَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَيْسَ مِنِّي»^(١).

معاني المفردات

الحسد: حالة نفسية يتمنى صاحبها سلب الكمال، والنعمة، التي يتصورهما عند الآخر، سواء أكان يملكها الآخر أم لا، وسواء أَرادها لنفسه أم لم يردها. أو هو الانقباض، والذل النفسي، اللذان ينتجان الرغبة في زوال ما يتصوره الحاسد نعمة، وكما لا عن المحسود؛ علماً أن ما يتصوره الحاسد نعمة، قد لا يكون كذلك؛ فقد يتصور الحاسد النقائص، والردائل، كالفتك، والقتل، وسلاطة اللسان، نعمًا، وكلمات، فيتمنى زوالها عن المحسود. والحسد يختلف عن الغبطة؛ لأن صاحب الغبطة يريد النعمة التي عند الآخر، أن تكون لنفسه، من دون أن يتمنى زوالها عنه.

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الحسد، ح ٦

أنواع الحسد ودرجاته

للحسد أنواع ودرجات، بحسب حال المحسود، وبحسب حال الحاسد، وبحسب حال الحسد ذاته.

أما من حيث حال المحسود، فمثل أن يحسد شخصاً لما له من كمالات عقلية، أو خصال حميدة، أو لما يتمتع به من الأعمال الصالحة والعبادية، أو لأُمُور خارجية كامتلاكه المال، والجاه، والعظمة، أو أن يحسد على ما يقابل هذه الحالات من حيث كونها من الكمال الموهوم الموجود في المحسود.

وأما من حيث حال الحاسد، فقد ينشأ الحسد أحياناً من العداوة، أو التكبر، أو الخوف، وغير ذلك من الأسباب والعوامل التي سنذكرها.

وأما من حيث حال الحسد نفسه، فلشدته، وخفته، مراتب كثيرة، تختلف باختلاف الأسباب، كما تختلف باختلاف الآثار.

من أسباب الحسد

للحسد أسباب كثيرة، يرجع أكثرها إلى رؤية الذلة في النفس، على عكس الكبر. إذ يجد المتكبر في نفسه كمالاً لا يجده في غيره، فتنشأ عنده حالة من الترفع، والتعالي.

وقد ينشأ من تصور ذلّة في تساوي غيره معه، كأن يحسد صاحب الكمال، والنعمة، مثيله أو الذي يليه.

من مفاسد الحسد

أولاً: الحسد مرض قلبي مهلك، قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِي

بِأَيِّ بَادِرَةٍ فَيَكْفُرُ، وَإِنَّ الْحَسَدَ لَيَأْكُلُ الْإِيمَانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»^(١)؛ وقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «آفةُ الدينِ الحسد، والعُجبُ، والفَخْرُ»^(٢).

إن هذه الرذيلة تبدو آثارها في كل كيان الإنسان: باطنه، وظاهره؛ إنها تصيب القلب بالحزن والكدر، والصدر بالاختناق والضييق، والوجه بالعبوس والغضب؛ فتطفئ نور الإيمان، وكلما اشتدت أضعفته، حتى تميمت القلب. إن المؤمن يحسن الظن بالله تعالى، ويرضى بقسمه؛ أما الحسود فساخط على الله تعالى، يشيح بوجهه عن تقديراته.

والمؤمن لا يغلبه حب الدنيا، والحسود مُبتلى بشدة هذا الحب. والمؤمن لا يداخله خوف، ولا حزن، إلّا من باري الخلق تعالى، وخوف الحسود، وحزنه، يدوران حول المحسود.

والمؤمن طلق المحيا، وبشره في وجهه، والحسود مقطب الجبين، عبوس الوجه. والمؤمن متواضع، والحسود متكبر، في معظم الحالات. وبهذا يتضح كيف أن الحسد، آفة الإيمان التي تأكله، كما تأكل النار الحطب، والله تعالى قال في الحديث القدسي: «وَمَنْ يَكُ كَذَلِكَ فَلَسْتُ مِنْهُ وَلَيْسَ مِنِّي»، فماذا يحمل لنا تبرؤ الحق تعالى منّا، وإعراضه عنّا، من مصائب؟ إن من يخرج عن ولاية الله، ويترد من ظل راية أرحم الراحمين، لن يكون له أمل في النجاة.

ثانياً: سخط الحسود على خالقه، وولي نعمته، وإعراضه عن تقديراته تعالى؛ مع أن ما جرى به قلم الحكيم المطلق - جلّت قدرته - من بسط النعمة، وتقدير الآجال، وتقسيم الأرزاق، جاء على خير تقدير، وأجمل نظام.

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الحسد، ح ١

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الحسد، ح ٥

ثالثًا: يعيش صاحب هذا الخلق في الدنيا معذبا، مبتلىً، وله في القبر ضيق، وظلمة، ويحشر في الآخرة مسكينا متألما؛ لأن صورة هذا الخلق الفاسد الرديء، فيها ضيق نفساني، وكدر قلبي، وضيق القبر، أو اتساعه، منوط بضيق الصدر، أو انشراحه. رابعًا: تتولد من الحسد أمراض قلبية كثيرة، كالكبر، والغيبة، والنميمة، والشتيم، والإيذاء، وكل منها موبقة، تهلك الإنسان.

علاج الحسد

للحسد علاجان: علمي، وعملي، أما العلمي فاعلم:

أولًا: أن حسدك لن يضر المحسود، بل ينفعه في الدنيا، والآخرة. أمّا في الدنيا فلأن شقاءك، وحزنك، وأنت عدوه، وحاسده يعد نفعًا له، فهو المنتعم بنعمته، وأنت المعذب بها، وهذه نعمة ثانية له. وأمّا في الآخرة، ولا سيما إذا قادك الحسد إلى الغيبة، والافتراء، وسائر الرذائل، فيؤخذ من حسناتك، وتعطى له، فيزداد نعمة، وتزداد أنت إفلاسًا.

ثانيًا: أن الوقوف دون تسرب المفاسد الأخلاقية، أو العملية، إلى مملكة ظاهرك وباطنك، أيسر بكثير من إخراجها بعد توغلها؛ لأن ذلك يتطلب الكثير من العناء، والجهد؛ وإذا تسربت، فإنك كلما أخرت التصدي لإخراجها، ازداد الجهد المطلوب منك، وضعفت قواك الداخلية.

ثالثًا: وخامة ما يجزّه عليك الحسد في الآخرة من عقاب؛ إن الملكات في الآخرة على درجة من شدة الظهور، وقوته، لا يمكن معها زوالها، فيخلد صاحبها في النار؛ وإذا أمكن إزالتها بالضغوط، والمشاق، والنيران، فإن ذلك قد يستغرق قرونا طويلة.

لو أنك تدبرت في هذه الأمور، لأقدمت على تطهير نفسك من هذه الرذيلة، وأنقذت نفسك من هذه المهلكة.

وأما العلاج العملي، فأن تتكلف إظهار المحبة للمحسود، ساعيا لمعالجة مرضك الباطني. إن نفسك تدعوك لإيذائه، وتكشف لك عن مساوئه، ومفاسده، فعليك مخالفتها، والترحم عليه، واحترامه، وإجلاله، واحمل لسانك على ذكر محاسنه، وأعرض أعماله الصالحة على نفسك، وعلى الآخرين، وتذكر صفاته الجميلة؛ صحيح أن هذا سوف يكون متكلفا في بادئ الأمر، وغير حقيقي، ولكن لما كان الهدف هو إصلاح النفس، وإزالة هذه المنقصة، فإن نفسك سوف تقترب في النهاية من الحقيقة، ويخف تكلفك شيئا فشيئا.

حديث الرفع

ورد عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «ثَلَاثَةٌ لَمْ يَنْجُ مِنْهَا نَبِيٌّ فَمَنْ دُونَهُ التَّفَكُّرُ فِي الْوَسْوَسةِ فِي الْخَلْقِ وَالطَّيْرَةِ وَالْحَسَدُ إِلَّا أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَسْتَعْمِلُ حَسَدَهُ»^(١).
هذا الحديث يحتمل الآتي:

الأول: أنه من باب المبالغة الدالة على كثرة الابتلاء بها.

الثاني: التعبير كناية عن كثرة الابتلاء دون أن يكون القصد هو مضمون الكلام نفسه.

الثالث: المراد بالحسد أعم من الغبطة، من باب المجاز.

الرابع: المراد بالحسد تمني زوال بعض النعم المستعملة لدى الكفار في ترويج مذهبهم الباطل.

(١) روضة الكافي، ج٨، ص١٠٨، ح٨٦، وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٩٣ (كتاب الجهاد) الباب ٥٥ ح٨.

إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ، وَالْأَوْلِيَاءَ، مَطْهُرُونَ مِنَ الْحَسَدِ، بِمَعْنَاهِ الْحَقِيقِيِّ؛ إِنَّ الْقَلْبَ
الْمَلُوثَ بِالْمَسَاوِي الْأَخْلَاقِيَّةِ، وَالْقَذَارَاتِ الْبَاطِنِيَّةِ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَهْبِطَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ
وَالْإِلْهَامُ، وَلَا يَكُونُ مَوْطِنَ التَّجَلِّيَّاتِ الذَّاتِيَّةِ وَالصِّفَاتِيَّةِ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَفْسَرَ هَذَا
الْحَدِيثُ بِحَسَبِ مَا ذَكَرَ، أَوْ عَلَى نَحْوِ آخَرَ، أَوْ يَرُدَّ عَلَيْهِ إِلَى قَائِلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا.



الْحَدِيثُ السَّائِسُ

مَنْ أَحْبَبَ وَأَمْسَى وَالْدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ

عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«مَنْ أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَالْدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمَّهُ، جَعَلَ اللَّهُ الْفَقْرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ،
وَشَتَّتْ أَمْرَهُ، وَلَمْ يَنْلِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُسِمَ لَهُ، وَمَنْ أَصْبَحَ، وَأَمْسَى،
وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ هَمَّهُ، جَعَلَ اللَّهُ الْغِنَى فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ أَمْرَهُ»^(١).

معاني المفردات

الدنيا تطلق على نشأة الوجود النازلة، التي هي دار تصرّم، وتغيّر، ومجاز؛
فلكل كائن مقام ظهور، وملك، وشهود؛ وتلك هي مرتبته النازلة الدنيويّة.
والآخرة تطلق على الرجوع من هذه النشأة إلى ملكوت الإنسان، وباطنه،
وهي دار بقاء، وخلود، وقرار، وهي مقام باطني، وملكوت غيبي.
وهذه النشأة النازلة الدنيويّة هي مهد تربية النفوس القدسيّة، ودار تحصيل
المقامات العالية، ومزرعة الآخرة، ولولا أن يسلط الله - تعالى - على هذه النشأة
التبدّلات، والتصرّمات، لما وصل أحد من ذوي النفوس الناقصة إلى كماله
الموعود، ودار قراره، وثباته، ولحصل النقص الكلي في الملك والملكوت، إلى هذا
أشار مولى الموحدين علي عليه السلام ردا على من ذم الدنيا، فقال: «إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ
لِمَنْ صَدَقَهَا، وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا، وَدَارُ غِنَى لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا، وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنْ

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب حب الدنيا، ح ١٥

اتَّعَظَ بِهَا. مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ اللَّهِ، وَمُصَلَّى مَلَائِكَةِ اللَّهِ، وَمَهْبُطُ وَحْيِ اللَّهِ، وَمَتَجَرُّ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ. اكْتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ، وَرَبَحُوا فِيهَا الْجَنَّةَ.»^(١)

إن ذم القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة، لهذه الدنيا، ليس لنوعها، بل للتوجه لها، وانشداد القلب بها، ومحبتها، وهذا هو منشأ كلِّ المفساد، والخطايا القلبية، والظاهرية، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ حُبُّ الدُّنْيَا»^(٢).

سبب ازدياد حب الدنيا

لما كان الإنسان ابن هذا الماء والتراب، والدنيا أمه، فإن حبها يغرس في قلبه منذ مطلع نشوئه، وكلما كبر في العمر، وتلذذ بالقوى الشهوانية، ازداد حبه لها، وقوي تعلقه بها؛ ولا سيما أنه يحسب الموت فناء، يقطع عليه لذاته، وأنه غافل عن كيفية عالم الآخرة، وكمالاته.

ولو أدرك الإنسان بقلبه، لا بعقله فقط، أن هذه الدنيا هي أدنى العوالم، وأنها دار الفناء، والتغير، والنقص، وأن عوالم الآخرة باقية، وأبدية، وأنها دار كمال، وثبات، وحياة، وبهجة وسرور، لأحب تلك العوالم، ونفر من هذه الدنيا. ولو ارتفع الإنسان عن هذا العالم، ووصل إلى مقام الشهادة، والوجدان، ورأى الصورة الباطنية لعالمي الدنيا والآخرة، لثقل هذا العالم عليه، واشتاق للتخلص من سجنه المظلم، قال الإمام علي عليه السلام: «وَاللَّهِ لَا بُنْ أَيْ طَالِبٍ أَنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطُّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ»^(٣).

(١) نهج البلاغة: الحكمة ١٣١

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب حب الدنيا، ح ١ و ٣

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ٥

إن أكثر أنين الأولياء إنما هو ألم فراق المحبوب، على الرغم من أنهم لا يحجبهم حجاب مُلكي، أو ملكوتي، وقد خلوا من التعلق بالدنيا، وتطهرت قلوبهم من الخطيئة الطبيعية؛ إلا أن الوقوع في عالم الطبيعة هو نفسه تلذذ طبيعي وقسري، ولو بأقل مقدار، فكان ذلك من باب الحجاب؛ وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «لَيَرَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(١).

تأثير الحظوظ الدنيوية في القلب ومفاسده

ما تناله النفس من حظوظ هذه الدنيا، يترك أثرا في القلب، وهو السبب في تعلقه بالدنيا؛ هذا التعلق نفسه معصية، ومقياس طول بقاء الإنسان في عالم القبر، والبرزخ، هو هذه التعلقات؛ فكلما كان التعلق بالدنيا أقل، كان البرزخ، والقبر أكثر نورا، وأوسع، ومكث الإنسان فيه أقصر. لذلك ورد في بعض الروايات أن عالم القبر لأولياء الله، لا يزيد على ثلاثة أيام، وإنما كان هذا لأجل التعلق الطبيعي، والعلاقة الجبلية لأولياء الله بالعالم. وكلما ازداد التلذذ بالدنيا، اشتد تأثر القلب، وتعلقه بها، إلى أن يتجه كُليا نحوها، وهذا مبعث الكثير من المفاسد، ومنها:

أولا: يمنع الإنسان من الرياضات الشرعية، والعبادات، والمناسك، ويوهن عزمه، وإرادته، علما أن من أكبر أسرار العبادات، والرياضات الشرعية، هو أن تجعل الجسم، وقواه الطبيعية، تابعة، ومنقادة للروح، فيخضع الجسم لأوامر الإرادة، ويصبح مُلك الجسم، وقواه الظاهرة مقهورا، ومسخرًا، للملكوت فيقوم بما يريد بلا مشقة، ولا عناء.

(١) نهاية ابن الأثير، ص ١٨٠، ج ٣. الجامع الصغير، ج ١ ص ١٠٣. صحيح مسلم، ج ٨ ص ٧٢.

ثانيا: يجعل الإنسان يخاف الموت؛ لأنه يفرق بينه وبين ما يحب.
ثالثا: ينكشف له عند الموت، أنَّ الله تعالى يفصل بينه وبين محبوبه، فيغادر الدنيا ساخطا على ولي نعمته؛ وليس أحد يعرف صورة هذا السخط، غير الله تعالى.

الإنسان وحب الكمال

الإنسان، بحسب فطرته الأصيلة، يعشق الكمال التام المطلق، ويتوجه قلبه شطر الجميل الكامل من جميع الوجوه؛ وهذا من فطرة الله التي فطر الناس عليها، وبهذا الحب للكمال، تتحقق أسباب وصول عشاق الجمال المطلق إلى معشوقهم؛ غير أن كل امرئ يرى الكمال في شيء ما، بحسب حاله، ومقامه، فيتوجه قلبه إليه.

فأهل الآخرة يرون الكمال في درجاتها، فقلوبهم متوجهة إليها، وكلما ازداد توجههم نحوها، قلّ التفاتهم، واهتمامهم لهذه الدنيا، وتلاشت حاجتهم إليها، وظهر في قلوبهم الغنى، وزهدوا في الدنيا وزخارفها، وكلما ازدادوا قربا من دار كرم الله، ازدادت قلوبهم سرورا واطمئنانا؛ ولولا أن الله قد عين لهم آجالهم لما مكثوا في هذه الدنيا لحظة واحدة. فَهُمْ، كما يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نَزَلَتْ أَنْفُسُهُمْ فِي الْبَلَاءِ، كَالَّتِي نَزَلَتْ فِي الرَّخَاءِ، وَلَوْ لَا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، لَمْ تَسْتَقِرْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ شَوْقًا إِلَى الثَّوَابِ»^(١)؛ لأنهم يرون الكمال في جماله، والجمال في كماله سبحانه، فيقولون: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^(٢).

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

(٢) الأنعام: ٧٩

وأهل الدنيا يعتقدون أن الدنيا وزخارفها هي الكمال، فيزداد ولعهم بها، وتشتد حاجتهم إليها، ويتجلى أمام أبصارهم فقرهم إليها، فعن أبي عبد الله عليه السلام: «مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ مَاءِ الْبَحْرِ كُلَّمَا شَرِبَ مِنْهُ الْعَطْشَانُ أَزْدَادَ عَطْشًا حَتَّى يَقْتُلَهُ»^(١)، فكلما نظرت إلى هذه الدنيا بعين المحبة، ازدادت حاجتك إليها، وبان الفقر في باطنك، وعلى ظاهرك، وتشتت أمورك، وغلبك الغم، والتحسر، وتمكن اليأس من قلبك؛ جاء عن الصادق عليه السلام: «مَنْ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِالدُّنْيَا تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِثَلَاثِ خِصَالٍ: هَمٌّ لَا يَفْنَى، وَأَمَلٌ لَا يُدْرِكُ، وَرَجَاءٌ لَا يُنَالُ»^(٢).

فيا عزيزي، بعد أن عرفت مفسد حب الدنيا، شمر عن ساعد الجد، واقتلع جذوره من نفسك، واسأل الله أن يعينك على الخلاص من هذا العذاب، وهذه المحنة، ويجعل قلبك يأنس بدار كرمه تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

(١) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب ذم الدنيا، ح ٥٤ .

(٢) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب حب الدنيا، ح ١٧ .



الْحَدِيثُ السَّابِعُ

الْفَخْب

قال أبو عبدالله عليه السلام:

«الغضبُ مفتاحُ كُلِّ شرٍّ»^(١)

معاني المفردات

عرّف ابن مسكويه الغضب بأنّه: «حركة للنفس يحدث بها غليان دم القلب شهوة للانتقام»^(٢).

فوائد القوة الغضبيّة

أولاً: غريزة الغضب من النعم الإلهيّة، التي يمكن بها عمارة الدنيا، والآخرة، وبها يتمّ الحفاظ على بقاء الفرد، والجنس البشري، والنظام العائلي، فلولاهما لما قام الحيوان بالدفاع عن نفسه، ولآل أمره إلى الفناء والاضمحلال.

ثانياً: لولا وجودها في الإنسان، لما استطاع الوصول إلى كثير من مراتب تطوره، وكمالاته؛ وبنقصها عن حد الاعتدال يحصل الضعف، والتراخي، والتكاسل، والطمع، وقلة الصبر، وعدم الثبات في المواقف التي تتطلب الثبات، والخمود، والخنوع، وانعدام الغيرة، وخور العزيمة، وقد وصف الله سبحانه المؤمنين بأنهم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(٣).

(١) الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب الغضب، الحديث ٣.

(٢) تهذيب الأخلاق ١٩٣.

(٣) الفتوح: ٢٩.

ثالثاً: القيام بالأمر المعروف، والنهي عن المنكر، وتنفيذ الحدود، والتعزيرات، وسائر التعاليم السياسيّة الدينيّة، والعقليّة، لا يتم إلّا في ظل القوة الغضبيّة الشريفة.

علاج خمود القوة الغضبيّة

الغضب غريزة لدى كل إنسان، مودعة في باطنه، ولكنها في بعضهم خامدة منكمشة، كالنار تحت الرماد، فعلى من يلحظ في نفسه حال الخمول، والضعف، وانعدام الغيرة، أن يعالج الحالة بضدها، ويخرج نفسه مما هي فيه إلى حال الاعتدال. وهناك معالجات عمليّة، لإيقاظها، وتحريكها: مثل الإقدام على الأمور العظيمة المخيفة، والذهاب إلى ميادين الحرب، وجهاد أعداء الله؛ فقد نُقل عن بعض المتفلسفين أنه كان يرتاد الأماكن المخوفة، ويلبث فيها قليلاً، ويلقي بنفسه في المخاطر العظيمة، ويركب البحر في أوج تلاطم أمواجه، وذلك لكي يخلص نفسه من الشعور بالخوف، ويتحرر من الضعف، والكسل.

مفاسد الإفراط في الغضب

أولاً: قد يصل الغضب بالإنسان إلى حد الارتداد عن دين الله، وإطفاء نور الإيمان، والكفر الجحودي، الذي نتيجه الهلاك الأبدي، ثم يتبّه على نفسه بعد فوات الأوان، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْغَضَبُ يُفْسِدُ الْإِيمَانَ كَمَا يُفْسِدُ الْخَلُّ الْعَسَلَ»^(١) ويمكن أن تكون نار الغضب، جمرة الشيطان، التي وردت في كلام الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ هَذَا الْغَضَبَ بِجَمْرَةٍ مِنَ الشَّيْطَانِ، تُوقَدُ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ»^(٢)، وصورتها في ذلك العالم، صورة نار الغضب الإلهي.

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الغضب، ح ١

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الغضب، ح ١٢.

وورد عن الباقر عليه السلام: «مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ فِيمَا نَاجَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَى: يَا مُوسَى، أَمْسِكْ غَضَبَكَ عَمَّنْ مَلَكَتْكَ عَلَيْهِ أَكْفٌ عَنْكَ غَضَبِي»^(١)، ولا عذاب أشد من نار غضب الله، فلعل نار الغضب الإلهي تنبعث من باطن القلب، وتسري إلى الظاهر، وتخرج ألسنة نيرانها المؤلمة من الأعضاء الظاهرية، كالعين، والأذن، واللسان، وتحيط نار جهنم الأعمال في ظاهر جسد الإنسان، لتتجه إلى باطنه، فيقع الإنسان في العذاب، والشدة بين جهنمين: أحدهما: تبرز من باطن القلب إلى عالم الجسم؛ والآخرى: تتصاعد نيرانها من الظاهر إلى الباطن.

ثانيا: كثر ما يستتبع الغضب معاص أخرى، كسب الأنبياء، والمقدسات، أو قتل نفس بريئة، أو هتك حرمت، فيخسر الدنيا، والآخرة.

ثالثا: تتولد من الغضب مفسد أخلاقية، كالحقد على عباد الله، وقد ينتهي به الأمر إلى الحقد على الأنبياء والأولياء، بل على الله ولي النعم.

رابعا: تتولد من الغضب مفسد تؤثر في الأعمال، كالتفوه بها فيه الارتداد، أو هتك الحرمات الإلهية، وخرق النواميس المقدسة، وقتل الأنفس الزكية، والافتراء على الناس بما يصممهم بالعار، والذل؛ جاء عن الصادق عليه السلام: «أَتَى رَسُولَ اللَّهِ رَجُلٌ بَدَوِيٌّ، فَقَالَ: إِنِّي أَسْكُنُ الْبَادِيَةَ فَعَلَّمَنِي جَوَامِعَ الْكَلَامِ فَقَالَ: أَمْرُكَ أَنْ لَا تَغْضَبَ. فَأَعَادَ عَلَيْهِ الْأَعْرَابِيُّ الْمَسْأَلَةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ حَتَّى رَجَعَ الرَّجُلُ إِلَى نَفْسِهِ. فَقَالَ: لَا أَسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَذَا. مَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِالْخَيْرِ. قَالَ: وَكَانَ أَبِي يَقُولُ: أَيُّ شَيْءٍ أَشَدُّ مِنَ الْغَضَبِ؟ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَغْضَبُ فَيَقْتُلُ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ وَيَقْدِفُ الْمُحْصَنَةَ»^(٢)

(١) الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الغضب، ح ٧.

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الغضب، ح ٤.

لذا يمكن أن توصف هذه السجية بأنها أم الأمراض النفسية، ومفتاح كل شر.

علاج الغضب المشتعل

إن للغضب المشتعل علاجين: علمي، وعملي.
أما العلميّ فأن يتفكّر الإنسان في تلك الأمور التي ذكرت، ويمكن أن يُعدّ هذا من العلاج العمليّ أيضاً.
وأما العمليّ فأهمّه صرف النفس عن الغضب عند أوّل ظهوره؛ لأن الغضب أشبه بالنار، فهو يزداد شيئاً فشيئاً ويشتدّ، حتى يتعالى لهيبه، وترتفع حرارته ويفلت العنان من يد الإنسان، ويحمد نور العقل والإيمان.
ويسهل كبح جماح الغضب في بداية ظهوره؛ ولهذا العمل في هذه المرحلة نتيجتان: الأولى: تهدئة النفس، وتقليل اشتعال الغضب؛ والثانية: المعالجة الجذريّة للنفس.

فإذا راقب الإنسان حاله وعامل نفسه بهذه المعاملة، تغيّرت حاله تغيّراً كلياً، واتجهت نحو الاعتدال؛ وقد ورد عن أبي جعفر عليه السلام، أنّه قال: «إِنَّ هَذَا الْغَضَبَ جَمْرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، تُوقَدُ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، وَإِنْ أَحَدُكُمْ إِذَا غَضِبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ، وَدَخَلَ الشَّيْطَانُ فِيهِ، فَإِذَا خَافَ أَحَدُكُمْ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ، فَلْيَلْزِمِ الْأَرْضَ، فَإِنَّ رِجْزَ الشَّيْطَانِ يَذْهَبُ عَنْهُ عِنْدَ ذَلِكَ»^(١).

وفي حديث آخر، قال: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَغْضَبُ فَمَا يَرْضَى أَبَدًا حَتَّى يَدْخُلَ النَّارَ فَأَيُّمَا رَجُلٍ غَضِبَ عَلَى قَوْمٍ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ مِنْ فَوْرِهِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ سَيَذْهَبُ عَنْهُ رِجْزُ الشَّيْطَانِ، وَأَيُّمَا رَجُلٍ غَضِبَ عَلَى ذِي رَحِمٍ فَلْيَدْنُ مِنْهُ فَلْيَمْسَسْهُ، فَإِنَّ الرَّحِمَ

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الغضب، ح ١٢

إِذَا مُسَّتْ، سَكَنْتُ»^(١).

يفاد من هذا الحديث الشريف علاجان عمليان يقوم بها الغاضب لنفسه حال ظهور الغضب: أحدهما: عام، وهو الجلوس من القيام، أي تغيير وضع الإنسان الجسمي، ففي حديث آخر أنه إذا كان جالساً عند الغضب فليقم واقفاً؛ والآخر: خاص بالأرحام، وهو أن يمسه، فيسكن غضبه.

أمّا إذا أراد الآخرون معالجة الغاضب فعند ظهور بوادر الغضب، عليهم أن يعالجوه بإحدى الطرق العلميّة، والعملية المذكورة، ولكن إذا اشتدت حاله واشتعل غضبه، فإن النصائح تنتج عكس المطلوب؛ فيصير علاجه بأن يخفيه شخص يهابه، ويخشاه؛ لأن الغاضب إنما يغضب عندما يرى نفسه أقوى ممن يغضب عليه، أو يساويه في القوة.

معالجة الغضب باقتلاع جذوره

يتمّ اقتلاع جذور الغضب بإزالة سببيه، وهما:

أولاً: حبّ الذات، ويتفرّع منه: حب المال، والجاه، والشرف، والنفوذ، والتسلط؛ فإذا واجه صعوبة في واحدة منها، أو أحس بأن هناك من ينافسه فيها، انتابته حالة من الغضب، بلا سبب ظاهر، فلا يعود يملك نفسه، ويستولي عليه الطمع وسائر الرذائل الناجمة عن حب الذات والجاه وتمسك بزمامه، وتحيد بأعماله عن جادة العقل والشرع.

ثانياً: الجهل، فإن الجاهل، قد يظن الغضب، وما يصدر عنه من سائر الأعمال القبيحة، والرذائل السافلة، كملاً، وشجاعة، والحق أن الشجاعة غير الغضب، من جهتين:

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الغضب، ح ٢

إحدهما: مبدأ الشجاعة قوة النفس، والطمأنينة، والاعتدال، والإيمان، وقلة المبالاة بزخارف الدنيا، وتقلباتها؛ أمّا الغضب فناشئ عن ضعف النفس، وتزلزلها، وقلة الإيمان، وعدم الاعتدال في الروح، وحب الدنيا، إنّ أصحاب الرذائل، أسرع إلى الغضب من أصحاب الفضائل، فالبخيل أسرع غضبا، إذا تعرّض ماله للخطر.

والأخرى: الآثار، والتتائج، ففي حال ثورة الغضب، يكون الغاضب أشبه بالمجنون، وكالحیوان المفترس الذي لا تهمة عواقب الأمور، فقد يغضب على الحيوانات، والجمادات، حتى أنه لو أعطي مرآة، لحنجل من صورته التي يراها فيها؛ أمّا الشجاع فأعماله عن رويّة، وطمأنينة نفس؛ يغضب في محله، ويحلم في محله، لا تهزّه التوافه، ولا تغضبه. وإذا غضب غضب بمقدار، وينتقم بعقل، ويعرف كيف ينتقم ومتى ومن؟ وكيف يعفو ومتى ومن؟ وفي حال غضبه لا يفقد زمام نفسه، ولا يبادر بالكلام البذيء ولا بالأعمال القبيحة، ويزن كل أعماله بميزان العقل والشرع والعدل والإنصاف، ويخطو خطوات لا يندم عليها بعد ذلك.

وهناك أسباب أخرى ذكروها للغضب، مثل: العُجب، والزهو، والكبرياء، والمراء، والعناد، والمزاح، أكثرها ينطوي تحت هذين الموضوعين المذكورين على نحو مباشر، أو غير مباشر. والحمد لله.



الْحَدِيثُ الثَّامِنُ

الْحَبِيبَةُ

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ حَبَّةٌ مِنْ خَرْدَلٍ^(١) مِنْ عَصَبِيَّةٍ، بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ أَغْرَابِ الْجَاهِلِيَّةِ»^(٢).

معاني المفردات

التعصب بمعنى: الحماية والدفاع، والعصبيّ: هو الذي يعين قومه على الظلم، ويغضب لعصبته^(٣)، ويحامي عنهم.

والعصبيّة واحدة من السجايا الباطنيّة النفسانيّة، ومن آثارها الدفاع عن الأقارب، نسبا، أو ديناً، أو مذهباً، أو وطناً، وغير ذلك من ارتباط.

والعصبيّة مذمومة، إلا إذا كانت لإظهار الحق، والدفاع عنه، فهذا أمّا أنه ليس من التعصب، وأمّا أنه ليس تعصبا مذموماً، وهو من خلق الأنبياء، والأولياء؛ وعلامته المميّزة هو أن يميل الإنسان إلى حيث يميل الحق، وإن كان إلى جانب أعدائه.

والعصبيّة من سجايا أعراب الجاهليّة، وهم فئة من أعراب البوادي قبل الإسلام، فقد ورد في الحديث الشريف عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: إن الله سبحانه يعذب طوائف ستة بأمور ستة: «أَهْلَ الْبَوَادِي بِالْعَصَبِيَّةِ...»^(٤).

(١) الخردل، نبات معروف له خواص كثيرة، ويصنع منه الشمع.

(٢) الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب العصبيّة، ح ٣.

(٣) عُصْبَةُ الْمَرْءِ: أَقْرَبَاؤُهُ مِنْ جِهَةِ الْأَبِّ، لِأَنَّهُمْ يَحِيطُونَ بِهِ فَيَقْوَى بِهِمْ.

(٤) نهج البلاغة، قصار الحكم، الحكمة ١٥٤.

العصبية تفسد الإيمان

يفاد من أحاديث أهل البيت عليهم السلام، أَنَّ العصبية من المهلكات الباعثة على سوء العاقبة، والخروج من عصمة الإيمان، وأنها من ذمائم أخلاق الشيطان.

قال الصادق عليه السلام: «مَنْ تَعَصَّبَ أَوْ تُعَصَّبَ لَهُ فَقَدْ خُلِعَ رِبْقُ الْإِيمَانِ مِنْ عُنُقِهِ»^(١). أي أن المتعصب بتعصبه يخرج من إيمانه، وأمّا المتعصب له، فيشارك المتعصب في العقاب، لرضاه بعمله؛ وعنه عليه السلام: «مَنْ تَعَصَّبَ عَصَبُهُ اللَّهُ بِعَصَابَةٍ مِنَ النَّارِ»^(٢).

إن القلب إذا غطّاه صدأ حب الذات، والأرحام، والتعصب القومي الجاهلي، لا مكان فيه لنور الإيمان، فالمؤمن يستسلم للحقائق، ويخضع لها، ويرى أهدافه، مهما عظمت، فانية في أهداف ولي نعمته، ويضحى بنفسه، وبإرادته في سبيل إرادة مولاه سبحانه؛ فلا يعرف العصبية الجاهلية، بل يفدي الأقرباء، والأحبة، على أعتاب ولي نعم المطلق.

إن الإنسان العارف بالحقائق يعلم أن جميع العصبيات، والعلاقات، أمور عرضية زائلة، إلا تلك العلاقة بين الخالق، والمخلوق، فهي أمر ذاتي غير قابل للزوال، وهي أوثق من كل ارتباط، وأقوى من كل حسب، وأسمى من كل نسب.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كُلَّ حَسَبٍ وَنَسَبٍ مُنْقَطِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا حَسْبِي وَنَسْبِي»^(٣)، ذلك لأن حسبه صلى الله عليه وآله، روحاني، باق، بعيد من جميع العصبيات الجاهلية، وهذا الحسب والنسب الروحانيان يظهران في ذلك العالم.

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب العصبية، ح ٢.

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب العصبية، ح ٤.

(٣) وسائل الشيعة، كتاب النكاح، الباب الثامن من أبواب مقدمات وآداب النكاح، ح ٥، (١٦٨/١).

الصورة الملوكوتية للعصبية

المعيار في الصور الملوكوتية، والبرزخية، وفي يوم القيامة، هو الملكات، فذلك العالم هو محل ظهور سلطان النفس الذي لا يعصي له الجسم أمراً؛ وقد يحشر الإنسان في ذلك العالم على صورة حيوان، أو شيطان، لذا، في العالم الآخر، يرى المتعصب نفسه من أعراب الجاهلية، من غير إيمان بالله تعالى، ولا بالنبوة والرسالة، ولما كانت هذه السجية من سجايا الشيطان، فلعل أعراب الجاهلية، وأصحاب العصبية، يحشرون يوم القيامة على هيئة الشياطين.

مفاسد العصبية

أولاً: أن هذه الرذيلة، هي نفسها سبب هلاك الإنسان.
ثانياً: أنها منشأ الكثير من المفاسد الأخلاقية، والأعمال القبيحة.

في عصبيات أهل العلم

من جملة عصبيات الجاهلية هو العناد في القضايا العلمية، والدفاع عن كلمة صدرت منه، أو من معلمه، أو شيخه، من دون النظر إلى إحقاق الحق، وإبطال الباطل. ولا شك في أن مثل هذا التعصب أقبح من كثير من العصبيات الأخرى، لما يأتي:

الأول: أن أهل العلم ينبغي أن يكونوا هم المرين لأبناء البشر، بوصفهم فروع شجرة النبوة والولاية، لذا كانت الحجة عليهم أتم، وعقابهم أشد.
الثاني: أن فساد العالم يؤدي إلى فساد الأمة، والفساد الذي يتسبب في مفاسد أخرى، أعظم عند وليّ النعم من الفساد الجزئي الذي لا يتعدى إلى غيره.

الثالث: أن هذه العصبية خيانة لأمانة العلم، وتجاهل لحقه؛ لأن من يتعصب تعصب الجاهلية يخون الأمانة، ويرتكب الظلم والعدوان، وهذه بحد ذاتها خطيئة كبرى.

الرابع: في التعصب إهانة لأهل العلم، ولا سيما إذا كان التعصب في المباحث العلمية، وأهل العلم من الودائع الإلهية التي يجب احترامها، وهتكهم هتك لحرمات الله.

الخامس: التعصب يوجب عقوق المشايخ المتعصب لهم، الذين يميلون إلى جانب الحق، ويهربون من الباطل، ولا شك في أن العقوق الروحي، أشد من العقوق الجسمي، وحق الأبوة الروحية أسمى من حق الأبوة الجسمية. لذا على أهل العلم أن يزينوا أنفسهم بحلية الأخلاق الكريمة، وأن لا ينزلوا عن المركز الشريف الذي أنعم الله تعالى به عليهم، إذ أن مدى الخسران في ذلك لا يعلمه إلا الله. والسلام.



الْحَدِيثُ النَّاسِجُ

النفاق

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ:
«مَنْ لَقِيَ الْمُسْلِمِينَ بِوَجْهَيْنِ وَلِسَانَيْنِ جَاءَ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَلَهُ لِسَانَانِ مِنْ نَارٍ»^(١).

معاني مفردات

لقاء المسلمين بوجهين: أن يبدي لهم ظاهراً خلاف ما يطن ؛ وهذا هو
النفاق العملي.
وذو اللسانين: الذي يشني على كل من يلقاه منهم، ويمتدحه، ويتملق له،
ويظهر المحبة له، وفي غيابه يكذبه، ويغتابه. وهذا هو «النفاق القولي».
وهاتان الحالتان من أظهر صفات المنافقين، وألصقها بهم، لذا اقتصر
الحديث الشريف على ذكرها خاصة.

مراتب النفاق

للفنفاق، مثل سائر الأوصاف، والملكات الخبيثة، أو الشريفة، درجات،
ومراتب، تختلف من حيث القوة، أو الضعف؛ وكل رذيلة تشتد إذا لم تُعالج بالعلاج
الناجع، ودرجات اشتداد الرذائل، والفضائل، غير متناهية، ولا تقف عند حدٍّ،
والنفاق رذيلة شيطانية، قال تعالى: ﴿وَقَاسَمُهُمَا إِنْ كُنَّا لِمِنَ النَّاصِحِينَ﴾^(٢)، فإذا

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر باب ذي اللسانين، ح ١.

(٢) الأعراف: ٢١.

استحكمت في النفس، استسلمت مملكة الإنسان للشيطان، وأصبحت الصورة الأخيرة للنفس، وباطنها، وذاتها، وجوهرها، صورة للشيطان، وقد تصبح صورته الظاهرة في الدنيا أيضا كصورة الشيطان، وإن كانت ملامحه هنا بشرية.

ويختلف النفاق باختلاف متعلّقه، فقد يكون النفاق في دين الله، وقد يكون في السجيا الحسنة، والفضائل الأخلاقية، وقد يكون في الأعمال الصالحة، والمناسك الإلهية، وقد يكون في الأمور العرفية.

وقد ينافق المرء مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو مع أئمة الهدى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، أو مع الأولياء، والعلماء، والمؤمنين، وقد يتسع النفاق ليشمل المسلمين، وسائر خلق الله من الملل الأخرى.

مفاسد النفاق

أولاً: النفاق، والاتصاف بذوي الوجهين، في أنفسهما، من الصفات القبيحة التي لا يتصف بها الإنسان الشريف، ويبعثان على الفضيحة، والذل، في هذه الدنيا أمام الأصحاب والأقران، ويوجبان الذل والعذاب الأليم في الآخرة فقد جاء في الحديث الشريف وصف صورة المنافق في ذلك العالم بـ: «أَنَّهُ يَخْشَرُ بِلِسَانَيْنِ مِنْ نَارٍ»، وإذا أصبح جوهر الجسم جوهر النار، كان الإحساس أقوى، والألم أشدّ، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ذُو الْوَجْهَيْنِ ذَالِغًا لِسَانَهُ فِي قَفَاهُ وَآخِرُ مَنْ قُدِّمَ إِلَيْهِ يَلْتَهَبَانِ نَارًا حَتَّى يَلْهَبَا جَسَدَهُ. ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا ذَا وَجْهَيْنِ، وَلِسَانَيْنِ، يُعْرِفُ بِذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١). ويشمل بالآية الشريفة: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾^(٢).

(١) ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، ص ٣١٦، عقاب من كان ذا وجهين ولسانين.

(٢) الرعد: ٢٥.

ثانيا: النفاق، وذو الوجهين، مصدر كثير من المفاسد، والمهالك، التي تفني دنيا الإنسان، وآخרתها، كالفتنة، التي ينص القرآن الكريم على أنها ﴿أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ﴾^(١)، والنميمة التي يقول عنها الإمام الباقر عليه السلام: «مُحَرِّمَةُ الْجَنَّةِ عَلَى الْقَتَاتَيْنِ الْمَشَائِينَ بِالنَّمِيمَةِ»^(٢)، والغيبة التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وآله: «إِنَّهَا أَشَدُّ مِنَ الزَّنا»^(٣). وتندرج في النفاق، وذو الوجهين، جملة أمور هي: الغمز، واللمز، والكنايات التي يطلقها بعض على بعض، على الرغم من إظهار المحبة، والصداقة الحميمة.

في معالجة النفاق

اعلم أن لعلاج هذه الخطيئة الكبيرة طريقين: أحدهما: هو التفكير في المفاسد التي تنتج منها؛ ذلك أن الإنسان في هذه الدنيا إذا عُرف بهذه الصفة بين الناس سقط من أنظارهم، وافتضح بين الخاصة، والعامة، وفقد كرامته بين أصحابه، فعلى الإنسان الشريف أن يطهر نفسه منها والآخر: وهو الأسلوب العملي لعلاج النفس، وهو أن يراقب الإنسان حركاته، وسكناته، بكل دقة وتمحيص، لمدة من الوقت، وأن يعتمد إلى العمل بما يخالف هوى النفس، وأن يجاهد في جعل أعماله، وأقواله، في الظاهر، والباطن، واحدة، وأن يتعد عن التظاهر، والتدليس في حياته العملية، وأن يطلب من الله تعالى، خلال ذلك، التوفيق والنجاح في التغلب على النفس الأمّارة، وأهوائها، ويعينه في محاولاته العلاجية.

(١) البقرة: ١٩١

(٢) أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٦٩، كتاب الإيمان والكفر، باب النميمة، الحديث ٢.

(٣) «يا أبا ذر، أياك والغيبة فأَن الغيبة أشد من الزنا، قلت يا رسول الله: ولم ذاك بأبي وأنت وأمي؟ قال: لأن الرجل يزني فيتوب إلى الله، فيتوب الله عليه، والغيبة لا تنفر حتى يفرها صاحبها». بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٨٩، كتاب الروضة، باب مواظب النبي صلى الله عليه وآله.

في النفاق مع الله

من مراتب النفاق، وذو اللسانين والوجهين، النفاق مع الله تعالى، والتوجه إلى مالك الملوك ووليّ النعم بوجهين.

فإذا كان المنافق من عامة الناس، ادّعى الإسلام، والإيمان، والزهد، والخلوص.

وإذا كان من أهل العلم، والفقه، ادّعى كمال الإخلاص، والولاية، وخلافة الرسول، متشبّثين بما نقل عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «اللَّهُمَّ ارْحَمْ خُلَفَائِي»^(١)، وبقول الإمام صاحب الزمان رُوحِي له الفداء: «إِنَّهُمْ حَبَّتِي»^(٢).

وإذا كان من أهل العلوم العقلية، ادّعى الإيمان الحقيقي المبرهن، وزعم أنه يملك علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، معتقداً أن سائر خلق الله ناقصو علم، وإيمان.

وإذا كان من أهل العرفان، والتصوف، ادّعى المعارف الإلهية، والانجذاب الروحي، والفناء في الله، والبقاء بالله، وولاية الأمر.

فيا من تدعي الإسلام، قد ورد عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ»^(٣) فلماذا تؤذي المسلمين، ولا تمتنع عن ظلمهم، والإجحاف بحقهم؟ إذا فادعاؤك الإسلام مخالف للحقيقة، وباطنك يخالف ظاهره، وأنتك من زمرة المنافقين، ومن ذوي الوجهين.

ويا من تدّعي الإيمان، وخضوع القلب في حضرة الله ذي الجلال، إذا كنت

(١) وسائل الشيعة، المجلد الثامن عشر، أبواب صفات القاضي ص ١٠٠ - ١٠١.

(٢) وسائل الشيعة، المجلد الثامن عشر، أبواب صفات القاضي ص ١٠٠ - ١٠١.

(٣) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب المؤمن وعلاماته ح ١٢.

تؤمن بكلمة التوحيد، ولا يعبد قلبك غير الواحد، ولا يطلب غيره، ولا ترى الألوهية تستحق إلا لذاته المقدسة، فلماذا يخضع قلبك لأهل الدنيا كل هذا الخضوع؟ لماذا تعبدهم؟ أليس ذلك لأنك ترى لهم تأثيراً في هذا العالم، وترى أن إرادتهم هي النافذة، وترى أن المال والقوة هما الطاقة المؤثرة والفاعلة؟ وأن ما لا تراه فاعلاً في هذا العالم هو إرادة الحق تعالى، فتخضع لجميع الأسباب الظاهرية، وتغفل عن المؤثر الحقيقي، وعن مسبب جميع الأسباب، ومع كل ذلك تدعي الإيمان بكلمة التوحيد. إذاً، فأنت أيضاً خارج عن زمرة المؤمنين، وداخل في زمرة المنافقين، ومحشور مع أصحاب اللسانين.

وأنت يا من تدعي الزهد والإخلاص، إذا كنت مخلصاً حقاً، وأنتك لأجل الله، ولأجل دار كرامته تزهّد عن مشتبهات الدنيا، فما الذي يحملك على أن تفرح بمدح الناس لك، والثناء عليك، بقولهم: إنك من أهل الصلاح، والسداد؟ فيملاً السرور قلبك، ولماذا لا تبخل بشيء في سبيل محالسة أهل الدنيا وفي سبيل زخارفها، وتفرّ من الفقراء والمساكين؟

فاعلم أن زهدك وإخلاصك ليسا حقيقيين، بل أن زهدك في الدنيا هو من أجل الدنيا، وأن قلبك ليس خالصاً لوجه الله، وأنت كاذب في دعواك، وأنت من المتلونين المنافقين.



الْحَدِيثُ الْعَاشِرُ

إِتْبَاعُ الْهَوَىٰ وَحُلُولُ الْأَمَلِ

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«إِنَّمَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ اثْنَتَيْنِ: اتِّبَاعَ الْهَوَى، وَطُولَ الْأَمَلِ، أَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى، فَإِنَّهُ يَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ، فَإِنَّهُ يَنْسِي الْآخِرَةَ»^(١).

معاني المفردات

الهوى: حب الشيء، واشتهاؤه

الصدّ: المنع والانصراف عن الشيء

في ذم إتباع هوى النفس

الإنسان، حين ولادته، حيوان بالفعل، لا معيار له سوى شريعة الحيوانات، التي تديرها الشهوة، والغضب؛ ولكي يدبر هاتين القوتين، يلتجأ شيئاً فشيئاً إلى استعمال الصفات الشيطانية، كالكذب، والخديعة، والنفاق، والنميمة. وإذا لم تقع قوى الإنسان النفسية تحت تأثير مربّب، أو معلم، فإنه يصبح عند الرشد، والبلوغ، حيواناً، وشيطاناً عجبياً، يفوق سائر الحيوانات في الحيوانية، وسائر الشياطين في الشيطنة، وإذا ما استمر على هذه الحال لن يبرز فيه شيء من المعارف الإلهية، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة، بل تنطفئ فيه جميع الأنوار الفطرية، ويقع تحت أقدام الأهواء النفسية، التي تحول دون أن يتجلى فيه الحق، من خلال المعارف الإلهية، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة.

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، الإيمان والكفر، باب إتباع الهوى، ح ٣

إن ميزان البعد من الحق، هو إتباع هوى النفس، ومسافة هذا البعد يحددها مقدار هذه الاتباع؛ وميزان اجتذاب الحق، وسيادته، هو متابعة الشرع، والعقل، فإذا رَّبَّى الإنسان نفسه بتعاليم الأنبياء، فإنه لا يمضي عليه وقت طويل حتى تظهر القوة الكاملة الإنسانية، التي أودعت فيه إلى العيان، وترجع جميع شؤون مملكته، وقواها، إلى شأن الإنسانية، حتى يجعل شيطان نفسه يؤمن على يديه، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ شَيْطَانِي آمَنَ بِيَدِي»^(١)، فتستسلم حيوانيته لإنسانيته، حتى تصبح مطية مروّضة، على طريق عالم الكمال، والرقى، وبراقا يرتاد السماء نحو الآخرة، ويمتنع عن كل معاندة، وتمرد.

وبين هذين المقياسين: التبعية التامة لهوى النفس، والتبعية التامة المطلقة للعقل، منازل غير متناهية.

وقد ذم الله تعالى إتباع الهوى، فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾^(٣).

وجاء عن رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ): وَعِزِّي وَجَلَالِي وَعَظَمَتِي وَكِبْرِيَائِي وَنُورِي وَعُلُوِّي وَارْتِفَاعُ مَكَانِي لَا يُؤْثِرُ عَبْدٌ هَوَاهُ عَلَى هَوَايَ إِلَّا شَتَّتْ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَكَبَسَتْ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ وَشَغَلَتْ قَلْبَهُ بِهَا وَلَمْ أَوْتِهِ مِنْهَا إِلَّا مَا قَدَرْتُ لَهُ وَعِزِّي وَجَلَالِي وَعَظَمَتِي وَنُورِي وَعُلُوِّي وَارْتِفَاعُ مَكَانِي لَا يُؤْثِرُ عَبْدٌ هَوَايَ عَلَى هَوَاهُ إِلَّا اسْتَحْفَظْتُهُ مَلَائِكَتِي وَكَفَلْتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَيْنِ رِزْقَهُ وَكُنْتُ لَهُ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَةٍ كُلِّ تَاجِرٍ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ»^(٤).

(١) ورد مثل هذا الحديث في كتاب غوالي اللآلي المجلد ٤ ص ٩٧. وفي كتاب علم اليقين، المجلد ١، ص ٢٨٢.

(٢) سورة ص: ٢٦

(٣) القصص: ٥٠

(٤) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب اتباع الهوى، ح ٢.

إن رغبات النفس، وآمالها، لا تنتهي، ولا تصل إلى حد، أو غاية؛ فإذا اتبعها الإنسان، ولو بخطوة واحدة، فسوف يضطر إلى أن يتبع تلك الخطوة خطوات، وإنك بمتابعتك هوى واحدا من أهواء النفس، توقعها في عدد من المفاصد، فتبتلى بالآلاف المهالك، التي قد تلقي بك إلى هوة الفناء، وتجعلك موضع عقوق أبيك الحقيقي، أي النبي الكريم ﷺ، فإذا كنت محبا حقيقيا للرسول وأهل بيته (صلوات الله عليه وعليهم)، فاسعَ لكي تزيل عن قلوبهم المباركة القلق والاضطراب؛ فقد قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ...﴾^(١). وجاء في الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال: «شَيْبَتْنِي سُورَةُ هُودٍ»^(٢) لِمَكَانِ هَذِهِ الْآيَةِ، إذ طلب منه سبحانه استقامة الأمة.

فيا من تظلم نفسك! كيف تكافئ أولياءك، الذين بذلوا أموالهم، وأرواحهم، في سبيل هدايتك، وتحملوا أشد المصائب، وأفظع القتل، وأقسى السبي لنسائهم، وأطفالهم، من أجل إرشادك ونجاتك؟ فبدلاً من أن تشكرهم على ما فعلوا، وتحفظ لهم أياديهم البيض عليك، تظلمهم ظناً منك أنك إنما تظلم نفسك وحدها! استيقظ من نوم الغفلة، واخجل من نفسك، فحسبهم من الظلم ما تحمّلوه من أعداء الدين، فلا تزد على ظلامتهم ظلاماً أخرى؛ لأن الظلم من المحب أشدّ ألماً، وأكثر قبحاً!

مراتب الأهواء النفسية

تشارك أهواء النفس في أنها جميعاً تمنع الحق، وتصدّ عن طريقه، ولكنها على مراتب، ودرجات، ومنها:

الأولى: أصحاب الأهواء الباطلة، الذين يتخذون الآلهة من الذهب، وغيرهم،

(١) هود: ١١٢.

(٢) مجمع البيان ٥: ١٤٠.

وهم الذين أخبر الله سبحانه عنهم في قوله ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ﴾^(١) وغيرها من الآيات الشريفة الثانية: اتُّبَاعُ الْأَهْوَاءِ النَّفْسِيَّةِ، وَالْأَبَاطِيلُ الشَّيْطَانِيَّةِ، فِي عَقَائِدِهِمُ الْبَاطِلَةَ، وَأَخْلَاقِهِمُ الْفَاسِدَةَ. الثالثة: أَصْحَابُ الْمَعَاصِي الْكَبِيرَةِ، وَالصَّغِيرَةِ، وَالْمُوبِقَاتِ، وَالْمُهْلِكَاتِ، كُلٌّ بِحَسَبِ دَرَجَةِ الْمَعْصِيَةِ، وَمُرْتَبَتِهَا.

الرابعة: أَهْلُ الْأَهْوَاءِ فِي الرِّغْبَاتِ النَّفْسِيَّةِ الْمُبَاحَةِ، مَعَ الْإِنْشَغَالِ، وَالْإِنْهَاكِ فِيهَا، فَيَتَخَلَّفُونَ عَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ.

الخامسة: أَهْلُ الْمَنَاسِكِ، وَالطَّاعَاتِ الظَّاهِرِيَّةِ، الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ أَجْلِ عَمْرَانِ الْآخِرَةِ، وَتَلْبِيَةِ الشَّهَوَاتِ النَّفْسِيَّةِ، أَوْ الْخَشْيَةِ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَالنَّجَاةِ مِنَ الدَّرَكَاتِ السُّفْلَى، فَيَحْتَجِبُونَ عَنِ الْحَقِّ وَسَبِيلِهِ.

السادسة: أَصْحَابُ تَهْذِيبِ النَّفْسِ وَتَرْوِضِهَا، لِإِظْهَارِ قُدْرَتِهَا وَالْوُصُولِ إِلَى جَنَّةِ الصِّفَاتِ، فَيَفْصَلُونَ عَنِ الْحَقِّ، وَلِقَائِهِ.

السابع: أَهْلُ الْعُرْفَانِ، وَالسُّلُوكِ، وَالْإِنْجِذَابِ، وَمَقَامَاتِ الْعَارِفِينَ، الَّذِينَ لَا يَهْمُهُمْ سِوَى لِقَاءِ الْحَقِّ، وَالْوُصُولِ إِلَى مَقَامِ الْقُرْبِ، فَيَحْتَجِبُونَ عَنِ الْحَقِّ وَتَجْلِيَّاتِهِ الْخَاصَّةِ؛ لِأَنَّ التَّلَوُّنَ وَآثَارَ وَجُودِهِ الْخَاصِ لَا يَزَالُ عِنْدَهُمْ مَوْجُودًا.

فَإِنَّ عَلَى أَصْحَابِ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ أَنْ يَرِاقِبُوا بِدَقَّةٍ حَالَهُمْ، وَأَنْ يَطَهَّرُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْأَهْوَاءِ لئَلَّا يَتَخَلَّفُوا عَنْ طَرِيقِ اللَّهِ، وَيُظَلُّوا عَنْ مَسَالِكِ الْحَقِيقَةِ، حَتَّى تَظَلَّ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ مَفْتُوحَةً عَلَيْهِمْ، مَهْمَا تَكُنْ مَقَامَاتُهُمْ وَمَنَازِلُهُمْ.

فِي ذِمِّ طَوْلِ الْأَمَلِ

لَا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَتَبَعَ إِلَى أَنَّهُ مُسَافِرٌ، لَا بُدَّ لَهُ مِنَ السَّيْرِ إِلَى هَدَفٍ مُمْكِنِ الْبُلُوغِ،

ليحصل له العزم، والإرادة، للتحرك؛ وأهم ما يؤدي إلى إماتة العزم، والإرادة، أن يظن الإنسان أن في الوقت متسعاً للبدء بالسير، وأنه إذا لم يبدأ بالتحرك نحو المقصد اليوم، فسوف يبدأ غداً، وهذا هو طول الأمل الذي يمنع الإنسان من التفكير في الآخرة، ولزوم السير، واتخاذ الصديق، وتهئية الزاد للطريق.

اعلم إذاً، أيها العزيز، أن أمامك رحلة خطيرة لا مناص لك منها، وأن ما يلزمها من عدة، وعدد، وزاد، وراحلة، هو العلم والعمل الصالح. وهي رحلة ليس لها موعد معين، فالإنسان لا يعلم متى يقرع ناقوس الرحيل للانطلاق فوراً؛ فما الذي حصل حتى كان لعملنا، وعلمنا، تأثير معكوس حتى أصبحت قلوبنا أصلب من الصخر القاسي؟ ما الذي جنيناه من الصلاة التي هي معراج المؤمنين؟ أين ذلك الخوف وتلك الحشية الملازمة للعلم؟.

انظر أيها الأخ إلى ما يقوله الإمام في دعاء كميل وهو يناجي الحق (عزَّ وجلَّ):

«وَأَنْتَ تَعْلَمُ ضَعْفِي عَنْ قَلِيلٍ مِنْ بَلَاءِ الدُّنْيَا وَعُقُوبَاتِهَا» إلى أن يقول: «وَهَذَا مَا لَا تَقُومُ لَهُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ». ترى ما هذا العذاب الذي لا تطيقه السماوات والأرض، الذي قد أعدَّ لك؟ أفلا تستيقظ وتنتبه، بل تزداد كل يوم استغراقاً في النوم والغفلة؟

فيا أيها القلب الغافل! انهض من نومك وأعدَّ عدتك للسفر، «فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ»، وعمَّال عزرائيل منهمكون في العمل ويمكن في كل لحظة أن يسوقوك سوقاً إلى العالم الآخر. ولا تزال غارقاً في الجهل والغفلة؟

«اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالْإِنَابَةَ إِلَى دَارِ السُّرُورِ وَالِاسْتِعْدَادَ لِلْمَوْتِ قَبْلَ حُلُولِ الْفَوْتِ».



الْحَدِيثُ الْحَاثِي عَشْرٌ

الفطرة

عن زُرَّارَةَ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ): ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ
الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾. قَالَ:

«فَطَرَهُمْ جَمِيعًا عَلَى التَّوْحِيدِ»^(١)

معاني المفردات

الفِطْرَةُ: الخِلْقَةُ؛ والفعل (فَطَرَ) يعني: شَقَّ، وَمَزَّقَ، كَأَن الخلق أشبه بشق
حجب العدم، والغيب؛ قال تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي
فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيُّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

معنى الفطرة

فِطْرَةُ اللَّهِ التي فطر الناس عليها: الحال، والكيفية، التي خلق الناس وهم
متّصفون بها، وهي من الألفاظ التي خصّ الله تعالى بها الإنسان من بين جميع
المخلوقات، فالموجودات الأخرى غير الإنسان، إمّا أنها لا تملك مثل هذه
الفطرة، وإمّا أن لها حظًا ضئيلاً منها.

وتفسير الفطرة بالتوحيد، وفي أحاديث أخرى فُسِّرَتْ بالإسلام، والمعرفة،
من قبيل بيان المصدق، أو التفسير بأشرف أجزاء الشيء؛ فالآية الشريفة عدّت
الدين فطرة الله، والدين يشمل التوحيد، والمبادئ الأخرى.

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب فطرة الخلق على التوحيد، ح ٣.

(٢) الروم: ٣٠

والأحكام الفطرية لا يختلف فيها اثنان من البشر، على اختلاف أعراقهم، وأجناسهم، وألوانهم، وثقافتهم، ولذلك تقول الآية: ﴿فَطَرَّ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾؛ لأنها من لوازم وجودهم، التي تخمّرت في أصل خلقتهم، وهي أكثر بداهة من كل بديهي، ولكنهم يغفلون عنها، ولذلك تقول الآية: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ممّا يستلزم تنبيههم.

فطرية وجود الله تعالى

الإنسان مفطور على عشق الكمال، والخلاف بين الناس فيما يرونه من الكمال، لا في الكمال نفسه، فكلّ يجد معشوقه في شيء، ظاناً أن ذلك هو الكمال. إن أهل الدنيا، وزخارفها يحسبون الكمال في تحصيلها، ويجدون معشوقهم فيها، في حين يرى أهل الآخرة غير ذلك؛ ويجمعهم أنهم يسعون نحو ما يعتقدونه كملاً.

ولو رجع الإنسان إلى فطرته لوجد أن قلبه في الوقت الذي يظهر العشق لشيءٍ ما، فإنه يتحوّل عن هذا المعشوق إلى غيره، إذا وجد الثاني أكمل من الأول، ثم إذا عثر على أكمل من الثاني، ترك الثاني وانتقل بحبه إلى الأكمل منه، بل إن نيران عشقه لتزداد اشتعالاً حتى لا يعود قلبه يلقي برحاله في أية درجة من الدرجات، ولا يرضى بأي حدٍّ من الحدود.

مثلاً، إذا كنتَ تحب جمال القدود، ونضارة الوجوه، وعثرت على ذلك عند من تراها كذلك، توجه قلبك نحوها. فإذا لاح لك جمالٌ أجمل، لا شك في أنك سوف تتوجه إلى الجميل الأجمل، أو أنك على الأقل تطلب الاثنين معاً، ومع ذلك لا تخمد نار الاشتياق عندك، ولسان حال فطرتك يقول: كيف السبيل

إليهما معاً؟ ولكن الواقع هو أنك تطلب كل جميل تراه أجمل، بل قد تزداد اشتياقاً بالتخيّل، فقد تتخيّل أن هناك جميلاً أجمل من كل ما تراه بعينك، في مكان ما، فيحلّق قلبك طائراً إلى بلد الحبيب، ولسان حالك يقول: أنا بين الجمع وقلبي في مكان آخر.

وهكذا الذين يرون الكمال في السلطان، والنفوذ، واتساع الملك، يتّجه حُبهم واشتياقهم إلى ذلك؛ فإذا بسطوا سلطانهم على دولة واحدة، توجّهت أنظارهم إلى دولة أخرى، فإذا دخلت تلك الدولة أيضاً تحت سيطرتهم، تطلّعت أعينهم إلى أكثر من ذلك؛ وإذا بسطوا سلطانهم على الأرض كلها، وتخيّلوا إمكان بسط سلطتهم على الكواكب الأخرى، تمتّ قلوبهم لو كان بالإمكان أن يطيروا إلى تلك العوالم؛ كي يخضعوها لسيطرتهم.

إذاً، فنور الفطرة قد هدانا إلى أن نعرف أن قلوب جميع أبناء البشر تتوجه بالفطرة إلى الكمال الذي لا نقص فيه، والعلم الذي لا جهل فيه، والقدرة التي لا تعجز عن شيء، والحياة التي لا موت فيها، أي أن «الكمال المطلق» هو معشوق الجميع؛ فهل هناك في عالم الواقع، والخيال، كائن مطلق الكمال، ومطلق الجمال، سوى الله تقدست أسماؤه، مبدأ العالم جلّت عظمته؟ وهل الجميل على الإطلاق الذي لا نقص فيه إلّا ذلك المحبوب المطلق؟

تيقّظ من نوم الغفلة، واستبشر فرحاً بأن لك محبوباً لا يزول، ومعشوقاً لا نقص فيه، هو النور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١)، وأن محبوبك ذو إحاطة واسعة: «لَوْ دُلِّيْتُمْ بِحَبْلِ إِلَى الْأَرْضِينَ السُّفْلَى لَهَبَطْتُمْ عَلَى اللَّهِ»^(٢)؛ إذن يستوجب

(١) النور: ٣٥

(٢) علم اليقين، ج ١ ص ٥٤ المقصد الأول، الباب ٣ الفصل ٥

عشقك الحقيقي معشوقاً حقيقياً، لا متوهماً متخيلاً، فالعشق الحقيقي لا يكون من دون معشوق، ولازم عشق الكمال المطلق وجود هذا الكمال؛ وقد سبق أن عرفنا أن أحكام الفطرة، ولوازمها، أوضح من جميع البديهيّات: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١).

فطريّة التوحيد

من الفطرة: حب الكمال، والنفور من النقص، ومن هاتين الفطرتين يمكن إثبات التوحيد، فاستجماع الله لجميع الكمالات، وخلو ذاته المقدسة من كل نقص، قد ثبت بالفطرة، وسورة التوحيد المباركة تبين نسب الحق المتعالي، وبحسب رأي شيخنا الشيخ محمد علي الشاه آبادي (روحي فداه) أنّ الهويّة المطلقة، التي تتوجه إليها الفطرة، والتي أُشير إليها في صدر سورة التوحيد المباركة بكلمة «هو» المباركة، برهان على الصفات الست المذكورة بعد ذلك. فلما كانت ذات الله المقدسة هويّة مطلقة، والهويّة المطلقة يجب أن تكون كاملة مطلقة، وإلاّ لكانت محدودة، ولم تكن مطلقة، فهو مستجمع لجميع الكمالات، فهو «الله».

والمستجمع لجميع الكمالات لا بد من أن يكون بسيطاً، وإلاّ فالهويّة لا تكون مطلقة، فهو أحد، ولازم الأحديّة هو الواحدية. ولما كانت الهويّة المطلقة المستجمعة لجميع الكمالات منزّهة عن جميع النقائص، التي تعود بأجمعها إلى الماهية، إذّا فتلك الذات المقدسة هي الصمد، وليست جوفاء.

(١) إبراهيم: ١٠

ولما كانت الهويّة مطلقة، فلن يتولد منها شيء، ولا ينفصل عنها شيء، ولا ينفصل هو عن شيء: ﴿لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُؤَلَدْ﴾، وإنما هو مبدأ كل شيء، ومرجع جميع الموجودات، من دون الانفصال الذي يوجب النقصان. والهويّة المطلقة أيضًا ليس لها كفو، إذ لا يمكن تصور التكرار في الكمال الصرف، إذا فالسورة المباركة (الإخلاص) من أحكام الفطرة، وليبان نسب الحق المتعال.

فطريّة المعاد

من الفطرة: حب الراحة، فكل ما يتوخّاه الناس من أفعالهم إنما هو لراحتهم، والغاية النهائية هو الراحة المطلقة الخالية من العناء. ولما كانت هذه الراحة، التي لا تمازجها مشقة، ولا يشوبها ألم، مفقودة في هذا العالم، فلا بُدَّ من دار لا تشوب راحته شائبة، من ألم، وعذاب، وتعب، راحة مطلقة لا يخالطها شيء من العناء، والشقاء، سرور دائم، خالص، لا يعتوره حزن، ولا هم؛ ذلك العالم هو دار نعيم الله، وعالم كرم ذات الله المقدسة. هذا العالم يمكن إثباته بفطرة الحرية، ونفوذ الإرادة، الموجودة في فطرة كل إنسان؛ فلمّا كانت مواد هذا العالم، وما به من العسر، والضيق، مما يستعصي على حرية الإنسان، وإرادته، فلا بُدَّ من أن يكون هناك عالم آخر، الإرادة فيه نافذة، والإنسان فيه فعّال لما يشاء، وحاكم بما يريد، بحسب ما تقتضيه الفطرة. إذًا، عشق الراحة، وعشق الحرية، هما الجانبان المودعان في الإنسان، بموجب فطرة الله التي لا تبدل، فيحلّق بهما في عالم الملكوت الأعلى، متقربًا إلى الله. وفي المقام فطرات أخرى، لإثبات المعارف الحقّة.. كالنبوة، وإنزال الكتب السماوية؛ ولكننا نكتفي بهذا القدر المناسب للحديث الشريف. والحمد لله.



الْحَدِيثُ الثَّانِي عَشْرُ

التفكير

عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

«كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: نَبَّهَ بِالتَّفَكُّرِ قَلْبَكَ؛ وَجَافَ عَنِ

اللَّيْلِ جَنْبَكَ؛ وَاتَّقِ اللَّهَ رَبَّكَ»^(١).

معاني المفردات

كَانَ أمير المؤمنين عليه السلام يَقُولُ: يفيد الاستمرار، والدوام، أي أن الإمام عليه السلام كان يكرر هذا الكلام.

التَّنبِيْهُ: الإخراج من الغفلة، والإيقاظ من النوم.

التفكّر: إعمال الفكر، وهو ترتيب الأمور المعلومة للوصول إلى النتائج المجهولة، ومعلوم أن مطلوبات القلب هي المعارف، فالمراد هنا بالتفكّر هو المعنى الخاص الذي يعود إلى القلوب، وحياتها.

القلب: يُطْلَقُ عند الحكماء على بعض مقامات النفس، وهو المراد في هذا الحديث الشريف.

الجفاء: البُعد، وقوله عليه السلام: وَجَافَ عَنِ اللَّيْلِ جَنْبَكَ: كناية للنهوض عن فراش النوم في الليل من أجل العبادة.

فضيلة التفكّر

التفكّر مفتاح أبواب المعارف، وخزائن الكمالات، والعلوم، وهو مقدّمة

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب التفكّر، ح ١

لازمة، وحتمية، للسلوك الإنساني، وله في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة تعظيم بليغ، وتمجيد كامل، وتاركه معيّر ومذموم. فعن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ إِدْمَانُ التَّفَكُّرِ فِي اللَّهِ، وَفِي قُدْرَتِهِ»^(١)؛ وفي حديث آخر: «تَفَكَّرْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ قِيَامٍ لَيْلَةٍ»^(٢).

وفي حديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ تَفَكَّرَ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ»^(٣). وفي حديث ثان: «سِتِّينَ سَنَةٍ»^(٤)، وفي رواية: «سَبْعِينَ سَنَةٍ»^(٥)، وعن بعض علماء الفقه والحديث: «الف سَنَةٍ».

وللتفكير درجات، ومراتب، ولكل مرتبة نتيجة، أو نتائج، وسوف نتناول بعضها.

الأول: التفكير في الحق تعالى، وأسمائه، وصفاته، وكمالاته؛ ونتيجة ذلك هو العلم بوجوده وبأنواع تجلياته، التي منها الأعيان الواقعية، والمظاهر الخارجية، وهذا هو برهان الصديقين.

وهو أفضل مراتب التفكير، وأعلى مراتب العلوم، وأتقن مراتب البرهان. ومن الجدير بالذكر أن التفكير الممنوع في هذا المجال، هو التفكير في اكتناه الذات، وكيفيتها، بحسب ما يفاد من الأحاديث الشريفة^(٦)؛ أمّا النظر في ذات

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب التفكير، ح ٣.

(٢) ينظر: الكافي ٥٤/٢، كتاب الإيمان والكفر، ح ٢.

(٣) عوالي اللآئى: ٥٧/٢ (المسلك الرابع)، ح ١٥٢.

(٤) الطريحي في مجمع البحرين في مادة (فكر).

(٥) أسرار الشريعة وأطوار الطريقة وأنوار الحقيقة، ص ٢٠٧.

(٦) «تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره». المحجة البيضاء، ج ٨، ص ١٩٣.

الله، لغرض إثبات وجوده، وتوحيده، وتنزيهه، وتقديسه، فهو الغاية من إرسال الأنبياء، والمقصد لآمال العرفاء؛ فالذين لهم الاستعداد والأهلية، من الراجح لهم التفكير، بل هو أفضل من جميع العبادات. أما غير المؤهل، فقد يُمنع من النظر في بعض المعارف ذات المقدمات الدقيقة.

وقد سئل علي بن الحسين عليه السلام عن التوحيد، فقال: «إِنَّ اللَّهَ (عَزَّ وَجَلَّ) عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَقْوَامٌ مَتَعَمِّقُونَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، والآيات مِنْ سُورَةِ الْحَدِيدِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، فَمَنْ رَامَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ»^(١).

إذاً، يتضح أن هذه الآيات التي تشير إلى التوحيد، وتنزيه الله، والبعث، ورجوع الكائنات إلى الله، نزلت للمتعمقين، وأهل التفكير العميق؛ فهل مع كل هذا يمكن القول: إن التفكير في ذات الله حرام؟ أي حكيم أو عارف جاء بمعارف أكثر مما جاء في أول (سورة الحديد)؟ إن منتهى معرفتهم هو الوصول إلى قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. هل هناك أفضل بياناً في وصف الله تعالى، وتجلي ذاته المقدسة من الآية الشريفة: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٢).

في التفكير في المصنوع

من مراتب التفكير، التفكير في روائع الصنع، واتقانه، ودقائق الخلق، بما

(١) أصول الكافي، المجلد الأول، كتاب التوحيد، باب النسبة، ح ٣

(٢) الحديد: ٣

يناسب ما يملكه الإنسان من طاقة للتفكر؛ ونتيجة هذا التفكير هي معرفة المبدأ الكامل، والصانع الحكيم، وهذا على العكس من برهان الصديقين، إذ إنَّ مبدأ البرهان في ذاك المقام، هو الحق تعالى عزَّ اسمه، ومنه يحصل العلم بالتجليات، والمظاهر، والآيات؛ أمَّا في هذا المقام، فمبدأ البرهان هو المخلوقات التي من طريقها يتم العلم بالمبدأ، والصانع.

هذا البرهان للعامة من الناس، الذين لاحظَ لهم من برهان الصديقين؛ ولهذا، قد ينكر الكثيرون أن يصبح التفكير في الحق مبدأ العلم به، وأن يؤدي العلم بالمبدأ إلى العلم بالمخلوق.

إن الاطلاع على لطائف الصنعة، وأسرار الخليقة، بحسب الواقع، لم يتيسر للبشر حتى الآن. إن أساس الخليقة ونظامها من الدقة والاستحكام، ومن الجمال والكمال، في مستوى لو أن الإنسان أمعن النظر في أي كائن مهما كان حقيرًا، مستخدمًا كل علومه التي اكتسبها في قرون، لما استطاع أن يطلع على نسبة واحد من الألف من ذلك، فكيف له أن يتمكن من إدراك النظام الكلي الجميل، ساعيًا عن طريق الأفكار البشريَّة الجزئيَّة الناقصة، لفهم بدائعه ودقائقه؟!

انظر، وتأمل في المسافة بين الأرض والشمس، التي لو زادت، أو نقصت، بمقدار معيَّن لانعدمت الحياة على الأرض.

تفكر في خلقك أنت، في الحواس الظاهرة التي صُنعت بما يناسب المدركات، والمحسوسات، إذ إن لكل مجموعة من المدركات في هذا العالم قوة مدركة، بأدق ما تكون من الدقة، والترتيب المحيِّر للعقول.

انظر إلى علم الأبدان، وتشريحها، وبنائها الطبيعي، وخصائص كل عضو من الأعضاء: الظاهريَّة، والباطنيَّة؛ ما أغرب هذا النظام، وما أعجب هذا الترتيب؟!

اعلم أن الأرض وجميع كائناتها، لا تعدل شيئاً بإزاء المنظومة الشمسية، وأن كل منظومتنا الشمسية لا وزن لها بإزاء المنظومات الشمسية الأخرى، وأن كل هذه المنظومات، الكبيرة منها والصغيرة، مبنية على وفق ترتيب منظم، ونظام مرتب.

فهل بعد هذا التفكير يحتاج عقلك إلى دليل آخر ليدعن بأن كائناً عالماً، حكيمًا، لا تشبهه الكائنات الأخرى، هو الذي أوجد هذه الكائنات بكل حكمة، ونظام، وترتيب، واتقان؟: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١). فلتعم عين القلب التي لا ترى الله، ولا تشاهد جمال جميله في هذه المخلوقات! ولیمحق الذي يبقى في الشك والتردد بعد كل هذه الآيات والآثار.

في التفكير في أحوال النفس

التفكير في أحوال النفس يؤدي إلى نتائج كثيرة، ومعارف عديدة، منها:

أولاً: العلم بيوم المعاد.

ثانياً: العلم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أي النبوة العامة، والشرائع الحقة.

فمن حالات النفس تجرّدها، وحسبنا دليلاً على ذلك أن قوى الإنسان الجسميّة بعد الثلاثين، تأخذ بشكل تدريجي نحو الإنحدار والنقصان، في حين تزداد القوى الروحيّة والإدراكات العقليّة كمالاً، ورقياً، وسداداً؛ وهذا يدلّ على أن القوى العقليّة ليست جسمانيّة، إذ لو كانت جسمانيّة لانحدرت، مثل سائر قوى الجسم، نحو الضعف والوهن.

إن خصائص النفس، وآثارها، وأفعالها، على النقيض من خصائص الأجسام، وآثارها، وأفعالها مطلقاً؛ وهذا دليل على أن النفس ليست جسماً.

والمجردات لا تفسد؛ لأن الفساد لا يكون من دون مادة قابلة للفساد، والمجردات منزّهة عن مادة قابلة للفساد، ولما كانت النفس من المجردات، فهي لا تفسد بفساد البدن، وبمفارقة لها، بل تبقى في عالم آخر، ولا تفنى، وهذا هو المعاد الروحي للنفوس والأرواح، قبل يوم القيامة، إلى أن يشاء الله لها أن تعود إلى الأبدان.

ولا بُدَّ من أن نعرف أن معرفة النفوس: صحّة ومرضاً، وصلاًحاً وفساداً، وسعادةً وشقاءً، وإدراك طرقها، ودقائق مصالحها، ومفاسدها، لا يتسنى لأحد سوى ذات الله المقدسة؛ لذلك لا يمكن أن يهمل الله العليم الحكيم التقدير الكريم، بيان طرق السعادة والشقاء، والطرق الهادية إلى الصلاح والفساد، وطرق علاج النفوس، إذ إن مثل هذا الإهمال يقتضي النقص في العلم، أو القدرة، أو وجود الظلم، والبخل، وذات الله المقدسة منزّهة عن كل ذلك، فهو الكامل على الإطلاق، والمفيض على الإطلاق.

نستنتج من هذا البحث نتيجتان، هما:

الأولى: الوصفة الخاصة بإصلاح الأمراض النفسيّة، وهذه غير موجودة إلّا عند ذات الحق المقدس، وهي الشريعة.

والثانية: أن الله تعالى يعلنها - الشريعة - حتّى.

إنّ هذا العلم الكامل الدقيق، الذي يعجز عن إدراكه أعقل العقلاء، والذي يربط بين الملك والمملوك، وتأثير الصور الملكيّة في باطن النفس، لا يقع لأحد إلّا من طريق الوحي والإلهام؛ فيجب أن يكون تعليمه من جانب الحق تعالى،

وبديهي أنّ عامّة البشر ليسوا خليقين بمثل هذه الهبة، ولكن يظهر في بضعة قرون منّ يكون جديرًا بالاضطلاع بمثل هذه المهمة، فيبعثه الحق تعالى، ليبيّن للناس طريق السعادة وطريق الشقاء؛ ليعلم الناس كيف يصلحون أنفسهم، وهذه هي النبوة العامة.

وبالتمعّن في الدين الإسلامي، وبمقارنته بسائر الأديان، ابتداءً من حاجة الإنسان إلى الملكات الحقّة، والمعارف النفسانيّة، حتى بلوغ الواجبات النوعيّة: الفرديّة، والاجتماعيّة، تثبت أحقيّة الإسلام. وهذا معنى من معاني الحديث الشريف: «الإسلامُ يَعْلُو، وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ»^(١).

في فضيلة صلاة الليل

في هذا الحديث الشريف يقول الإمام عليه السلام: «جَافِ عَنِ اللَّيْلِ جَنَبَكَ، وَاتَّقِ اللَّهَ رَبَّكَ»، فيقرن الأعمال القلبية، والتفكّر المنبّه، وتقوى الله تعالى، بإحياء الليل ومجافاة الفراش، للعبادة، وهذا دليل على كمال صلاة الليل، وفضيلتها، وأهميتها. لقد جاء في كتاب «وسائل الشيعة» إحدى وأربعون حديثاً في فضلها، والعديد من الأحاديث في كراهية تركها. وللتيمّن والتبرك نورد بعضها:

عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ عَمَّارٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ: «كَانَ فِي وَصِيَّةِ النَّبِيِّ عليه السلام لِعَلِيِّ قَوْلُهُ: يَا عَلِيُّ! أَوْصِيكَ فِي نَفْسِكَ بِخَصَالٍ فَاحْفَظْهَا، إِلَى أَنْ قَالَ: وَعَلَيْكَ بِصَلَاةِ اللَّيْلِ، وَعَلَيْكَ بِصَلَاةِ اللَّيْلِ»^(٢).

وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «قَالَ النَّبِيُّ عليه السلام لَجَبْرِئِيلَ: عِظْنِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ

(١) وسائل الشيعة، المجلد ١٧، كتاب الفرائض والمواarith، ح ٣٢٣٦٥.

(٢) وسائل الشيعة، المجلد الخامس، الباب ٣٩، من أبواب بقية الصلوات المندوبة، ح ١

عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحِبِّ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مُلَاقِيهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُهُ بِاللَّيْلِ، وَعِزُّهُ كُفُّهُ عَنْ أَغْرَاضِ النَّاسِ»^(١).

ولو كان جبرائيل الأمين يرى أهمية أكبر لأجر آخر لكان قدّمه في هذا المقام. قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا إِلَّا لِإِطْعَامِ الطَّعَامِ، وَالصَّلَاةِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسِ نِيَامًا»^(٢). ولو لم تكن لصلاة الليل سوى تلك الفضيلة لأهلها، لكفتها، إننا لا نعلم شيئاً عن عظمة رداء الخلّة، وما يعني مقام اتخاذ الله تعالى العبد حبيباً، وخليلاً.

في التقوى

التقوى لغة من «الوقاية» بمعنى: المحافظة.

وهي في العرف، وفي مصطلح الأخبار والأحاديث، تعني: «وقاية النفس من عصيان أوامر الله، ونواهيه، وما يمنع رضاه» وكثيراً ما عُرِّفَتْ بأنها: «حفظ النفس حفظاً تاماً عن الوقوع في المحظورات بترك الشبهات»، فقد قيل: «وَمَنْ أَحَدَ بِالشُّبُهَاتِ، وَقَعَ فِي الْمَحْرَمَاتِ، وَهَلَكَ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ»^(٣) «فَمَنْ رَتَعَ حَوْلَ الْحِمَى أَوْشَكَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ»^(٤).

أهمية التقوى

لا يمكن من دون التقوى بلوغ أي مقام؛ لأن النفس ما دامت ملوثة

(١) وسائل الشيعة، المجلد الخامس، الباب ٣٩، من أبواب الصلوات المندوبة، ح ٣.

(٢) وسائل الشيعة، المجلد الخامس، الباب ٣٩، من أبواب بقية الصلوات المندوبة، ح ٢٩ وح ٣١ وح ٣٠.

(٣) أصول الكافي، المجلد الأول، كتاب فضل العلم، باب إختلاف الحديث، ح ٩.

(٤) وسائل الشيعة، المجلد ١٨، كتاب القضاء، أبواب صفات القاضي، باب وجوب التوقف

والاحتياط في القضاء والفتوى، ح ٣٩.

بالمحرمات، لا تكون داخلية في الإنسانيّة، ولا سالكة طريقها.
وما دامت تميل إلى الشهوات، والذائد النفسيّة، وتستطيع حلاوتها، لن
تصل إلى أول مقامات الكمال الإنساني.
وما دام حب الدنيا والتعلق بها في القلب، فلا يمكن أن يصل إلى مقام
المتوسطين والزاهدين.
وما دام حب الذات باقياً في دخيلة ذاته، لن ينال مقام المخلصين والمحبين.
وما دامت الكثرة المملكيّة والمملوكيّة ظاهرة في قلبه، لن ينال مقام المنجذبين.
وما دامت كثرة الأسماء متجلية في باطنه، لن يصل إلى الفناء الكلي.
وما دام القلب يلتفت إلى المقامات، لن يبلغ مقام كمال الفناء.
وما دام هناك تلوين، لن يصل إلى مقام التمكين، ولن تتجلى في سرّه الذات
في مقام الاسم الذاتي تجلياً أزلياً وأبدياً.

مراتب التقوى

تقوى العامة من المحرمات، وتقوى الخاصة من المشتبهات، وتقوى الزاهدين
من حب الدنيا، وتقوى المخلصين من حب الذات، وتقوى المنجذبين من كثرة
ظهور الأفعال، وتقوى الفانين من كثرة الأسماء، وتقوى الواصلين من التوجه إلى
الفناء، وتقوى المتمكنين من التلوينات: ﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ﴾^(١).

في تقوى العامة

إن التوجه إلى الدنيا والتعلق بها، كالمخدر الذي يسلب الإنسان شعوره

بنفسه؛ فعندما يزول ارتباط الروح بدنيا البدن، يرجع إليها الشعور بذاتها، ومن ثمَّ الإحساس بالآلام، والأسقام، التي كانت في باطنها، فتظهر مهاجمة لها، بعد أن كانت مختفية كالنار تحت الرماد؛ وتلك الآلام والأسقام إمَّا أن تكون ملازمة لها (للروح)، ولا تزول عنها أبدًا، وإمَّا أن تكون قابلة للزوال، وفي هذه الحال يقتضي أن تبقى آلاف السنين تحت الضغط، والعناء، والنار، والاحتراق قبل أن تزول، إذ إن آخر الدواء الكي. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ﴾^(١).

إن وسيلة الخلاص من العذاب تنحصر في أمرين:

أحدهما: الاتيان بما يصلح النفس، ويجعلها سليمة.

والآخر: الامتناع عن كل ما يضرّها، ويؤلمها.

ومن المعلوم أن ضرر المحرمات أكثر تأثيرًا في النفس من أي شيء آخر؛ ولهذا كانت محرّمة، وأن الواجبات لها الأثر الكبير في صلاح الأمور؛ ولهذا كانت واجبة، وأفضل من أي شيء، ومقدمة على كل هدف، وممهدة للتطور إلى ما هو أحسن.

إن الطريق الوحيد إلى المقامات، والمدارج الإنسانيّة، يمرّ من خلال هاتين المرحلتين؛ فمن واطب عليهما نجا وسعد، وأهمهما التقوى من المحرمات، وأن أهل السلوك يحسبون هذه المرحلة مقدمة على المرحلة الأولى، ويتضح من أخبار المعصومين عليهم السلام اهتمامهم لهذه المرحلة، فعليك أن تثابر عليها بدقة، فإذا أتقنت الخطوة الأولى، بنيت أساسًا قويًا، وقوي الأمل بوصولك إلى مقامات أخرى،

وإلا امتنع الوصول، وصعبت النجاة.

كان شيخنا العارف الجليل يقول: إن المثابرة على تلاوة آخر آيات سورة الحشر المباركة، من الآية الشريفة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾^(١). إلى آخر السورة المباركة، مع تدبر معانيها، في تعقيبات الصلوات، ولا سيما في أواخر الليل، إذ يكون القلب فارغ البال، مؤثرة جداً في إصلاح النفس، وفي الوقاية من شر النفس، والشيطان.

وكان يوصي بدوام حال الوضوء، قائلاً: إن الوضوء مثل «بزة جندي». وعلى كل حال، عليك أن تطلب من القادر ذي الجلال، من الله المتعال جلّ جلاله، مع التضرع والبكاء والالتماس أن يوفقك في هذه المرحلة ويعينك في الحصول على خصلة التقوى.

واعلم، أن بدايات الأمر صعبة وشاقة، ولكن بعد مدة من الاستمرار والمثابرة تتحول المشقة إلى راحة، والعسر إلى يسر، بل تتبدل إلى لذة روحية، ولا سيما أن أصحاب هذه اللذة لا يستبدلوها بجميع اللذائذ.

وبعد المواظبة الشديدة، والتقوى التامة، يمكن أن تنتقل إن شاء الله إلى مقام تقوى الخاصة. وهي التقوى التي تتلذذ الروح بها. إذ إنك بعد أن تذوق طعم اللذة الروحية تترك شيئاً فشيئاً اللذائذ الجسدية وتجنبها. وعندئذٍ يسهل عليك المسير حتى لا تعود تقيم وزناً للذات الجسدية الزائلة، بل تنفر منها، وتقبح زخارف الدنيا في عينيك، وتنظر في باطنك فتجد أن كل لذة من لذات هذا العالم قد أوجدت في النفس أثراً، وأبقت في القلب لطخة سوداء، تبعث على شدة الإنس بهذه الدنيا، والتعلق بها؛ وهذه نفسها هي سبب الإخلاق إلى الأرض،

وعند سكرات الموت تتبدل إلى صعوبة ومشقة ومعاناة، فصعوبة سكرات الموت، وحالة النزاع الأخير القاسية، ناجمة عن هذه اللذات، وحب الدنيا. فإذا أدرك الإنسان هذا المعنى سقطت لذات العالم من عينه كلياً، ونفر من الدنيا وما فيها من مباحج وزخارف، وهذا هو التقدم الثاني إلى المقام الثالث من التقوى.

وبذلك يصبح سبيل السلوك إلى الله سهلاً ميسوراً، وطريق الإنسانية نيراً واسعاً، وتصبح خطوته شيئاً فشيئاً خطوة الحق، ورياضته رياضة الحق، ويتهرب من النفس، وآثارها، وأطوارها؛ إذ يجد في ذاته عشق للحق، فلا يعود يقنع بوعود الجنة، والخور العين، والقصور، بل يصير مقصوده أمراً آخر، وينفر من الأنانية، وحب الذات، فيتقي حب النفس، ويتقي ذاته، وأنانيته؛ وهذا مقام على قدر كبير من الشموخ والرفعة، وهو أول مراتب هبوب نسيم الولاية، فيدرجه الحق المتعال في كنف لطفه، ويعينه، ويجعله موضع ألطافه الخاصة.

أمّا ما يحدث للسالك بعد ذلك فخارج عن قدرة القلم.

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، والصلاة والسلام على محمد وآله

الطاهرين.



الْحَدِيثُ الثَّلَاثُ عَشَرُ

التَّوَكَّلْ

عَنْ عَلِيِّ بْنِ سُويْدٍ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الْأَوَّلِ عليه السلام، قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ): ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(١)، فَقَالَ:

«التَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ دَرَجَاتٌ، مِنْهَا: أَنْ تَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا، فَمَا فَعَلَ بِكَ كُنْتَ عَنْهُ رَاضِيًا، تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَأْلُوكَ خَيْرًا، وَفَضْلًا، وَتَعْلَمُ أَنَّ الْحُكْمَ فِي ذَلِكَ لَهُ؛ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ بِتَفْوِضٍ ذَلِكَ إِلَيْهِ، وَثِقْ بِهِ فِيهَا، وَفِي غَيْرِهَا»^(٢).

معاني المفردات

أبو الحسن الأول: الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، ويكنى أيضًا بأبي الحسن المطلق.

التوكل: في اللغة، إظهار العجز، والاعتماد على طرف آخر؛ واتكلت على فلان في أمر: اعتمدته.

حسبه: كافي.

يألو: من (ألا، يألو، ألوا). يعني: التقصير. وقد قال بعضهم: إذا عدّي هذا الفعل إلى مفعولين تضمّن معنى المنع، وهذا حسن؛ لأن المعنى يكون أسلس.

(١) الطلاق: ٣

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب التفويض إلى الله والتوكل عليه، ح ٥٠.

معنى التوكّل ودرجاته

يعرف صاحب «منازل السائرين» التوكّل، قائلاً: «التوكّل: كِلَة الأمر كُلِّهِ إِلَى مَالِكِهِ، وَالتَّغْوِيلُ عَلَى وَكَالَتِهِ».

ويقول بعض أصحاب العرفان: «التوكّل طَرَحُ الْبَدَنِ فِي الْعُبُودِيَّةِ، وَتَعَلُّقُ الْقَلْبِ بِالرُّبُوبِيَّةِ».

وقال آخرون: «التوكّل عَلَى اللَّهِ: انْقِطَاعُ الْعَبْدِ فِي جَمِيعِ مَا يَأْمُلُهُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ».

وللتوكّل درجات مختلفة بحسب اختلاف مقامات العباد، المبنية على معرفتهم بربوبيّة الحقّ جلّ جلاله، ومالكيته، وكيفية تصرفه في الأمور، وهم في التوكّل على ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: حجبت الأسباب الظاهرة عنهم ربوبيّة الحق، وسلطنته، فيدعون التوكّل ادعاء، تراهم في الأمور الدنيويّة يتشبثون بالأسباب الظاهريّة، والمؤثرات الكونيّة، وإذا ما اتفق أن توجهوا إلى الحقّ تعالى، وسألوه حاجة، فذلك من باب التقليد، أو من باب الاحتياط؛ لأنهم لا يرون في ذلك ضرراً عليهم، بل ربما يحتملون فيه الفائدة؛ وفي هذه الحال تُشَمُّ رائحة التوكّل، ولكنهم إذا رأوا الأسباب الظاهرة ملائمة لأهوائهم غفلوا كلياً عن الله تعالى، وعن تصريفه للأمر.

يقولون في الشؤون الدنيويّة: إن السعي والعمل لا ينافيان التوكّل، وفي الأمور الأخرويّة يرون السعي والعمل ينافيان الاعتماد، والتوكّل عليه؛ وما هذا إلّا من مكائد النفس والشيطان.

إن مقولة: التوكل لا ينافي العمل والتكسب، صحيحة، بل هي مطابقة للعقل والنقل، ولكن الاحتجاب عن ربوبية الحق، وتصريفه للأمور، وعدّ الأسباب مستقلة، ينافي التوكل.

الطائفة الثانية: قنعوا بالبرهان أو النقل، وصدّقوا بأن الحق تعالى هو مقدّر الأمور، ومسبّب الأسباب، والمؤثر في الوجود، ولا حدود لقدرته وتصرفه؛ هؤلاء يتوكلون على الله سبحانه عن طريق العقل، لقيام الأدلة على ذلك، فقد أثبتوا أركان التوكل، التي هي:

الأول: أن الحق تعالى عالمٌ بحاجات العباد.

الثاني: أنه قادر على تلبية تلك الحاجات.

الثالث: أنه ليس في ذاته المقدسة بخل.

الرابع: أنه رحيم بالعباد، رؤوف بهم.

لذا يجب التوكل على عالم، قدير، كريم، رحيم بالعباد، قائم بمصالحهم، لا يفوت عليهم شيئاً فيها، وإن لم يميزوا بين ما ينفعهم وما يضرهم.

هؤلاء من المتوكلين عملياً، إلا أنّهم لم يبلغوا مرتبة الإيمان؛ لذا هم مضطربون في اتخاذ أمر من أمورهم، وعقولهم مغلوبة في صراع قلوبهم؛ لأنّها بالأسباب متعلقة، وعن تصرف الحق سبحانه في الأشياء محجوبة، وهؤلاء هم المقصودون في الحديث الشريف؛ لأنه جعل العلم من مبادئ التوكل.

الطائفة الثالثة: الذين توصّلوا بقلوبهم إلى معرفة تصرف الحق تعالى في الكائنات، فأمنت تلك القلوب بأن مقدّر الأمور، والسلطان، ومالك الأشياء، هو الحق تعالى، وكتبوا بقلم العقل على ألواح القلوب أركان التوكل. هؤلاء هم أصحاب مقام التوكل.

وما قلناه يصحّ إذا كان القلب في مقام الكثرة الأفعاليّة، وإلاّ فإنه يتجاوز مقام التوكّل ويخرج عن المقصود.

الفرق بين التوكّل والرضا

مقام «الرضا» أسمى من مقام «التوكّل»؛ لأنّ المتوكّل يطلب الخير، والصّلاح لنفسه، فيوكل الحقّ تعالى، بصفته فاعل الخير، للحصول على الخير والصّلاح، أمّا «الراضي» فقد أفنى إرادته في إرادة الله، فلا يختار لنفسه شيئاً. ولقد سئل بعض أهل السلوك: «مَا تُرِيدُ؟». فَقَالَ: «أُرِيدُ أَنْ لَا أُرِيدَ»، فمطلوبه هو مقام الرضا.

أمّا ما جاء في الحديث الشريف: «فَمَا فَعَلَ بِكَ كُنْتُ عَنْهُ رَاضِيًا»، فإنه لا يعني مقام الرضا، ولذلك جاء بعد ذلك قوله: «تَعَلَّمُ أَنَّهُ لَا يَأْلُوكَ خَيْرًا، وَفَضْلًا»، وكأنّه عليه السلام أراد أن يوجد في السامع مقام التوكّل، وذلك بوضع المقدمات، فقال أولاً: «تَعَلَّمُ أَنَّهُ لَا يَأْلُوكَ خَيْرًا، وَفَضْلًا» ثم قال: «تَعَلَّمُ أَنَّ الْحُكْمَ فِي ذَلِكَ لَهُ»، ومن يعلم أن الله تعالى قادر على كل شيء، وأنه لا يفوت على نفسه خيره، وفضله، فإن مقام التوكّل يحصل له، وذلك لأنّ ركني التوكّل الأساسيين قد ذكرهما، في حين لم يذكر الركنين، أو الثلاثة الأخرى، لوضوحهما. الخلاصة: أنّ ما يفعله الحقّ تعالى يبعث على الرضا والسرور؛ لأنّ فيه الخير والصّلاح، وبذلك يحصل مقام التوكّل؛ ولذلك فرّع عليه السلام بقوله: «فتوكّل على الله».

الفرق بين التفويض والتوكّل والثقة

المفوّض لا يرى لنفسه حولاً ولا قوة، ولا تصرفاً في شيء، ويرى الحقّ تعالى هو المتصرف في كل الأمور، أمّا المتوكّل فيجعل الحقّ سبحانه قائماً مقامه في

التصرف، واجتلاب الخير والصلاح.

وأما «الثقة» فهي غير «التوكل» و«التفويض»، يقول الخواجه عبدالله الأنصاري: «الثقة سَوَادُ عَيْنِ التَّوَكَّلِ، وَنُقْطَةُ دَائِرَةِ التَّفْوِيضِ، وَسُوْدَاءُ قَلْبِ التَّسْلِيمِ».

أي أن المقامات الثلاثة لا تحصل من دون «ثقة»، بل إن روح تلك المقامات هي الثقة بالله تعالى. وبذلك يتبين السرّ في قول رسول الله ﷺ، بعد التوكل والتفويض: «ثِقْ بِهِ فِيهَا وَفِي غَيْرِهَا».



الْحَدِيثُ الْإِسْلَامِيُّ الرَّابِعُ عَشْرُونَ

الخوف والرجاء

عَنِ الْحَارِثِ بْنِ الْمَغِيرَةِ، أَوْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، قَالَ: قُلْتُ لَهُ: مَا كَانَ فِي وَصِيَّةِ لُقْمَانَ؟ قَالَ:

«كَانَ فِيهَا الْأَعَاجِيبُ، وَكَانَ أَعْجَبَ مَا كَانَ فِيهَا أَنْ قَالَ لِابْنِهِ: خَفِ اللَّهَ (عَزَّ وَجَلَّ) خِيفَةً لَوْ جِئْتَهُ بِبِرِّ الثَّقَلَيْنِ لَعَذَّبَكَ، وَارْجُ اللَّهَ رَجَاءً لَوْ جِئْتَهُ بِذُنُوبِ الثَّقَلَيْنِ لَرَحِمَكَ. ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام كَانَ أَبِي يَقُولُ: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَفَى قَلْبِهِ نُورَانِ: نُورُ خِيفَةٍ، وَنُورُ رَجَاءٍ، لَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا، وَلَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا»^(١).

معاني المفردات

أعاجيب: جمعُ أَعْجُوبَةٍ، والأَعْجُوبَةُ: ما يكون حسنه أو قبحه، مثارًا للتعجب.
والْبِرُّ: خلافُ العقوق، وفُلَانٌ يَبِرُّ خَالِقَهُ، يعني: يطيعه.
والثقلان: الجن والإنس.

نظرتا الإنسان العارف

للإنسان العارف بالحقائق، والمطلع على النسبة بين الممكن والواجب جلّ وعلا، نظرتان:

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الخوف والرجاء، ح ١.

إحداهما: نظرته إلى نقصه الذاتي، وإلى نقص جميع الممكنات، فهو يدرك في هذه النظرة، عينًا، أو علمًا، أن الممكن غارق في الذل، والنقص، والفقر أزلًا وأبدًا، وأنه لا يملك بذاته شيئًا إطلاقًا، وهو محض لا شيء، وهو في هذه النظرة لو تقدم إلى أعتاب الربوبية بكل العبادات، والطاعات، والعلوم، والمعارف، فلن يكون أمامه سوى أن يطأطئ رأسه خجلًا، وذللًا، وخوفًا، فما هذه العبادة والطاعة؟ ممن؟ ولمن؟ إن كل المحامد تعود إليه تعالى.

والأخرى: نظرته إلى الكمال الواجب، وبسط رحمته، وسعة لطفه تعالى وعنايته. فهو يرى أنه سبحانه قد بسط هذه النعم والرحمات المتنوعة، التي لا يمكن الإحاطة بها ولا حصرها وتحديدتها، من دون استعداد، وتهيؤ مسبق لها؛ وإنه قد فتح أبواب لطفه وعفوه على العباد، من دون استحقاق.

هذا المالك لا تنقص من ملكه الواسع معصية العاصين، ولا تزيده طاعة المطيعين، بل إن هداية ذاته المقدسة لنا إلى طرق الطاعات، ومنعه إيّانا عن العصيان، إنما هو من عناياته الكريمة ونعمه، من أجل وصولنا إلى مقامات الكمال ومدارجه الرفيعة، وللتنزه عن النقص والقبح والتشوه.

فعلى الإنسان، إذًا، أن يتردد بين هاتين النظرتين؛ فلا هو يغمض عينيه عمًا فيه من نقص وقصور، في القيام بالعبودية، ولا هو ينسى سعة رحمة الحق جلّ جلاله وعنايته، وشموليتهما.

وللخوف، والرجاء، مراتب، ودرجات، بحسب حالات العباد ومراتب معرفتهم؛ فخوف العامة من العذاب، وخوف الخاصة من العتاب، وخوف أخص الخاصة من الاحتجاب.

أسباب الخوف

السبب الأوّل: القصور عن القيام بواجب العبوديّة، إذ ليس أحد من المخلوقات، بقادرٍ على عبادة الحق تعالى، حق عبادته؛ لأن العبادة هي الشّاء على مقام ذات الله المقدسة، وثناء كل شخص فرع معرفته بمن يُشني عليه؛ ولما كانت عقول العباد تقصر عن معرفة ذاته المتعال، فهم غير قادرين على الشّاء على جماله وجلاله، وقد اعترف بذلك أشرف الخلائق، وأعرف الكائنات بمقام الربوبيّة، فقال ﷺ: «مَا عَبْدُنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَمَا عَرَفْنَاكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ»^(١)، إذ إنّ الجملة الثانية بمنزلة التعليل للجملة الأولى، إذ قال: «أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(٢).

إذاً، فالقصور الذاتي سمة الممكن، والعلو الذاتي خاص بذات كبرياء الله جلّ جلاله. وقد فتح الله تعالى بلطفه الشامل ورحمته الواسعة، باباً من الرحمة والرعاية بالعباد، ذلكم هو باب العبادة والمعرفة؛ فعلم العباد طرق عبادته، وفتح لهم سبيلاً إلى المعارف؛ لكي يسعوا لنيل الكمالات الممكنة، ويهتدوا بأشعة نور العبوديّة، للوصول إلى عالم كرامة الحق، وإلى الروح، والريحان، وجنات النعيم، بل إلى رضوان الله الأكبر، لذا كان فتح باب العبادة، والعبوديّة من النعم الكبرى، التي لا تستطيع الكائنات شكرها، بل إنّ كل شكر هو فتح باب كرامة، لا تقدر على شكره أيضاً. فإذا علم الإنسان مشربه هذا، واطّلع قلبه عليه، خاف واعترف بتقصيره، ولو تقدم بعبادة الجن والإنس، والملائكة المقربين.

إننا في كل عبادتنا وطاعتنا، إنّما نريد مصالحنا الخاصة، ودافعنا إليها هو حبّ النفس؛ وما الزهد في الدنيا في الحقيقة إلّا من أجل الآخرة. فلو ذهبنا بعبادة

(١) سفينة البحار، ج ٢ ص ١٨٠ وما بعدها.

(٢) سفينة البحار، ج ٢ ص ١٨١ وما بعدها.

الثقلين إلى محضر قدسه الربوبي، لما كان استحقاقنا سوى البعد عن ساحته المقدسة. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: لَا يَتَكَلَّمُ الْعَامِلُونَ لِي عَلَى أَعْمَالِهِمْ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا لِثَوَابِي، فَإِنَّهُمْ لَوْ اجْتَهَدُوا وَاتَّبَعُوا أَنْفُسَهُمْ - أَعْمَارَهُمْ - فِي عِبَادَتِي كَانُوا مُقَصَّرِينَ، غَيْرَ بِالْغَيْنِ فِي عِبَادَتِهِمْ كُنْهَ عِبَادَتِي فِيمَا يَطْلُبُونَ عِنْدِي مِنْ كَرَامَتِي، وَالنَّعِيمِ فِي جَنَاتِي، وَرَفِيعِ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى فِي جِوَارِي، وَلَكِنْ بِرَحْمَتِي فَلْيَتَّقُوا، وَفَضْلِي فَلْيَرْجُوا، وَإِلَى حُسْنِ الظَّنِّ بِي فَلْيَطْمَئِنُّوا، فَإِنَّ رَحْمَتِي عِنْدَ ذَلِكَ تُدْرِكُهُمْ، وَمَتَّى يُبْلَغُهُمْ رِضْوَانِي، وَمَغْفِرَتِي تُلَبِّسُهُمْ عَفْوِي، فَإِنِّي أَنَا اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، وَبِذَلِكَ تَسْمِيَتْ»^(١).

السبب الثاني: التفكر في شدة بأس الله تعالى، وفي دقة سلوك طريق الآخرة، والأخطار التي تحيط بالإنسان في حياته، وعند موته، ومشاق البرزخ، ويوم القيامة.

أسباب الرجاء

الآيات والأخبار التي تنبئ عمّا وعد الله تعالى عباده، تُحيي كامل الأمل والرجاء؛ لقد جاء في الأحاديث: أن الحق تعالى يبسط يوم القيامة بساط رحمته على نحو يطمع حتى الشيطان بالمغفرة منه، وأنه سبحانه وتعالى لم يبعث إلى هذا العالم رحمته إلا بمقدار ذرة بالنسبة إلى العوالم الأخرى، إذاً، فأكمل حسن ظنك بالله، وثق بفضلله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾^(٢)، فليستبشر قلبك برحمته التامة؛ ولولا شمولك برحمته الواسعة لما خلقتك، فكل مخلوق مرحوم: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٣).

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب حسن الظن بالله، ح ١.

(٢) الزمر: ٥٣

(٣) الأعراف: ١٥٦

في الفرق بين الرجاء والغرور

لتحقق الرجاء شرطان:

أحدهما: أن يقوم القلب بواجب العبودية والطاعة؛ لأن تعظيم العظيم المنعم، وعبادته، من الأمور الفطرية التي لا خلاف فيها.

والآخر: أن لا يكون في أداء واجبات العبودية معتمداً على أعماله، بل آملاً رحمة الله وفضله وعطاءه، معتمداً على رحمة الجواد المطلق.

أمّا التهاون في أوامر الحق تعالى، والاستهانة بتعاليمه، فهو الغرور الحاصل من مكائد الشيطان، والنفس الأمّارة بالسوء، لا غير.

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قُلْتُ لَهُ: قَوْمٌ يَعْمَلُونَ بِالْمَعَاصِي وَيَقُولُونَ: نَرْجُو، فَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَهُمُ الْمَوْتُ. فَقَالَ: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ يَتَرَجَّحُونَ فِي الْأَمَانِي. كَذَبُوا لَيْسُوا بِرَاجِينَ؛ إِنَّ مَنْ رَجَا شَيْئًا طَلَبَهُ؛ وَمَنْ خَافَ مِنْ شَيْءٍ هَرَبَ مِنْهُ»^(١).

الرجاء المستحسن هو تهيئة الأسباب التي يمتلكها الإنسان على النحو الذي أمر الله به، واستغلالها بحسب القدرة التي زوّده بها الحق المتعال بعنايته الكاملة، وهدايته إلى طرق الصلاح، والفساد، ثم ينتظر ويرجو الحق المتعال أن يتمّ عنايته السابقة تجاه الأسباب التي وفرها من قبل، ويحقق الأسباب التي لا تدخل تحت إرادته، واختياره من بعد، ويزيل الموانع والمفاسد؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٢).

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الخوف والرجاء ح ٥ وح ١١

(٢) البقرة: ٢١٨.

في سبب تعادل الخوف والرجاء

إن الإنسان عندما يدرك منتهى قصوره في النهوض بالعبودية، ويرى صعوبة طريق الآخرة، وعندما يستحضر ذنوبه، ويفكر في من مات قبله، بلا إيمان، وعمل صالح، يشتدّ فيه الخوف. فعن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: قال: «الْمُؤْمِنُ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ: ذَنْبٍ قَدْ مَضَى لَا يَدْرِي مَا صَنَعَ اللَّهُ فِيهِ، وَعُمْرٍ قَدْ بَقِيَ لَا يَدْرِي مَا يَكْتَسِبُ فِيهِ مِنَ الْمَهَالِكِ؛ فَهُوَ لَا يُصْبِحُ إِلَّا خَائِفًا؛ وَلَا يُصَلِّحُهُ إِلَّا الْخَوْفُ»^(١).

يرى الإنسان نفسه في منتهى النقص والتقصير، ويرى الحق في منتهى العظمة والجلال، وسعة الرحمة والعطاء، ويعيش العبد بين هاتين النظرتين دائماً، في حال متوازية بين الخوف والرجاء، والحمد لله على جماله وجلاله والصلاة على محمد وآله.

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الخوف والرجاء ح ٥ وح ١١



الْحَدِيثُ الْخَامِسُ عَشَرُ

البلاء

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، قَالَ: إِنَّ فِي كِتَابِ عَلِيٍّ عليه السلام:
«إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ بَلَاءً، النَّبِيُّونَ، ثُمَّ الْوَصِيُّونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلَا أَمْثَلُ؛
وَأِنَّمَا يُبْتَلَى الْمُؤْمِنُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِ الْحَسَنَةِ؛ فَمَنْ صَحَّ دِينُهُ وَحَسُنَ
عَمَلُهُ، اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ (تعالى) لَمْ يَجْعَلِ الدُّنْيَا ثَوَابًا لِلْمُؤْمِنِ،
وَلَا عُقُوبَةً لِّلْكَافِرِ؛ وَمَنْ سَخُفَ دِينُهُ، وَضَعُفَ عَقْلُهُ، قَلَّ بَلَاؤُهُ؛ وَإِنَّ
الْبَلَاءَ أَسْرَعَ إِلَى الْمُؤْمِنِ التَّقِيِّ مِنَ الْمَطَرِ إِلَى قَرَارِ الْأَرْضِ»^(١).

معاني المفردات:

الناس: عموم البشر.

البلاء: الاختبار والامتحان في الحسن والقبح، فكل ما يمتحن به الحق (جل جلاله) عباده يُدعى بلاءً، أو ابتلاءً، سواءً كان بالأفراط وإدبار الدنيا، أو بما يقابل هذه الأمور، نحو: الجاه، والمال، قال تعالى: ﴿بَلَاءٌ حَسَنًا﴾^(٢)؛ ولكن متى ما ذكر البلاء، أو البلية، أو الابتلاء، بصورة مطلقة انصرف الذهن إلى المعنى الأول.
أَمْثَلُ: أفضل، وأشرف؛ وأمائل الناس: خيارهم، فمعنى: «ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلَا أَمْثَلُ»: هو أن من كان أفضل، وأحسن - بعد الأئمة الأوصياء عليهم السلام - فبلاؤه أشد من الآخرين. ومن كان - من غير الفئة المذكورة - أفضل فبلاؤه أكثر من

(١) أصول الكافي، الإيمان المجلد الثاني، كتاب والكفر، باب شدة ابتلاء المؤمن، ح ٢٩

(٢) الأنفال: ١٧

غيره من الناس، فمراتب الابتلاء على قدر درجات الفضل عند الله سبحانه.

السُّخْفُ: ضعف العقل، وخفته.

الْقَرَارَ: المستقر، والمكان.

معنى الامتحان وآثاره ونسبته إلى الحق تعالى

للنفوس البشرية منذ تعلقها بالأجساد، وهبوطها إلى عالم المادة، القوة، والأهلية، والقابلية، لتلقي العلوم، والمعارف، والاتصاف بالملكات الحسنة، والسيئة، ثم تتدرج بعناية الله تعالى نحو الفعلية شيئاً فشيئاً، من الإدراكات الضعيفة الجزئية نحو: حاسة اللمس، والحواس الظاهرية الأخرى، ثم تظهر ثانياً الإدراكات الباطنية متدرجة أيضاً.

إنّ الملكات موجودة في النفس بالقوة، فإن لم تتفجّر فيها الطاقات الحيرة، تحققت الملكات الفاسدة، وانعطفت نحو القبائح، وتحوّل الإنسان إلى حيوان عجيب، وشيطان غريب؛ لذا جعل الحق سبحانه مربّين للإنسان، يطير بهما من حضيض الجهل والنقص، إلى أوج العلم والكمال، هما:

أولاً: المربي الباطني المتجسد في العقل المميّز بين الحسن والقبح.

ثانياً: المربي الخارجي المتجسد في الأنبياء والأدلاء على طرق السعادة.

وكلا المربيين لا يؤدي دوره من دون الآخر.

وقد وهبنا الحق المتعالي هاتين النعمتين الكبيرتين لنا امتحاناً واختباراً، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَنْ يُمَحَّصُوا، وَيُمَيَّزُوا، وَيُعَرَّبَلُوا، وَيُسْتَخْرَجَ فِي الْغُرَبَالِ خَلْقٌ كَثِيرٌ»^(١).

(١) أصول الكافي، المجلد الأول، كتاب الحجة، باب التمهيص والامتحان، ح ٢

فنتيجة الاختبار هو فصل السعيد عن الشقي على صعيد الخارج الواقعي.

فلسفة شدة ابتلاء الأنبياء والأوصياء والمؤمنين

تذكر أن كل ما يقع من الإنسان في عالم مُلك الجسم، وكان مُدرَكًا للنفس، يترك أثرًا حسنًا، أو سيئًا، وقد عبّر عن هذا الأثر في الأخبار بنقطة بيضاء، ونقطة سوداء^(١)، فمثلاً: إن كل لذة مما يلتذ الإنسان به من المطعومات، أو المشروبات، أو المنكوحات، أو غيرها، يترك أثرًا في النفس، وتعلقًا به، ومع التكرار تترى النفس على التعلق بالدنيا، وتغفل عن الحق تعالى وعالم الآخرة، حتى إذا ركنت إلى الدنيا كليًا، انصرفت عن الحق المتعال، ودار الكرامة نهائيًا، وانحطت إلى درك: ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ﴾^(٢).

وإذا استاء الإنسان من شيء نفر منه، وكلما كانت تلك الصورة في النفس أقوى كان النفور والانزجار منها أكثر. فمثلاً: إذا ابتلي الإنسان بأسقام وآلام في بلد، كرهه ونفر منه؛ فالإنسان إذا عاش هموم الدنيا وآلامها خفّ تعلقه بها، وقل ركونه إليها، ونفر قلبه منها؛ وإذا اعتقد بوجود عالم آخر خال من جميع أنواع الشقاء، والتعاسة، ارتحل إليه؛ وإذا لم يتمكن من السفر بجسمه ذهب بروحه، وبعث بقلبه إلى ذلك العالم.

إن لطف الحق تبارك وتعالى، وعنايته، كلما شملت شخصًا أكثر، أبعدته عن

(١) عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ما من عبد إلا وفي قلبه نقطة بيضاء فإذا اذنب خرج في النقطة

نقطة سوداء فإن تاب ذهب ذلك السواد وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي

البياض، فإذا تغطي البياض لم يرجع إلى صاحبه إلى خير أبدًا». أصول الكافي، ج ٢ ص ٢٧٣

(كتاب الإيمان والكفر، باب الذنوب) الحديث ٢٠. (الفروني)

(٢) الأعراف: ١٧٦

هذا العالم وزخرفته أكثر، حتى تنقلع رغبته في الدنيا، ووجه وجهه، بحسب درجة إيمانه إلى عالم الآخرة، وارتبطت روحه بذلك العالم؛ فَعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيَتَعَاهَدُ الْمُؤْمِنَ بِالْبَلَاءِ كَمَا يَتَعَاهَدُ الرَّجُلُ أَهْلَهُ بِالْهَدِيَّةِ مِنَ الْغَيْبَةِ، وَيَحْمِيهِ الدُّنْيَا كَمَا يَحْمِيهِ الطَّبِيبُ الْمَرِيضَ»^(١).

إنَّ مَثَلَ الْإِيمَانِ، وتوفير بواعث التوفيق، مَثَلُ إنسان قد حمل مصباحاً، وسلك طريقاً مظلماً، فكلما تقدم خطوة، أضاء أمامه، واهتدى للخطوة اللاحقة. فكلما رفع الإنسان قدمًا نحو عالم الآخرة، اتضح له السبيل أكثر، وغمرتة عنايات الحق على نحو أكبر.

ويمكن أن يكون إثثار الأنبياء والأولياء للفقير على الغنى، والمعاناة على الراحة؛ لأنهم وقفوا من خلال النور الباطني، والمكاشفات الروحانية، على أنَّ الحق المتعالي لا ينظر بعين اللطف إلى هذا العالم، ولا إلى زخارفه^(٢).

ومن فوائد شدة ابتلاء المؤمنين، أنَّ لهم درجات لا ينالونها إلاَّ بتحمل المصائب، والأسقام، والآلام؛ ويحتمل أن تكون هذه الفوائد صورة غيبية للإعراض عن الدنيا، والإقبال على الحق المتعالي؛ ويمكن أن تكون صورة ملكوتية لهذه المحن بعد ابتلاء الإنسان بها، فقد ورد عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «إِنَّهُ لَيَكُونُ لِلْعَبْدِ مَنْزِلَةٌ عِنْدَ اللَّهِ فَمَا يَنَالُهَا إِلَّا بِإِحْدَى الْخَصْلَتَيْنِ: إمَّا بِذَهَابِ مَالٍ، أَوْ بِبَلِيَّةٍ فِي جَسَدِهِ»^(٣).

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب شدة ابتلاء المؤمن، ح ١٧

(٢) في الحديث «وهبط مع جبريل ملك لم يَطَأِ الْأَرْضَ قَطُّ، معه مفاتيح خزائن الأرض فقال: يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول: هذه مفاتيح خزائن الأرض، فإن شئت فكن نبياً عبداً وان شئت فكن نبياً ملكاً، فإشار إليه جبرئيل عَلَيْهِ السَّلَامُ أن تواضع يا محمد فقال: بل أكون نبياً عبداً ثم صعد إلى السماء» آمالي الصدوق، المجلس ٦٩ الحديث ٣. (الفروي)

(٣) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب شدة ابتلاء المؤمن، ح ٢٣ وح ٢

وفي رواية شهادة الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام، أنه رأى جده رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام وأخبره بـ «أَنَّ لَكَ دَرَجَةً فِي الْجَنَّةِ لَا تَنَاهَا إِلَّا بِالشَّهَادَةِ»^(١)، ومن المعلوم أن الصورة المملوكية للشهادة في سبيل الله لم تحصل إلا بعد وقوع الشهادة في عالم الملك - عالمنا الحاضر - كما برهن على ذلك في العلوم العالية.

الأنبياء مبرؤون من العيوب الجسدية

أشار عدد من علماء الإسلام - رضوان الله عليه - إلى أن الأنبياء والأوصياء عليهم السلام في الأمراض الجسمية كغيرهم، بل هم أولى بها من غيرهم، تعظيماً لأجرهم الذي يوجب التفاضل في الدرجات، ولا يقدر ذلك في رتبته. وأشار آخرون إلى أن الأنبياء منزّهون عن الأمراض المنفّرة كالجذام، والبرص؛ لأن ذلك كله مما ينفر عنه فيكون منافياً للغرض من البعثة. ولكل وجه، فإنّ عوام الناس لا يفرقون بين المقامات الجسمية والروحية، ويحسبون أن النقص الجسماني نتيجة النقص الروحاني أو ملازم له، ويعتقدون أن من عناية الحق (سبحانه) أن لا يصيب الأنبياء أصحاب الشريعة والمبعوثين بالرسالة، بأمراض تسبب نفرة الطباع، واستيحاش الناس؛ فعدم ابتلائهم لأن هذه المصائب والبلايا، تحطّ من مقام النبوة، بل من أجل إكمال تبليغ الناس وإرشادهم. وعليه لا مانع من ابتلاء بعض الأنبياء الذين لم يحظوا بالشريعة، وابتلاء الأولياء الكبار والمؤمنين بمثل هذه المحن.

وقد وردت أحاديث كثيرة في ابتلاء النبي أيوب عليه السلام، فعن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل، قال: «فَسَلَّطَهُ عَلَى بَدَنِهِ مَا خَلَا عَقْلَهُ، وَعَيْنَيْهِ؛ فَفَنَخَّ فِيهِ إِبْلِيسُ

فَصَارَ قُرْحَةً وَاحِدَةً مِنْ قَرْنِهِ إِلَى قَدَمِهِ، فَبَقِيَ فِي ذَلِكَ دَهْرًا طَوِيلًا، يَحْمَدُ اللَّهُ، وَيَشْكُرُهُ، حَتَّى وَقَعَ فِي بَدَنِهِ الدُّودُ، وَكَانَتْ تَخْرُجُ مِنْ بَدَنِهِ فَيَرُدُّهَا، وَيَقُولُ لَهَا: ارْجِعِي إِلَى مَوْضِعِكَ، الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ مِنْهُ، وَتَنَنْ حَتَّى أَخْرَجَهُ أَهْلُ الْقَرْيَةِ مِنَ الْقَرْيَةِ، وَالْقَوَّةُ فِي الْمَرْبَلَةِ خَارِجَ الْقَرْيَةِ»^(١).

وَعَنْ أَبِي بَصِيرٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، قَالَ: «قُلْتُ لَهُ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»^(٢)، فَقَالَ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، يُسَلِّطُ، وَاللَّهِ، مِنَ الْمُؤْمِنِ عَلَى بَدَنِهِ، وَلَا يُسَلِّطُ عَلَى دِينِهِ؛ قَدْ سُلِّطَ عَلَى أَيُّوبَ فَشَوَّهَ خَلْقَهُ، وَلَمْ يُسَلِّطْ عَلَى دِينِهِ؛ وَقَدْ يُسَلِّطُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَبْدَانِهِمْ، وَلَا يُسَلِّطُ عَلَى دِينِهِمْ»^(٣).

الدنيا ليست محلًا لثواب الحق المتعالي وعقابه

هذا العالم الدنيوي لما فيه من النقص والقصور والضعف، ليس بدار كرامة، ولا محل ثواب الحق سبحانه، ولا محل عذابه وعقابه؛ لأن دار كرامة الحق (عز وجل) عالم نعمه خالصة، غير مشوبة بالنقم، وراحته غير مخلوطة بالشقاء، وهذا العالم دار تراحم وصراع، ونعمه محفوفة بأنواع من العذاب والآلام والمحن. بل قال الحكماء: إِنَّ حَقِيقَةَ لَذَاتِ هَذَا الْعَالَمِ هِيَ دَفْعُ لِلْآلَامِ، أَلَيْسَ الْأَكْلُ دَفْعًا لِلْأَلَمِ الْجُوعُ، وَالشَّرْبُ دَفْعًا لِلْأَلَمِ الْعَطَشُ؟ وكذلك العذاب والشقاء، في هذا العالم، ليس بخالص، بل محفوف بنعمة أو نعم، فقد يتعذب من جانب ويتنعم من آخر.

(١) بحار الأنوار، ح ١٢، ص ٣٤٢

(٢) النحل: ٩٨ - ٩٩

(٣) روضة الكافي ص ٢٨٨ ح ٤٣٣

إن مادة هذا العالم تتمرد على قبول الرحمة الخالصة، والعذاب الخالص المطلق، فلا يصلح لأن يكون دار جزاء خالص، لا ثواباً، ولا عقاباً، وهو ما أشار إليه الحديث الشريف: «أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلِ الدُّنْيَا ثَوَابًا لِلْمُؤْمِنِ، وَلَا عِقَابًا لِلْكَافِرِ»؛ إن هذه الدار دار امتحان وتفريق، بين المطيع والعاصي، وعالم ظهور الفعاليات؛ وليست بدار تبيين نتائج الأعمال والملكات تماماً. وإذا ترك الحق المتعالى أهل الموبقات والظلم في ضلالهم وغييهم، كان ذلك استدراجاً، قال الله سبحانه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾^(١). ويقول: ﴿وَلَا يَحْصِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ لِيَزِدَّادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^(٢). وعن الصادق عليه السلام أنه قال: «إِذَا أَحْدَثَ الْعَبْدُ ذَنْبًا، جُدِّدَ لَهُ نِعْمَةٌ، فَيَدْعُ الْاسْتِغْفَارَ، فَهُوَ الْاسْتِدْرَاجُ»^(٣).

شدة المعاناة الروحية توازي شدة الإدراك

يظهر من نهاية الحديث الشريف «وَمَنْ سَخُفَ دِينُهُ، وَضَعَفَ عَقْلُهُ، قَلَّ بَلَاؤُهُ» أن البلية تعم الجسمانية والروحانية، فإن الأشخاص الضعاف في عقولهم وإدراكهم في أمان من المعاناة الروحية، والانزعاجات العقلية، على خلاف من يتمتع بالعقل الكامل، والإدراك الحذق، إذ تزداد معاناته ومصائبه. ومن المحتمل أن يعود إلى هذا المعنى كلام الرسول ﷺ القائل: «مَا أَوْذَى نَبِيٍّ مِّثْلَ مَا أَوْذِيْتُ»^(٤) لأن كل من يدرك جلال الرب، وعظمته أكثر، ويقف على المقام

(١) القلم: ٤٤ - ٤٥

(٢) آل عمران: ١٧٨

(٣) مجمع البيان، المجلد الخامس، ص ٣٤٠

(٤) الجامع الصغير، المجلد الثاني، ص ١٤٤

المقدس للحق (جل وعلا) على نحو أعمق، يتألم ويتعذَّب من جراء عصيان العباد، وهتكهم للحرمة أكثر. وكل من كانت رحمته وعنايته وشفقته على عباد الله أكثر، تأذَّى من اعوجاج العباد، وشقائهم أكثر. وقطعاً كان خاتم النبيين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل هذه المقامات والمنازل الكمالية أكمل من جميع النبيين والأولياء وبني الإنسان، فتكون محنه وآلامه أعمق.

وله الحمد.



الْحَدِيثُ السَّائِسُ عَشْرُ

الْحَبِير

عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ:

«إِنَّ الْحُرَّ حُرٌّ عَلَى جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، إِنْ نَابَتْهُ نَائِبَةٌ صَبَرَ لَهَا، وَإِنْ تَدَاكَتْ عَلَيْهِ
الْمَصَائِبُ لَمْ تَكْسِرْهُ، وَإِنْ أُسِرَ وَقْهَرُ، وَاسْتُبْدِلَ بِالْيُسْرِ عُسْرًا، كَمَا كَانَ يُوسُفُ
الصَّدِيقُ الْأَمِينُ لَمْ يُضِرْ زُحْرِيَّتُهُ أَنْ اسْتُعْبِدَ وَقْهَرُ، وَأُسِرَ وَلَمْ تُضِرْهُ ظُلْمَةُ
الْجُبِّ وَوَحْشَتُهُ وَمَا نَالَهُ أَنْ مَنَّْ اللَّهُ عَلَيْهِ فَجَعَلَ الْجَبَّارَ الْعَاقِيَ لَهُ عَبْدًا بَعْدَ إِذْ
كَانَ [لَهُ] مَالِكًا، فَأَرْسَلَهُ، وَرَحِمَ بِهِ أُمَّةً، وَكَذَلِكَ الصَّبْرُ يُعَقِّبُ خَيْرًا؛
فَاصْبِرُوا، وَوَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الصَّبْرِ، تُوجَرُوا»^(١).

معاني المفردات:

نَائِبَةٌ: مفرد نوائب، وهي الحوادث، والكوارث النازلة.
وتدَاكَتْ عليه: تداقت، واستعملت أيضًا بمعنى: الاجتماع، والازدحام.

أسر الشهوة مصدر كل أسر وأساس البلاء

العبودية هي الخضوع التام والاطاعة؛ والإنسان إذا أصبح مقهورًا لهيمنة
الشهوة، والميول النفسية، كان عبدًا لها، وعبوديته بمقدار مقهوريته لتلك
السلطات الحاكمة عليه، ويبلغ الأمر إلى مستوى يَفْضِلُ طاعتها على طاعة ربه،

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الصبر، ح ٦

عندئذٍ يفقد عزته وكرامته وحرّيته، فيخضع لأهل الدنيا، وينحني قلبه أمام ذوي الجاه والحشمة، ويقبل امتنان كل وضعٍ عنده، لمجرد احتمال نيل ما يبتغيه حتى من أتفه إنسان؛ هذا الأسر والرق من الأمور التي تجعل الإنسان دائماً في المذلّة والعذاب والنصب؛ فيجب على من يتوق للنبل والكرامة أن يلتجئ إلى كل وسيلة لتطهير نفسه منها.

ويتم التطهير من هذه القذارات بمعالجة النفس بطريقتي: العلم، والعمل الناجع.

أمّا العمل فيتمّ بالرياضة الشرعية، وبمخالفة النفس مدّة يتم فيها وزع النفس عن الحب المفرط للدنيا، ودفعها نحو الكمالات.

وأمّا العلم فيتم بتلقين النفس: أن الناس الآخرين يضاهونه في الفقر والضعف والحاجة، إلى الغنيّ المطلق، القادر على جميع الأمور: الجزئية، والكلية؛ وأنهم غير قادرين على إنجاز حاجة أحد أبداً، وأنهم أتفه من أن تنعطف النفس إليهم، ويخشع القلب أمامهم، وأن القادر الذي منحهم العزة والشرف والمال والوجاهة، قادر على منح من يشاء، ومن العار على الإنسان أن يتذلّل في سبيل شهوته، ويتحمل الامتنان من مخلوق فقير ذليل لا حول له، ولا علم، ولا وعي.

إذا أردت - أيها الإنسان - أن تقبل المنّة فلتكن من الغني المطلق سبحانه، فإنك إذا وجهت وجهك إلى ذاته المقدسة، وخشع في محضره قلبك، تحرّرت من عبودية سواه. إنّ العبودية له وحده سبحانه، تنجم حالة في القلب تقهر العوالم الأخرى، وتظهر للروح حالة من الشموخ والعظمة، تأبى طاعة سواه، إلّا من طاعتهم طاعة ذات الحق المقدس؛ هكذا كان شأن النبي يوسف ولقمان، إذ لم تنعكس سلباً عبوديتهما الظاهرية على حرية نفسيهما؛ في حين كم من أصحاب

القدرة والسلطة الظاهرية، لم يستنشقوا نسيم الحرية الحقيقية، فكانوا أذلاء وعبداً للنفس وأهوائها، ويتزلفون إلى المخلوق التافه. نُقِلَ عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام مقولة: «إِنِّي لَأَنْفُ أَنْ أَطْلُبَ الدُّنْيَا مِنْ خَالِقِهَا، فَكَيْفَ مِنْ مَخْلُوقٍ مِثْلِي؟!»^(١).

إن كل ما ذكرناه، هو الذل الديني، وإذا ارتفعت الحجب تجلّت الصورة الملكوتية للأسر في أغلال الشهوات، وسلاسل الرغبات النفسانية، وأنها كيف تكون؟ ولعل هذه السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً، والتي أخبر عنها الله تعالى والتي تكون أصفاً وأغلاً لنا في يوم الآخرة هي الصورة الملكوتية لهذا الأسر والرق، في ظل أوامر القوة الشهوية والغضبية. قال الله تعالى: ﴿وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاصِرًا﴾^(٢). وقال: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾^(٣). فما يصل إلينا في ذلك العالم هو صور أعمالنا.

أيها العزيز على الرغم من أن هذا العالم ليس بدار الجزاء والمكافأة، وليس بمحل لظهور سلطة الحق المتعالي، وإنما هو سجن المؤمن^(٤)، فلو تحررت من أسر النفس، وأصبحت عبداً للحق المتعالي، وجعلت القلب موحداً، وأجلت مرآة روحك من غبار النفاق والاثنيّة، وأرسلت قلبك إلى النقطة المركزية للكمال المطلق، لشاهدت بعينك آثار ذلك في هذا العالم، ولتوسع قلبك بقدر يغدو محلاً لظهور السلطنة التامة الإلهية، إذ تصير مساحته أوسع من جميع العوالم: «لَا

(١) علل الشرائع، المجلد الأول، باب ١٦٥، العلة التي من أجلها سمي علي بن الحسين زين العابدين.

(٢) الكهف: ٤٩

(٣) البقرة: ٢٨٦

(٤) إشارة لحديث أبي عبد الله عليه السلام: «الدنيا سجن المؤمن». أصول الكافي، ج ٢، ص ٢٥٠، كتاب

الإيمان والكفر، (الغروي).

يَسْعُنِي أَرْضِي، وَلَا سَمَائِي، وَلَكِنْ يَسْعُنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ»^(١)، ولشعرت غنى واضحة في النفس، إذ لم تعبأ بكل العوالم الغيبية والمادية، ولأصبحت إرادتك قوية، إذ لم تفكر في عالمي: الملك، والملكوت، ولم تجد لهما اللياقة لاحتضانك. بيت شعر: هل رأيت تخليق الطير؟ انسلخ من أغلال الشهوة حتى ترى تخليق الإنسان!^(٢)

معنى الصبر ومنزلته

عُرِفَ الصبر بأنه: كَفَّ النفس عن الجزع عند حلول مكروه^(٣)، وأنه: امتناع النفس عن الشكوى على الجزع المستور^(٤).

وقد ورد في الأحاديث الشريفة ثناءً بليغاً على الصبر، منها ما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «الصَّبْرُ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ؛ فَإِذَا ذَهَبَ الرَّأْسُ، ذَهَبَ الْجَسَدُ؛ وَكَذَلِكَ إِذَا ذَهَبَ الصَّبْرُ، ذَهَبَ الْإِيمَانُ»^(٥).

والصبر مقام دون مقام الرضا بالقضاء، والابتهاج بإقبال المصائب، وكلاهما من مقامات المتوسطين؛ لأن النفس ما دامت تكره المصائب والبلّيات، وتجزع منها، فإنّ مقام معرفتها ناقصاً؛ فإنّ الصبر على الطاعة، من جراء نقص المعرفة بأسرار العبادة، وكذلك الصبر عن المعاصي. إنّ الإنسان إذا أدرك حقيقة العبادة والمعصية، وآمن بالصور البرزخية لكل منها، لم يكن للصبر عليهما موضع، بل

(١) عوالي اللآلي، المجلد الرابع، ص ٧

(٢) بيت شعر باللغة الفارسية للشاعر الإيراني «سعدي». (الغروي)

(٣) أوصاف الأشراف، ص ١٠٨ الفصل ٥ الباب ٣

(٤) منازل السائرين، ص ٣٨ باب الصبر.

(٥) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الصبر، ح ٢

الأمر يغدو معكوساً، وتصبح بليته في ترك العبادة، وفي فعل المعصية. أمّا ما ورد في أئمة الهدى، أو الأنبياء العظام من نعتهم بالصبر، فمن المحتمل أنه من الصبر على الآلام الجسدية التي تسبب الانفعال والتأثر - بحسب طبيعة الإنسان - أو من الصبر على فراق الأحبة، وهو حينئذٍ من المقامات الكبيرة للمحبين، فيصحّ الحديث عنه في تراجم حياتهم. وأمّا الصبر على الطاعات، أو المعاصي، أو النوائب، عدا الآلام الجسمية، فلا معنى له في حقّهم، ولا في حق شيعتهم.

ويبدو من تراجم حياة الأنبياء العظام، والأئمة المعصومين عليهم السلام على الرغم من أن مقاماتهم كانت أرفع من مقام الصبر، ومقام الرضا، والتسليم، أنهم لم يمتنعوا من الدعاء، والتضرّع، والعجز أمام المعبود؛ وكانوا يسألون حاجاتهم من الحق سبحانه. وهذا لا يغيّر المقامات الروحية، بل إن تذكر الحق جل وعلا، والخلوة، ومناجاة المحبوب، وإظهار العبودية، والذل، أمام عظمة الكامل المطلق، غاية آمال العارفين، وثمره سلوك السالكين.

في نتائج الصبر

أولاً: ترويض النفس وتربيتها، فإذا صبر الإنسان عن المعصية، وعلى الطاعة، امتثالاً لأوامر وليّ النعم، تروّضت نفسه شيئاً فشيئاً، واعتادت، وتخلّصت عن طغيانها، وحصلت لها ملكة راسخة نورية، بها يتجاوز الإنسان مقام الصبر، ليلبغ المقامات الأخرى الشاخرة؛ فالصبر عن المعصية يبعث على تقوية النفس، والصبر على الطاعة يسبب الاستيناس بالحق عز وجل، والصبر على البلايا يوجب الرضا بالقضاء الإلهي، وكل ذلك من المقامات الشاخرة لأهل الإيمان، بل

لأهل العرفان.

أَمَّا الْفَرْعُ، وَالْجَزْعُ، فَهَمَّا عَيْبٌ كَاشَفٌ عَنْ ضَعْفِ النَّفْسِ، وَيَجْعَلُ الْإِنْسَانَ مُضْطَرَبًا، وَالْإِرَادَةَ ضَعِيفَةً، وَالْعَقْلَ مُوْهُونًا، وَكُلُّهَا مَصَائِبٌ عَظِيمَةٌ.

ثَانِيًا: بِالصَّبْرِ تَخَفُّ الرِّزْيَةُ، وَيَتَغَلَّبُ الْقَلْبُ عَلَى النَّوَائِبِ، وَالْبَلَايَا، وَتَنْتَصِرُ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ عَلَى الْمَصَائِبِ، وَلَا يَصِيرُ الْإِنْسَانُ مِنْ أَهْلِ الشَّكَايَةِ لِلنَّاسِ، فَيَفْتَضِحُ بِالضَّعْفِ، وَعَدَمِ الْجَلَادَةِ، وَيَسْقُطُ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ، وَيُحِطُّ مِنْ كِرَامَتِهِ لَدَى مَلَائِكَةِ اللَّهِ، وَأَمَامَ جَلَالِ الْقُدُسِ الرَّبُّوبِيِّ؛ فَمَنْ لَا صَبْرَ لَهُ، لَا إِيمَانَ لَهُ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مُؤْمِنًا بِالْحَضْرَةِ الرَّبُّوبِيَّةِ، وَيَرَى مَجَارِيَ الْأُمُورِ بِيَدِ قُدْرَتِهِ الْكَامِلَةِ، لَمَا اشْتَكَى مِنْ حَوَادِثِ الْأَيَّامِ، وَالْبَلِيَّاتِ، لَغَيْرِ الْحَقِّ تَعَالَى، بَلْ لَاسْتَقْبَلَهَا بِكُلِّ حِفَاوَةٍ، وَتَكْرِيمٍ، وَشَكَرَ نِعَمَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ.

إِنَّ الْأَضْطِرَابَاتِ النَّفْسِيَّةِ، وَالشَّكَوَى اللَّسَانِيَّةِ، وَالْحَرَكَاتِ غَيْرِ اللَّائِقَةِ، تَشْهَدُ بِأَنَّا لَسْنَا مِنْ ذَوِي الْإِيمَانِ؛ فَمَا دَامَتِ النِّعْمَةُ مُوفُورَةً، شَكَرْنَا رَبَّنَا شُكْرًا ظَاهِرِيًّا لَا لَبَّ لَهُ، بَلْ طَمَعًا بِالزِّيَادَةِ؛ فَإِذَا وَاجَهْنَا مَصِيبَةً وَاحِدَةً، اشْتَكَيْنَا مِنَ الْحَقِّ الْمُتَعَالِيِّ لَدَى جَمِيعِ النَّاسِ، حَتَّى تَتَحَوَّلَ الشَّكَوَى، وَالْجَزْعُ، وَالْفَرْعُ، فِي النَّفْسِ، إِلَى بَذُورِ الْبَغْضِ تَجَاهِ الْحَقِّ، وَالْقَضَاءِ الْإِلَهِيِّ، ثُمَّ يَنْمُو شَيْئًا فَشَيْئًا، وَيَشْتَدُّ، حَتَّى يَتَحَوَّلَ إِلَى مُلْكَةٍ، بَلْ قَدْ تَتَحَوَّلُ الصُّورَةُ الدَّاخِلِيَّةُ لِلذَّاتِ إِلَى صُورَةِ الْبَغْضِ لِقَضَاءِ الْحَقِّ، وَالْعَدَاءِ لِلذَّاتِ الْمُقَدَّسِ؛ وَقَدْ نَتَّقِلُ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ وَنَحْنُ قِطْعَةٌ مِنَ الْبَغْضِ، وَالْعَدَاءِ، لِمَالِكِ النِّعَمِ، فَنُبْتَلَى بِالشَّقَاءِ الْأَبَدِيِّ، وَالظَّلَامِ الدَّائِمِ.

فَابْذُلِ الْجُهْدَ وَاجْعَلِ الصَّبْرَ، وَالثَّبَاتَ مِنْ طَبِيعَتِكَ أَمَامَ حَوَادِثِ الْأَيَّامِ، وَلَقِّنِ النَّفْسَ بِأَنَّ الْجَزْعَ، وَالْفَرْعَ، عَيْبَانِ فَادِحَانِ، وَلَا جَدْوَى مِنْ وَرَائِهِمَا لِمُوَاجَهَةِ الْمَصَائِبِ وَالْبَلِيَّاتِ، وَلَا فَائِدَةَ مِنَ الشَّكَوَى عَلَى الْقَضَاءِ الْإِلَهِيِّ أَمَامَ الْمَخْلُوقِ

الضعيف الذي لا حول له ولا قوة، فعَنْ سَمَاعَةَ بْنِ مِهْرَانَ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عليه السلام قَالَ: «قَالَ لِي: مَا حَبَسَكَ عَنِ الْحَجِّ؟ قَالَ: قُلْتُ: جَعَلْتُ فِدَاكَ، وَقَعَ عَلَيَّ دَيْنٌ كَثِيرٌ، وَذَهَبَ مَالِي، وَدَيْنِي الَّذِي قَدْ لَزَمَنِي هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَهَابِ مَالِي، فَلَوْلَا أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِنَا أَخْرَجَنِي مَا قَدَرْتُ أَنْ أَخْرُجَ، فَقَالَ لِي: إِنْ تَصَبَّرْتَ تُغْتَبَطَ، وَإِلَّا تَصَبَّرَ يُنْفِذِ اللَّهُ مَقَادِيرَهُ، رَاضِيًا كُنْتَ أَمْ كَارِهًا»^(١)

واعلم بأن الصبر، والجلادة، لهما الثواب الجزيل، والأجر الجميل، والصورة البهيّة البرزخية الشريفة، وهذا ما ورد في ذيل الحديث الشريف الذي نحن بصدد شرحه، إذ يقول: «وَكَذَلِكَ الصَّبْرُ يُعَقِّبُ خَيْرًا؛ فَاصْبِرُوا، وَوَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الصَّبْرِ، تُوَجَّرُوا».

وعن الصورة البهيّة للصبر ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ، كَانَتْ الصَّلَاةُ عَنْ يَمِينِهِ، وَالزَّكَاةُ عَنْ يَسَارِهِ، وَالْبِرُّ مُطْلَعٌ عَلَيْهِ؛ وَتَتَنَحَّى الصَّبْرُ نَاحِيَةً؛ فَإِذَا دَخَلَ عَلَيْهِ الْمَلَكَانِ اللَّذَانِ يَلْيَانِ مُسَاءَلَتَهُ قَالَ الصَّبْرُ لِلصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالْبِرِّ: دُونَكُمْ صَاحِبِكُمْ، فَإِنْ عَجَزْتُمْ مِنْهُ فَأَنَا دُونُهُ»^(٢).

في درجات صبر المتوسطين

للصبر درجات، أعلاها الصبر عن المعصية، فقد جاء عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «الصَّبْرُ ثَلَاثَةٌ: صَبْرٌ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ، وَصَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ، وَصَبْرٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ. فَمَنْ صَبَرَ عَلَى الْمُصِيبَةِ حَتَّى يَرُدَّهَا بِحُسْنِ عَزَائِهَا، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ سِتِّينَ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَةِ إِلَى الدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَمَنْ صَبَرَ عَلَى الطَّاعَةِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الصبر، ح ١٠

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الصبر، ح ٨

سِتِّمِائَةِ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ الدَّرَجَةِ إِلَى الدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ تُخُومِ الْأَرْضِ إِلَى الْعَرْشِ؛ وَمَنْ صَبَرَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ تِسْعِمِائَةَ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَةِ إِلَى الدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ تُخُومِ الْأَرْضِ إِلَى مُنْتَهَى الْعَرْشِ^(١). فقد جعل الحديث الشريف لها الدرجات الأكثر، والجنة المقصودة هي جنة الأخلاق، التي مقياسها قوة الإرادة، وكما لها؛ وهي غير محدودة بحدٍّ؛ هذه الجنة أعظم من جنة الأعمال التي عرضها السموات والأرض.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُنَالُ فِيهِ الْمُلْكُ إِلَّا بِالْقَتْلِ وَالتَّجَرُّ، وَلَا الْغِنَى إِلَّا بِالْغَضَبِ وَالْبُخْلِ، وَلَا الْمَحَبَّةُ إِلَّا بِاسْتِخْرَاجِ الدِّينِ وَاتِّبَاعِ الْهَوَى، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ الزَّمَانَ فَصَبَرَ عَلَى الْفَقْرِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْغِنَى؛ وَصَبَرَ عَلَى الْبُغْضَةِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْمَحَبَّةِ؛ وَصَبَرَ عَلَى الدُّلِّ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْعِزِّ؛ آتَاهُ اللَّهُ ثَوَابَ خَمْسِينَ صَدِيقًا مِمَّنْ صَدَّقَ بِي»^(٢).

في بيان درجات صبر أهل المعرفة

لصبر أهل السلوك، والعرفاء، والكُمَّلِين، والأولياء، درجات، منها:
المرتبة الأولى: الصَّبْرُ فِي اللَّهِ، وهو الثبات في المجاهدة، وترك ما تعارف عليه الناس، وألفوه، بل ترك نفسه في سبيل الحبيب؛ وهذا مقام أهل السلوك.
المرتبة الثانية: الصَّبْرُ مَعَ اللَّهِ، وهو لأهل الحضور، ومشاهدي الجمال، حين الخروج من جلباب الإنسانية، والتجرد عن ملابس الأفعال، والصفات، ولدى تجلي القلب بتجليات الأسماء، والصفات، وتوارد واردات الأنس، والهيبة،

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الصبر، ح ١٥

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الصبر، ح ١٢

وحفظ النفس من التلَوّنات، والغياب عن مقام الأنس، والشهود.

المرتبة الثالثة: الصَّبْرُ عَنِ اللَّهِ، وهو من درجات العشاق، والمشتاقين من أهل الشهود والعيان، عندما يعودون إلى عالمهم، ويرجعون إلى عالم الكثرات والصحو.

وهذا من أصعب مراتب الصبر، وأقصى المقامات. وقد أشار إلى هذه المرتبة مولى السالكين، وإمام الكَمَلين، أمير المؤمنين عليه السلام في دعائه: «فَهَبْنِي يَا إِلَهِي، وَسَيِّدِي، وَمَوْلَايَ، صَبْرْتُ عَلَى عَذَابِكَ؛ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلَى فِرَاقِكَ؟».

المرتبة الرابعة: الصَّبْرُ بِاللَّهِ، وهو لأهل التمكين، والاستقامة، إذ يحصل بعد الصحو والبقاء بالله، وبعد التخلّق بأخلاق الله، ولا نصيب فيه إلّا للكَمَلين. والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.



الْحَدِيثُ السَّابِعُ عَشْرُ

التَّوْبَةُ

عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ وَهَبٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ:

«إِذَا تَابَ الْعَبْدُ تَوْبَةً نَصُوحًا أَحَبَّهُ اللَّهُ فَسُتَرَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَقُلْتُ: وَكَيْفَ يَسْتُرُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: يُنْسِي مَلَكَهُ مَا كَتَبَا عَلَيْهِ مِنْ

الدُّنُوبِ، ثُمَّ يُوحِي إِلَى جَوَارِحِهِ: اكْتُمِي عَلَيْهِ ذُنُوبَهُ؛ وَيُوحِي إِلَى بَقَاعِ

الْأَرْضِ: اكْتُمِي عَلَيْهِ مَا كَانَ يَعْمَلُ عَلَيْكَ مِنَ الدُّنُوبِ؛ فَيَلْقَى اللَّهُ

حِينَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ شَيْءٌ يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنُوبِ»^(١).

حقيقة التوبة

النفس في بدء فطرتها صفحة نقية من كل رسم ونقش، خالية من الكمالات الروحية، وأضدادها، ولكن فيها نور الاستعداد للمقامات: الرفيعة، والوضيعة، وأنشأت فطرتها على الاستقامة، وعجنت طينتها بالأنوار الذاتية.

عندما تجرح النفس سيئة، تحصل في القلب ظلمة وسواد، يزداد بازدياد المعاصي، فإذا انتبه الإنسان قبل أن يستوعب الظلام القلب كله، ثم اجتاز منزل اليقظة، ودخل منزل التوبة، واستوفى حظوظ هذا المنزل زالت الحالات الظلمانية، وعاد إلى الحالة الفطرية النورية الأصيلية، والروحانية الذاتية، وقد ورد في الحديث الشريف: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»^(٢).

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب التوبة، ح ١.

(٢) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب التوبة، ج ١٠.

وبهذا تبين أن حقيقة التوبة هي الرجوع من عالم الطبيعة، وآثارها، ومضاعفاتها، إلى عالم الروحانية والفترة، بعد أن حُجبت بغشاوات ظلمانية من جراء الذنوب.

نقطتان مهمتان

النقطة الأولى: أفضل أيام التوبة، وربيعها هي مرحلة الشباب؛ لأن الذنوب أقل، وشوائب القلب وظلمات الباطل أخف، وشروط التوبة أسهل وأيسر. فلا تسوّف في التوبة، لما يأتي:

أولاً: لا ضمان لبلوغك مرحلة الشيخوخة، ففي المدينة التي يبلغ تعدادها خمسين ألف نسمة لم نجد خمسين شيخاً يناهز أحدهم ثمانين عاماً! **ثانياً:** الرجوع إلى الله، والعزم على عدم العودة إلى الذنب، به حاجة إلى رياضة علمية وعملية، ونادراً ما يحدث للإنسان أن يفكر لوحده بالتوبة، أو يُوفّق إليها، فإذا قويت شجرة المعاصي في مزرعة قلب الإنسان، وتحكّمت جذورها، صرفت الإنسان كلياً عن التفكير في التوبة، وإذا تذكرها أحياناً تكاسل في إجرائها.

النقطة الثانية: لا يستعيد الشخص التائب الصفاء الداخلي الروحاني، والنور الخالص الفكري السابق، كما أنك لو سوّدت صفحة بيضاء ثم حاولت أن تعالج السواد وتزيله عنها لم تعد الصفحة إلى حالتها الأولى من البياض الناصع. أيها العزيز! فكّر في حالك وعاقبة أمرك، وراجع كتاب الله، وأحاديث خاتم الأنبياء، وأئمة الهدى عليهم السلام وكلمات علماء الأمة، وأحكام العقل الوجدانية. افتح على نفسك باب التوبة، الذي هو مفتاح الأبواب الأخرى، واستعن بروحانية الرسول الأكرم وأئمة الهدى عليهم السلام والتجئ إلى ولي الأمر، وناموس الدهر، إمام العصر عليه السلام.

ركنا التوبة وشرائطها

للتوبة ركنان أساسيان:

أحدهما: الندامة على الذنوب، وعلى التقصير في أداء التكاليف الشرعية.

والآخر: العزم على عدم العودة إلى الذنوب نهائياً.

هذان الركنان يحققان حقيقة التوبة، فهما من مقوماتها الذاتية.

وعندما يتوافر هذان الركنان، يتيسر أمر سالك طريق الآخرة، وتغمره التوفيقات

الإلهية؛ ليصبح بحسب قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^(١).

فيجب على الإنسان أن يفهم بأن المحبوبة عند الله لا تقدر في حساب؛ والله

يعلم بأن صورة حب الحق في تلك العوالم من أي نوع من الأنوار المعنوية

والتجليات الكاملة تكون؟...

ويجب على الإنسان أن يقوي في قلبه صورة الندامة، بأن يفكر في الآثار

الموحشة للمعاصي، وعواقبها، ويضرم نار الندامة في قلبه على غرار: ﴿نَارُ اللَّهِ

الْمُوقَدَةُ﴾ حتى تحترق جميع المعاصي، وتزول الكدورة عن القلب؛ وليعلم أنه إذا

لم يضرم بنفسه نار الندامة، فعندما ينتقل من هذا العالم سيجد ناراً عاتية، وتفتح

في وجهه أبواب جهنم، وتوصد في وجهه أبواب الجنة والرحمة.

شروط قبول التوبة

رَوِيَ فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ أَنَّ قَائِلًا قَالَ بِحَضْرَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، فَقَالَ لَهُ:

«تَكَلَّمْتُكَ أَمْ لَكَ أَتَدْرِي مَا الْاسْتِغْفَارُ؟ إِنَّ الْاسْتِغْفَارَ دَرَجَةُ الْعَالِيَيْنِ، وَهُوَ اسْمٌ وَقَعَ

عَلَى سِتَّةٍ مَعَانٍ: أَوَّلُهَا: النَّدَمُ عَلَى مَا مَضَى. وَالثَّانِي: الْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ الْعَوْدِ إِلَيْهِ أَبَدًا.

وَالثَّالِثُ: أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ حُقُوقَهُمْ حَتَّى تَلْقَى اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَمْلَسَ لَيْسَ عَلَيْكَ تَبِعَةٌ. وَالرَّابِعُ: أَنْ تَعْمِدَ إِلَى كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ ضَبَعَتَهَا فَتُؤَدِّيَ حَقَّهَا. وَالْخَامِسُ: أَنْ تَعْمِدَ إِلَى اللَّحْمِ الَّذِي نَبَتْ عَلَى السُّحْتِ فَتُذَيِّبَهُ بِالْأَحْزَانِ حَتَّى تُلْصِقَ الْجِلْدَ بِالْعَظْمِ وَيَنْشَأَ بَيْنَهُمَا لَحْمٌ جَدِيدٌ. وَالسَّادِسُ: أَنْ تُذَيِّقَ الْجِسْمَ أَلَمَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذَقْتَهُ حَلَاوَةَ الْمَعْصِيَةِ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَقُولُ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ^(١).

يشتمل هذا الحديث الشريف على ركني التوبة: الندامة، والعزم على عدم العودة إليه، وعلى شرطين مهمين للقبول، هما:

الأول: إرجاع حقوق المخلوق لأهله؛ فعلى التائب أن يردَّ كل ما أخذه من الناس من دون حق إلى أصحابه، وإذا وجد حقوقاً أخرى للناس في ذمته، واستطاع أن يؤديها إلى أصحابها، أو يطلب السماح منهم، فيجب أن لا يتوانى في ذلك؛ وإذا تعذر عليه إنجاز ذلك أدَّى المقدار الميسور منه. وليعلم أن لكل هذه الحقوق أصحاب سيطالبونه بها في النشأة الأخرى، بأشق الأحوال وليس له في ذلك العالم وسيلة لأداء هذه الحقوق، إلا أن يتحمَّلَ ذنوب الآخرين، ويدفع إليهم أعماله الحسنة، فيصير حينذاك عاجزاً، وشقيّاً، ولا يملك طريقاً للخلاص، وملجأً للاستخلاص.

الثاني: ردَّ حقوق الخالق لله سبحانه، فيقضي كل الفرائض الإلهية أو يؤديها. أيها العزيز! إياك أن تسمح للشيطان والنفس الأمارة بالهيمنة عليك، والوسوسة في قلبك، فيصوران لك العملية جسيمة، وشاقة، ويصرفانك عن التوبة. إياك أن تياس من رحمة الله ولطفه، وإن كانت عليك صلاة كثيرة وصيام غير قليل، وكفارات عديدة، وحقوق إلهية كثيرة، وذنوب متراكمة، وحقوق الناس لا

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ٤١٧، (الدكتور صبحي الصالح).

تعدّ، والخطايا لا تحصى؛ لأن الحق المتعالي يسهّل عليك الطريق عندما تقوم بخطوات بحسب قدرتك في اتجاهه، ويهديك سبيل النجاة. واعلم بأنّ اليأس من رحمة الحق من أعظم الذنوب، ولا أظن أن هناك ذنباً أسوأ وأشدّ تأثيراً في النفس من القنوط من رحمة الله. فإنّ الظلام الدامس إذا غشي قلب الإنسان اليأس من الرحمة الإلهية، لا يمكن إصلاحه، ولتحوّل إلى طاغية، لا سبيل للهيمنة عليه.

لقد كُنْتَ في غياهب العدم، ولكن الحق جلّ وعلا، قد وهبك نعمة الوجود وكمالاته، وسخر لك الموجودات، واليوم لا يكون وضعك أسوأ من اليوم الذي كنت فيه عدماً صرفاً. إن الله قد وعد بالرحمة والمغفرة. تقدّم إلى الأمام خطوة واحدة، باتجاه عتبة قدسه؛ فإنه سيأخذ بيدك مهما كلف الأمر، فإن لم تستطع أن تؤدّي حقوقه، سيتنازل عنها، وإن لم تستطع دفع حقوق الناس، فإنه سيجبرها. إن طريق الحق سهل، ولكنه يحتاج إلى انتباه يسير، فيجب عليك العمل، والعزم على إصلاح النفس.

أمّا شرطاً كمال التوبة فقد ذكرهما الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: بقوله: «وَالْحَامِسُ: أَنْ تَعْمِدَ إِلَى اللَّحْمِ الَّذِي نَبَتَ عَلَى الشَّحْتِ فَتُذِيْبُهُ بِالْأَحْزَانِ حَتَّى تُلْصِقَ الْجِلْدَ بِالْعَظْمِ وَيَنْشَأَ بَيْنَهُمَا لَحْمٌ جَدِيدٌ. وَالسَّادِسُ: أَنْ تُذِيْقَ الْجِسْمَ أَلَمَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذَقْتَهُ حَلَاوَةَ الْمَعْصِيَةِ»

فلا بد من تدارك اللذائذ النفسانية التي لحقت به أيام الآثام والمعاصي، وذلك بالسعي لمحو كل الآثار الجسمية، والروحية، التي حصلت في مملكة جسمه ونفسه من جرائمها، حتى تعود النفس مصقولة كما كانت في بدء الأمر، وتعود الفطرة إلى روحانيتها الأصلية، وتحصل له الطهارة الكاملة.

فعن طريق ممارسة الرياضة الجسمية؛ الإمساك عن أكل المقويات، والمنشطات،

والصيام، يذيب اللحوم التي نشأت على جسمه من الحرام والمعصية أيام الخطايا والآثام.

ومن طريق الرياضة الروحية من العبادات والمناسك يتدارك اللذائذ الطبيعية؛ لأن صورة المتع الطبيعية لا تزال ماثلة في ذائقة النفس، وما دامت عالقة بها فإن النفس ترغب إليها، ويعشقها القلب، ويُحشى من لحظة طغيان النفس، وتمردّها على صاحبها. فلا بد على السالك لسبيل الآخرة، والتائب عن المعاصي، أن يُذيق الروح ألم الرياضة الروحية، ومشقة العبادة. فإذا سهر ليلة في المعصية، تداركها بليلة من العبادة. وإذا عاش يوماً واحداً مع اللذائذ الطبيعية، تداركه بالصوم، والمستحبات المناسبة حتى تظهر النفس من آثار المعاصي، التي هي تعلق حب الدنيا بالنفس، ورسوخه فيها.

وإذا انتبهنا إلى جلال الهدف وعظمته، تذللّت جميع الصعاب من أجله، وأي شيء أعظم من النجاة الأبدية، والروح، والريحان الدائمين؟ وأي بلاء أعظم من الهلاك الدائم، والشقاء السرمدي؟ ومع ترك التوبة، والتسويق، والتأجيل، قد يبلغ الإنسان إلى الشقاء الأبدي، والعذاب الخالد، والهلاك الدائم. وعند الورود على مقام التوبة قد يتحوّل الإنسان إلى سعيد مطلق، ومحبوب للحق سبحانه. فإذا كان الهدف جليلاً على هذا المستوى، فلا بأس من المعاناة والآلام لأيام يسيرة.

وإذا لم تستطع أن تحقق التوبة الكاملة، فلا تعدل عن التوبة، ولا تعرض عنها، وحاول أن تحققها بالمستوى المستطاع، والممكن.

في نتيجة الاستغفار

إن مقام الغفارية، والستارية، للذات المقدس، يستدعي ستر العيوب، وغفران تبعات الذنوب؛ لأن الصور المملوكة للأعمال بمنزلة وليد الإنسان، بل ألصق من ذلك. وإن حقيقة التوبة، وكلمات الاستغفار، بمنزلة اللعان، ونفي الولد؛ وأن لكل واحد من الموجودات علم، وحياة، ومعرفة لمقام الحق المقدس جل وعلا، والوحي إلى الأعضاء والجوارح وبقاع الأرض بالكتمان وإطاعتها للأمر الإلهي، وتسبيح الموجودات بأسرها لله تعالى، دليل على علم وشعور، وحياة للموجودات، بل دليل على الارتباط الخاص بين الخالق والمخلوق، لا يطلع عليه أحد إلا ذاته المقدس (جل وعلا) ومن ارتضى من عباده.

وفي الحديث الشريف الذي نشره: «يُنْسِي مَلَكِيَهُ مَا كَتَبَا عَلَيْهِ مِنَ الذُّنُوبِ»، وهذا يحتل الآتي:

أولاً: وحيه تعالى للأعضاء، والجوارح، وبقاع الأرض، بكتمان معاصي التائب.

ثانياً: الأمر بعدم الإدلاء بالشهادة.

ثالثاً: رفع الآثار التي تركتها المعاصي على الأعضاء، والتي بها تتم الشهادة التكوينية.

ولو لم يتب لأمكن أن يشهد كل عضو بلسان مقاله أو حاله على أفعاله الأثيمة. وكما أن مقام الغفارية والستارية اقتضى الآن، ونحن في هذا العالم أن لا تشهد أعضاؤنا، وجوارحنا ضدنا، وأن يستر الزمان والمكان أفعالنا المشينة، كذلك يقتضي ستر أعمالنا في العوالم الأخرى عندما نتوب توبة صحيحة، ونستغفر استغفاراً خالصاً، ونرحل من هذا العالم، أو أن الناس يحجبون عن أعمالنا.

ولعل مقتضى كرامة الحق (جل جلاله) هو الثاني، حتى لا يكون الإنسان التائب مطأطأ رأسه، ومفضوحاً أمام الآخرين، والله العالم.

التوبة النصوح

تعددت أقوال المفسرين في تفسير التوبة النصوح على النحو الآتي^(١):

الأول: أنها توبة تنصح الناس، أي تدعوهم إلى أن يأتوا بمثلها لظهور آثارها الجميلة في صاحبها، أو ينصح صاحبها فيقلع عن الذنوب ثم لا يعود إليها أبداً.

الثاني: النصوح ما كانت خالصة لوجه الله سبحانه، من قولهم: غسل نصوح، إذا كان خالصاً من الشمع، بأن يندم على الذنوب لقبحها، وكونها خلاف رضا الله تعالى لا لخوف النار مثلاً.

الثالث: النصوح من النصيحة، وهي الخياطة؛ لأنها تنصح من الدين ما مزّقه الذنوب، أو يجمع بين التائب وبين أوليائه وأحبائه، كما تجمع الخياطة بين قطع الثوب.

الرابع: النصوح وصف للتائب، وإسناده إلى التوبة، من قبيل الإسناد المجازي، أي: توبة تنصحون بها أنفسكم بأن تأتوا بها على أكمل ما ينبغي أن تكون عليه، حتى تكون قالعة لآثار الذنوب من القلوب بالكلية.

(١) بحسب ما نُقل عن الشيخ البهائي في: الأربعين: ص ٣٣٢ (الفروي)



الْجَدِيدُ الثَّامِنُ عَشَرَ

الذِّكْرُ

عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ:

«مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ الَّتِي لَمْ تُغَيَّرْ: أَنَّ مُوسَى عليه السلام سَأَلَ رَبَّهُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ أَقْرَبُ أَنْتَ مِنِّي فَأُنَاجِيكَ، أَمْ بَعِيدٌ فَأُنَادِيكَ؟ فَأَوْحَى اللَّهُ (عَزَّ، وَجَلَّ) إِلَيْهِ: يَا مُوسَى أَنَا جَلِيسٌ مِّنْ ذَكَرَنِي. فَقَالَ مُوسَى: فَمَنْ فِي سِرِّكَ، يَوْمَ لَا سِرَّ إِلَّا سِرُّكَ. فَقَالَ: الَّذِينَ يَذْكُرُونَنِي فَأَذْكُرُهُمْ، وَيَتَحَابُّونَ فِيَّ فَأُحِبُّهُمْ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أُصِيبَ أَهْلَ الْأَرْضِ بِسُوءٍ، ذَكَرْتُهُمْ، فَدَفَعْتُ عَنْهُمْ بِهِمْ»^(١).

ذكر الله

من المحتمل أن النبي موسى عليه السلام يعرض عجزه عن كيفية دعائه الله تعالى، فيقول: إلهي أنت منزّه من الاتصاف بالقرب والبعد حتى أدعوك دعاء من يكون دانيًا أو قاصيًا، فأنا متردّد في أمري، ولا أجد دعاءً يليق بعظمتك وجلالك، فعلمني كيفية ندائك، واهدني إلى ما يناسب مقام قدسك؛ فأتي الجواب من مصدر الجلال والعزّة: بأنني حاضر حضور القيومية في جميع النشآت، وأن هذه العوالم بأسرها حاضرة لديّ. أنا جليس من يذكرني، ونديم من يتحدث معي.

(١) أصول الكافي، المجلد كتاب الثاني، الدعاء، باب ما يجب من ذكر الله في كل مجلس، ح٤.

ويستفاد من هذا الحديث، وأحاديث أخرى، رجحان ذكر الله الخفي، واستحباب الذكر السري والقلبي، قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾^(١). وقد يكون الإجهار في الذكر وإظهاره راجحًا في حالات ومقامات، مثل الذكر لدى أهل الغفلة لكي ينتبهوا؛ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: «الذَّاكِرُ لِلَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ) فِي الْغَافِلِينَ، كَالْمُقَاتِلِ فِي الْمُحَارِبِينَ»^(٢)؛ وَنُقِلَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ فِي السُّوقِ مُحْلِصًا عِنْدَ غَفْلَةِ النَّاسِ وَشُغْلِهِمْ بِمَا فِيهِ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ الْفَ حَسَنَةً، وَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْفِرَةً لَمْ تَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»^(٣).

وكذلك يستحب الإجهار بالذكر في أذان الإعلام، والخطبة، وغيرها.

خصائص ذكر الله تعالى

ذكر العبد لله، يبعث على ذكر الله لعبده، ويقابل هذا الذكر النسيان، وقد قال سبحانه وتعالى عن الناسي في القرآن الكريم: ﴿كَذَلِكَ أَنْتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمُ نُنْسِيْكَ﴾^(٤).

إن تذكر آيات الله باعث على حدة في البصيرة، وإزاحة للحجب، بقدر قوة التذكر ونورانيته، وصيرورة هذا التذكر ملكة راسخة في الإنسان يجعل لبصيرته قوة، فيرى من خلال الآيات جمال الحق.

وإن تذكر الأسماء والصفات يبعث على مشاهدة الحق في تجليات أسمائه وصفاته. وإن تذكر الذات (عز شأنه) من دون حجاب الآيات والأسماء والصفات، يوجب رفع

(١) الأعراف: ٢٠٥

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الدعاء، باب ذكر الله عز وجل في الغافلين، ح ١

(٣) عدة الداعي: ٢٤٢

(٤) طه: ١٢٦

الحجب بأسرها، ومشاهدة الحبيب من دون غشاء وحجاب.

هذا التفسير أحد تفسيرات الفتوحات الثلاثة، التي هي قرة عين العرفاء والأولياء، وهي: الفتح القريب، والفتح المين، والفتح المطلق، الذي هو فتح الفتوح.

وكما أن التذكريات الثلاثة (الآيات، والأسماء والصفات، والذات) تزيل الحجب الثلاثة، كذلك التحابب بين الناس في الله سبب لمحبة الله، ونتيجته رفع الحجب بحسب ما يقوله العرفاء الشاؤون.

ومن الواضح أن للتحابب بين الناس مراتب ودرجات، كما أن للحب في الله من جهة الخلو والخلو من الشوائب مراتب كثيرة، ودرجات عديدة أيضاً، والحب الخالص التام هو الحب المحض الفارغ من شوب كثرات الأسماء والصفات، وهو الموجب لحصول الحب التام. والمحبوب المطلق في شريعة العشاق لا يكون محبوباً عن الوصال، ولا يبقى بينه وبين محبوبه حجاباً.

وبهذا البيان نستطيع أن نوفق بين سؤالي النبي موسى عليه السلام؛ لأنه عليه السلام عندما سمع من حضرته تعالى بأنه (عز وجل) جليس من ذكره، وسمع من محبوبه، أمنيته من الوعد بالوصال والوصول إلى الجمال، أراد أن يستقصي أهل الوصال حتى ينهض بالمسؤولية مع جميع الشؤون المتوجبة عليه، فقال: «فَمَنْ فِي سِرِّكَ يَوْمَ لَا سِرَّ إِلَّا سِرُّكَ؟ وَمَنْ يَكُونُ فِي سِرِّكَ، بَعْدَ أَنْ تَخْلَصَ مِنَ التَّعَلُّقِ بِغَيْرِكَ، وَحَطَّ قُبُودَ الْحُجْبِ، وَوَصَلَ إِلَى جَمَالِكَ الْجَمِيلِ؟» فقال هم طائفتان: الذين يذكرونني ابتداءً، والذين يتحابون لأجلي، إذ يكون تذكراً في مظهر جمالي التام، الذي هو الإنسان. إن الطائفتين في مأمني وجلسائي، وأنا جليسيهم.

فتبين أن هذين الطائفتين خصلة واحدة عظيمة، ولها نتاج عظيم آخر، إذ

إنهم يذكرون الله فينقلبوا - بذكرهم له - محبوبين للحق المتعالي، ونتيجته أنهم يستقرّون في ستره (سبحانه)، وملجئه، يوم لا ستر فيه، ويختلي بهم الحق (عز وجل) في المحلّ الأرفع، ويرفع لكرامتهم العذاب عن عباده.

في الفرق بين مقامي: التفكّر، والتذكّر

التذكّر من نتائج التفكّر، ولهذا يقدّم مقام الثاني على الأول، فالتفكّر طلب للمحبوب، والتذكّر حصول للمطلوب، وما دام الإنسان يطلب ويبحث، فهو محبوب عن مطلوبه، وعندما يصل إلى محبوبه يتحرّر من عناء البحث والتفتيش. وفي الأحاديث الشريفة أن تفكّر ساعة أفضل من عبادة سنة، أو ستين، أو سبعين. فلعلّ تفكّر ساعة واحدة يفتح أبواباً من المعارف على السالك، لا تفتحها عبادة سبعين سنة، أو يحصل فيه من التذكّر ما لا يحصل من المساعي المجتهدة لسنين عديدة.

واعلم أيها العزيز أن تذكر الحبيب والتفكّر فيه دائماً، يشمر نتائج كثيرة لكل الطبقات؛ أمّا الكُملون، والأولياء، والعرفاء، فإن تذكر الحبيب في نفسه غاية آمالهم وفي ظلّه يبلغون جمال حبيبهم؛ وأمّا عموم الناس، والمتوسطون منهم، فهو أفضل مصلح للأخلاق والسلوك، وللظاهر والباطن.

إن تذكر الحق (جلّ شأنه) يبعث على صفاء النفس وصقلها، ويجعلها مظهرًا للمحبوب، ويوجب صفاء الروح ونقاها، ويحرّر الإنسان من أغلال الأسر، ويُخرج حب الدنيا الذي هو رأس الخطايا، ومصدر السيئات من القلب، ويجعل الهموم همّاً واحداً، والقلب نظيفاً وطاهراً، لورود صاحبه الحق جلّ وعلا؛ فإذا كنت طالباً للكمالات الصورية، والمعنوية وسالكاً لطريق الآخرة، ومهاجراً، ومسافراً إلى الله، اجعل قلبك معتاداً على تذكر المحبوب، واعجن قلبك مع ذكره.

مراتب الذكر بحسب آثاره

أولاً: الذكر اللساني فقط، وهو أدنى مراتب الذكر النافع، وهو مجدٍ، ونافع،
لأمرين:

أحدهما: قام اللسان بوظيفته بالذكر، وإن كان هذا الذكر قالباً لا روح له.
والآخر: يمكن أن يصير هذا الذكر سبباً لتفتح لسان القلب بعد مدة من المواظبة
عليه بشروطه، فيقود الإنسان في نهاية المطاف إلى الحقيقة، ومن هذا المنطلق ورد
في الأحاديث الشريفة مدح عظيم للذكر اللساني. إن تذكر الحق في كل مرتبة
محبوب ومطلوب.

ثانياً: الذكر القلبي، وهو أدنى مراتب الذكر الذي تترتب عليه ما ذكره من
فوائد.

ثالثاً: الذكر القلبي الذي يعقبه ذكر لساني، وهو أفضل من سابقه.

رابعاً: الذكر الساري في كل نشآت مراتب الإنسانية، الجاري على ظاهر
الإنسان وباطنه، سرّه وعلنه، وهو أكمل مراتب الذكر كافة، وفيه تنفتح أقاليم
الإنسان السبعة الظاهرية، والممالك الباطنية، على ذكر الحق، ومعه لا تفعل
القوى الظاهرية والباطنية في الإنسان ما يخالف الوظائف الشرعية. فتكون
حركاتها وسكناتها مبدوءة ومختومة بذكر الحق، وتنفذ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا
وَمُرْسِنَهَا﴾^(١) في جميع أطراف المملكة؛ ويتحوّل الإنسان إلى حقيقة الأسماء
والصفات، بل إلى صورة اسم الله الأعظم ومظهره. وهذه هي الغاية القصوى
لكمال الإنسان، ومنتهى رجاء أهل الله.

وإذا حصل انخفاض عن هذا المستوى الرفيع، انتقص بالنسبة نفسها كمال الإنسان، وأثر نقصان كل من الظاهر والباطن في الآخر؛ لأن نشأت وجود الإنسان مترابطة، ومتأثرة بعضها ببعض.

وإذا لم يفتح لسان القلب، وجب على الذاكر أن يعلم قلبه الذكر بتكراره، فإذا انفتح لسان القلب تبعه لسان الفم، فيزول تعب التكرار وعناؤه. في البدء كان اللسان ذاكرًا، والقلب تابعًا، وبعد انفتاح لسان القلب، يصير لسان الفم تابعًا، يستمد الذكر من القلب، أو من الغيب.

أحاديث في فضل ذكر الله

الأول: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَا مِنْ مَجْلِسٍ يَجْتَمِعُ فِيهِ أَهْلٌ وَفَجَارٌ، فَيَقُومُونَ عَلَى غَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ) إِلَّا كَانَ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

حسرة الإنسان على ما فاتته من النتائج العظيمة لذكر الله، ولا يستطيع تداركها.
الثاني: عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكْتَالَ بِالْمَكْيَالِ فَلْيَقُلْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

الثالث: قَالَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَيْلُهُ تَامًا مِنَ الثَّوَابِ، فَلْيَتْلُ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُبَارَكَةِ: سُبْحَانَ رَبِّكَ إِلَى آخِرِهِ - فِي دَبْرِ كُلِّ صَلَاةٍ»^(٣).
الرابع: عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كَفَّارَاتُ الْمَجَالِسِ أَنْ تَقُولَ عِنْدَ قِيَامِكَ مِنْهَا:

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الدعاء، باب ما يجب ذكر الله في كل مجلس، ح ١.

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الدعاء، باب ما يجب ذكر الله في كل مجلس، ح ٣.

(٣) الأحاديث، كتاب الصلاة، ح ٣٤٨٧.

﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

الخامس: «قَالَ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا عِيسَى، أَذْكُرْنِي فِي نَفْسِكَ، أَذْكُرَكَ فِي نَفْسِي، وَأَذْكُرْنِي فِي مَلَكٍ، أَذْكُرَكَ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْ مَلَأِ الْآدَمِيِّينَ. يَا عِيسَى، أَلْنِ لِي قَلْبَكَ، وَأَكْثِرْ ذِكْرِي فِي الْخَلَوَاتِ، وَاعْلَمْ أَنَّ سُرُورِي أَنْ تُبْصِبَصَ إِلَيَّ، وَكُنْ فِي ذَلِكَ حَيًّا، وَلَا تَكُنْ مَيِّتًا»^(٢).

التبصيص: حركة ذنب الكلب نتيجة الخوف أو الطمع. وهذا كناية عن شدة الالتماس والمسكنة.

كُنْ فِي ذَلِكَ حَيًّا وَلَا تَكُنْ مَيِّتًا: بمعنى: انتباه القلب، وحضوره.
السادس: عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ (عَزَّ وَجَلَّ) يَقُولُ: مَنْ شُغِلَ بِذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي، أُعْطِيَتْهُ أَفْضَلُ مَا أُعْطِيَ مَنْ سَأَلَنِي»^(٣).

السابع: عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «... وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمْ عِنْدَ مَلِكِكُمْ، وَأَزْكَاهَا، وَأَزْفَعَهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرَ مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، ذِكْرُ اللَّهِ (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى)، فَإِنَّهُ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ فَقَالَ: أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِي»^(٤).
والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

(١) الأحاديث، كتاب الصلاة، ح ٣٤٨٧.

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الدعاء، باب ذكر الله في السر، ح ٣

(٣) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الدعاء، باب الاشتغال بذكر الله، ح ١

(٤) عدة الداعي: ص ١٨٧



الْحَدِيثُ الثَّاسِعُ عَشْرُونَ

الْخِيَّة

قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«الْغَيْبَةُ أَسْرَعُ فِي دِينِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ مِنَ الْأَكْلَةِ فِي جَوْفِهِ».

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«الْجُلُوسُ فِي الْمَسْجِدِ إِنْ تَظَارَ الصَّلَاةَ عِبَادَةً مَا لَمْ يُحْدِثْ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،
وَمَا يُحْدِثُ؟، قَالَ: الْاِغْتِيَابُ»^(١).

معاني المفردات

الغيبة: مصدر «غاب»، واسم مصدر لـ «اِغْتِيَابٌ».
والأَكْلَةُ: داءٌ في العضو، يَأْكُلُ منه، ومرض الأكلة عندما يحلّ في الأعضاء
اللطيفة من الجسم، مثل الباطن منه، يأكله بسرعة، ويقضي عليه.

تعريف الغيبة

ورد للغيبة تعريفان:

أحدهما: «ذِكْرُ الْإِنْسَانِ حَالِ غَيْبَتِهِ بِمَا يَكْرَهُ نِسْبَتَهُ إِلَيْهِ، مِمَّا يُعَدُّ نَقْصَانًا فِي
الْعُرْفِ، بِقَصْدِ الْاِنتِقَاصِ، وَالذَّمِّ».
والآخر: «التَّنْبِيهُ عَلَى مَا يَكْرَهُ نِسْبَتَهُ إِلَيْهِ» وَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الْأَوَّلِ.

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الغيبة والبهت، ح ١.

يلحظ أنَّ التنبيه المذكور في التعريف الثاني أعمّ من القول، والكتابة، والحكاية، وغيرها من سائر طرق التفهيم.

وقد عرّف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الغيبة، بأنها: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»^(١).

ولابدّ من أن يكون الذكر بقصد الانتقاص؛ فإن كان بقصد الشفقة عليه لم يكن غيبة، حتى يحتاج إلى طلب المغفرة.

ولا يبعد أن يكون إظهار المستور من عيوب المؤمنين عند عدم رضاهم بذلك محرّماً، وإن لم يكن هناك قصد للانتقاص منهم.

في مساوئ الغيبة

لهذه الخطيئة الكبيرة في عالم الغيب، وراء حجاب الملكوت، صورة مشوهة بشعة، تبعث على الفضيحة في الملأ الأعلى، ولدى محضر الأنبياء والمرسلين، والملائكة المقربين. وصورتها الملكوتية في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾^(٢). إن المغتاب يضاهي الكلاب الجارحة في افتراسه لأعراض الناس ولحومهم، وسترجع إليه الصورة الملكوتية لهذا العمل: كلب ينهش لحم الميت في نار جهنم.

وفي رواية أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما رجم الرجل في الزنا، قال رجل لصاحبه: «هذا أفعص»^(٣) كما يُقَعَصُ الكلب، فَمَرَّ النَّبِيُّ مَعَهَا بِحَيْفَةٍ فَقَالَ: إِنْهَشَا مِنْهَا، فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ نِهَشَ حَيْفَةً؟ فَقَالَ: مَا أَصَبْتُمَا مِنْ أَخِيكُمَا أَنْتُنِ مِنْ هَذِهِ»^(٤).

(١) المحجة البيضاء، المجلد ٥، ص ٢٥٦.

(٢) الحجرات: ١٢

(٣) القعص: القتل

(٤) المحجة البيضاء، المجلد الخامس، ص ٢٥٣

وفي رواية نوف البكالي، عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «اجْتَنِبْ الغَيْبَةَ، فَإِنَّهَا أَدَامَ كِلَابِ النَّارِ؛ ثُمَّ قَالَ: يَا نَوْفُ كَذَبَ مَنْ رَعَمَ أَنَّهُ وُلِدَ مِنْ حَلَالٍ وَهُوَ يَأْكُلُ لَحْمَ النَّاسِ بِالْغَيْبَةِ»^(١)

ولا تهافت بين هذه الأحاديث الشريفة؛ إذ يمكن أن يتحقق كل ذلك: يأكل المقتاب لحم الميتة، ويأكل لحم جسده، ويكون على صورة الكلب فيأكل الجيفة، ويكون على صورة الميتة تأكله كلاب جهنم؛ فالصور في عالم الآخرة تابعة لحشيات الفاعل، فيمكن أن تكون لموجود واحد صوراً مختلفة.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «.. وَمَنْ مَشَى فِي غَيْبَةِ أَخِيهِ، وَكَشَفَ عَوْرَتِهِ، كَانَتْ أَوَّلَ خُطْوَةٍ خَطَاَهَا، وَضَعَهَا فِي جَهَنَّمَ وَكَشَفَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ»^(٢).
وروي في بيان حال المقتاب في البرزخ عن أنسٍ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِعَلَى قَوْمٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ بِأَظْفَارِهِمْ، فَقُلْتُ: يَا جَبْرَائِيلُ! مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ النَّاسَ، وَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»^(٣).

وعن أبي جعفر عليه السلام: «قَالَ: لَمَّا أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ صلى الله عليه وآله قَالَ: يَا رَبِّ مَا حَالُ الْمُؤْمِنِ عِنْدَكَ؟ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ، وَأَنَا أَسْرَعُ [شَيْءٍ] إِلَى نُصْرَةِ أَوْلِيَائِي»^(٤)

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «وَمَنْ اغْتَابَهُ بِمَا فِيهِ، فَهُوَ خَارِجٌ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ (تَعَالَى)، دَاخِلٌ فِي وِلَايَةِ الشَّيْطَانِ»^(٥)، ومن يخرج عن ولاية الله تعالى ويدخل

(١) وسائل الشيعة، المجلد الثامن، الباب ١٥٢ من أبواب أحكام العشرة، ح ١٦

(٢) عقاب الأعمال، ص ٣٤٠

(٣) المحجة البيضاء، المجلد الخامس، ص ٢٥١ (كتاب: آفات اللسان)

(٤) أصول الكافي، المجلد ٢، كتاب الإيمان والكفر، باب من آذى المسلمين، ح ٨

(٥) بحار الأنوار، المجلد ٧٥، باب الغيبة، ح ١٢

في ولاية الشيطان، لا يكون من أهل النجاة والإيمان.
إن اجتراحنا هذه المعصية يدلّ على أنّ أساسنا غير سليم، وأن حقيقة الإيمان لم تدخل في قلوبنا؛ لأن آثاره تتسرب إلى الظاهر والباطن، والسرّ والعلن.
إن ضعف الإيمان، وعدم خلوصه، يسبب فسادًا في الأخلاق، وانحرافًا في الأعمال، والمفاسد الأخلاقية تسبب نقصًا في الإيمان بل زواله.

واعلم أن هذه المعصية، من جهة أخرى، أشد من كل المعاصي، وآثارها أخطر من آثار الذنوب الأخرى؛ لأنها تمسّ حقوق الله، وحقوق الناس أيضًا.
ولا يغفر الله للمغتتاب حتى يرضى صاحب الغيبة، فعن أبي ذرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَصِيَّةٍ لَهُ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِيَّاكَ وَالْغَيْبَةَ، فَإِنَّ الْغَيْبَةَ أَشَدُّ مِنَ الزَّنا. قُلْتُ: وَلَمْ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لِأَنَّ الرَّجُلَ يَزْنِي فَيَتُوبُ إِلَى اللَّهِ فَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَالْغَيْبَةُ لَا تُغْفَرُ حَتَّى يَغْفِرَهَا صَاحِبُهَا»^(١).

في حقوق الله علاقة الإنسان بالكريم الرحيم الذي لا يتطرق إلى ساحته القدسية شيء من البغض، والضغينة، والعداوة، والتشفي؛ وفي حقوق العباد قد يرتبط بإنسان فيه تلك الصفات الفاسدة، فلا يتجاوز عنه بسرعة، أو لا يرضى عنه نهائيًا.

رُويَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ خَطَبَ يَوْمًا فَذَكَرَ الرَّبَّ، وَعَظَّمَ شَأْنَهُ فَقَالَ: «إِنَّ الدَّرْهَمَ يُصِيبُهُ الرَّجُلُ مِنَ الرَّبِّ أَعْظَمُ مِنْ سِتِّ وَثَلَاثِينَ زَنِيَّةً، وَإِنَّ أَزْبَى الرَّبِّ عَرَضُ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ»^(٢).

وَعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُؤْتَى بِأَحَدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُوقَفُ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ (عَزَّ وَجَلَّ)

(١) وسائل الشيعة، المجلد الثامن، الباب ١٥٢ من أبواب أحكام العشرة، ح ٩

(٢) المحجة البيضاء، المجلد الخامس، ص ٢٥٣ وص ٢٦٤

وَيُدْفَعُ إِلَيْهِ كِتَابُهُ فَلَا يَرَى حَسَنَاتِهِ فِيهِ، فَيَقُولُ: إلهي لَيْسَ هَذَا كِتَابِي [فَإِنِّي] لَا أَرَى فِيهِ حَسَنَاتِي. فَيُقَالُ لَهُ: إِنَّ رَبَّكَ لَا يَضِلُّ، وَلَا يَنْسَى، ذَهَبَ عَمَلُكَ بِاِغْتِيَابِ النَّاسِ. ثُمَّ يُؤْتَى بِآخَرَ وَيُدْفَعُ إِلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَرَى فِيهِ طَاعَاتٍ كَثِيرَةً فَيَقُولُ: إلهي مَا هَذَا كِتَابِي، فَإِنِّي مَا عَمِلْتُ هَذِهِ الطَّاعَاتِ، فَيُقَالُ لَهُ: إِنَّ فَلَانًا اغْتَابَكَ، فَدَفَعَ حَسَنَاتُهُ إِلَيْكَ»^(١)

وهناك عناوين أخرى من المعاصي المذكورة في الروايات تنطبق على الغيبة، وتعمّمها تلك الآثام مع مضاعفاتها الفاسدة مثل: إهانة المؤمن، والأحاديث في تشنيع كل واحد منها قاصمة للظهر.

المفاسد الاجتماعية للغيبة

إن من الأهداف الكبيرة للشرائع الإلهية، والأنبياء العظام ﷺ توحيد الكلمة، وتوحيد العقيدة، والحدّ من ظلم الجائرين الباعث على فساد بني الإنسان، ودمار المدينة الفاضلة، ولا يتحقق هذا الهدف الكبير المصلح للمجتمع والفرد إلا في ظل التآلف والتآخي، والصداقة القلبية والصفاء الباطني والظاهري، وتربية أفراد المجتمع على الإخاء والتعاون.

إن نبي الإسلام قد أجرى عقد الأخوة في الأيام الأولى بين المسلمين، فسادت الأخوة بحسب الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٢).

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «اتَّقُوا اللَّهَ، وَكُونُوا إِخْوَةً بَرَّةً فِي اللَّهِ، مُتَوَاصِلِينَ، مُتَرَاهِمِينَ. تَرَاورُوا، وَتَلَفُوا، وَتَذَاكُرُوا أَمْرَنَا، وَأَحْيَاؤُهُ»^(٣).

(١) جامع الأخبار، ص ١٧١

(٢) الحجرات: ١٠

(٣) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب التراحم والتعاطف، ح ١، ٣، و ٤

وَعَنْهُ عليه السلام قَالَ: «يَحِقُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْإِجْتِهَادُ فِي التَّوَاصُلِ، وَالتَّعَاوُنُ عَلَى التَّعَاطُفِ، وَالْمُوَاسَاةُ لِأَهْلِ الْحَاجَةِ، وَتَعَاطُفٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، حَتَّى تَكُونُوا كَمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ): ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾...»^(١).

وَعَنْهُ عليه السلام: «تَوَاصَلُوا، وَتَبَارَّوْا، وَتَرَاحَمُوا، وَكُونُوا إِخْوَةً بَرَّةً، كَمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ)»^(٢).

ومن الواضح أن هذه الغيبة إذا أشيعت في المجتمع، أصبحت سبباً للضعينة، والحسد، والعداوة، والبغض، وترسيخ جذور الفساد فيه، وغرس شجرة النفاق فيه، وضعف وحدة المجتمع وتضامنه، ووهن أساس الديانة، وفي النهاية تزداد في المجتمع القبائح والفساد؛ فيجب على كل مسلم غيور ملتزم صيانة نفسه من الفساد، وأهل دينه من النفاق، والمحافظة على المجتمع الإسلامي ووحدته، وأن يتبعد عن هذه الرذيلة لتحكيم عقد الأخوة، ويمنع المغتايين من هذه الموبقة القبيحة، ويتوب إلى الله من هذا العمل الكريه، إذا ابتلي به، ويسترضي مَنْ اغتابه إذا أمكن، من دون أن يفضي إلى مشكلة، ويستحلّه فإذا جعله في حلٍّ، وإلا استغفر له. وتخلّى عن هذه الخطيئة، وأنعش من جديد في قلبه جذور الصداقة والاتحاد، حتى يصبح من الأعضاء الصالحين في المجتمع، والله الهادي إلى سبيل الرشاد.

في علاج الغيبة

اعلم أن معالجة هذه الخطيئة العظيمة وغيرها من الخطايا تكمن في العلم النافع، والعمل.

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب التراحم والتعاطف، ح ١ و ٤ و ٣

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب التراحم والتعاطف، ح ١ و ٤ و ٣.

أما العلم النافع فهو أن يفكر الإنسان في الآثار الناجعة التي تترتب على معالجة هذه الموبقة، ويقارنها بالمضاعفات السيئة، والآثار الشنيعة، التي تترتب على الغيبة، ثم يعرض كلا الأمرين على العقل، ويستهديه لما فيه الحسن والخير والصالح.

إن من آثارها الشنيعة في هذا العالم سقوط الإنسان من أعين الناس، وعدم ثقتهم به؛ لأن الناس يفرقون بين من يجتنب هتك الأستار، والأعراض، وغيره، وإذا تمادى الإنسان، وتجاوز الحدود في هتكها، فضحه الله في هذه الدنيا، فضلاً عن أن هتك حرمت المؤمنين، وكشف عوراتهم يفضي بالإنسان إلى سوء العاقبة؛ لأن هذا العمل الشنيع، إذا أصبح ملكة راسخة لدى الإنسان، ترك آثاراً في النفس، منها: الضغينة، والعداوة، تجاه المستغاب، التي تزداد شيئاً فشيئاً، فعندما يدنو منه الأجل، وتتكشف عنه حجب الملكوت، ويرى المقامات الشاخصة للذين اغتابهم، وتعظيم الحق لهم، قد تحصل عنده الكراهية للحق سبحانه؛ لأن الإنسان يعادي المحب لعدوه، ويبغض المحب لمبغوضه، فيخرج من الدنيا وهو كاره للحق والملائكة، ويمنى بالخذلان الأبدي، والشقاء الدائم.

إن المؤمنين أولياء الحق، والتحاب معهم تحاب مع الحق، والتخاصم معهم تخاصم مع الحق.

وازن بين ربع ساعة من اللغو في الحديث والثروة في ظل تحقيق رغبة وهمية، وبين آلاف السنين من المعاناة، إذا كنت من أهل النجاة، وارتحلت عن هذه الدنيا مع الإيمان؛ وإن لم تكن من أهل الإيمان والنجاة فوازن تلك الدقائق اليسيرة بالخلود في نار جهنم، والعذاب الأليم.

وأما من الناحية العملية فلا بد من كف النفس عن هذه المعصية لبعض

الوقت مهما كان صعباً، ولجم اللسان، والمراقبة الكاملة للنفس، ومعاودة النفس على عدم اقتراف هذه الخطيئة ومراقبتها، والحفاظ عليها ومحاسبتها. إذ يمكن أن يتم إصلاح النفس بعد مضي مدة قصيرة بمشيئته تعالى، واستئصال مادة هذا الفساد، ويسهل عليك الأمر قليلاً قليلاً. وبعد مدة تحسّ بأنك تتنفر منها بحسب طبيعتك، وتزجر عنها؛ ثم تكون راحة النفس ومتعتها في ترك هذه المعصية.

موارد جواز الغيبة

استثنى العلماء، والفقهاء (رضوان الله عليهم)، موارد من حرمة الغيبة، تبلغ في كلمات بعضهم العشرة؛ ولكن على المؤمن أن لا يطمئن أبداً من مكائد النفس، بل يجب أن يتحرك في منتهى الحذر والاحتياط؛ لأنّ مكائد النفس بالغة الدقة، فيمكن أن تخدع الإنسان عن طريق الشرع، وتزجّه في مهلكة.

إن غيبة المتجاهر بالفسق جائزة، وإذا توقف ردعه بعض الأحيان على استغابته وجبت غيبته من باب النهي عن المنكر، ولكن يجب أن يتأمل الإنسان بأن الدافع النفسي لغيبته هو الداعي الشرعي الإلهي، النهي عن المنكر، أو أن الباعث أهواء شيطانية، ورغبة نفسانية، فإن كان الهدف النهي عن المنكر، كان عمله من العبادات، بل كانت غيبته هذه بنية إصلاح المتجاهر بالفسق والإساءة إليه من أوضح مصاديق الإحسان، والإنعام عليه، وإن لم يشعر المغتاب بذلك. ولكن إذا كان قصده مشوباً بالفساد والميول النفسانية، فلا بد من تخلص النية - من غير الدافع الإلهي - والصفح عن أعراض الناس وحرمتهم عند انعدام الهدف الصحيح.

وإنّ تعويد النفس على الغيبة في الأحوال الجائزة، يضرّ بحالها أيضًا؛ لأنّ النفس تميل نحو الشرور والقبائح، فمن المحتمل أن ينجرّ رويّدًا رويّدًا من الموارد الجائزة إلى مرحلة أخرى وهي الموارد المحرمة، وأنّ الدخول في الشبهات غير محمود، على رغم جوازه؛ لأنّها حمى المحرمات، واقتحام الحمى قد يفضي إلى الدخول في المحرمات.

نعم، في الأحوال التي تجب الغيبة فيها، مثل غيبة المتجاهر بالفسق، يهدف منعه إذا كان لا يرتدع إلا بها، والموارد الأخرى التي ذكرها العلماء، فلا بد من الإقدام عليها، مع السعي الحثيث لتخليص النية عن هوى النفس، ومتابعة الشيطان. ولكن ترك الغيبة في الموارد الجائزة أولى وأحسن؛ ومن الأجدر أن لا نفعل كل عمل جائز ولا سيّما الأمور التي يكون فيها لمكائد النفس والشيطان دور بارز.

في الحديث: «مَرَّ عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ عليه السلام وَمَعَهُ الْخَوَارِثُونَ عَلَى جِيفَةِ كَلْبٍ، فَقَالَ الْخَوَارِثُونَ مَا أَتَنَنْ رِيحَ هَذَا الْكَلْبِ، فَقَالَ عَيْسَى عليه السلام: مَا أَشَدَّ بَيَاضَ أَسْنَانِهِ!»^(١).
إنّ المربّي والموجه للإنسان لا بدّ من أن يكون ذا نفس طاهرة نقيّة. وقد روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قوله: «طوبى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ»^(٢).

من الجدير بالإنسان أن يبحث عن عيوبه قليلاً بمثل ما يتحرّى عن عيوب الناس؛ وكم هو قبيح على الإنسان الذي فيه آلاف العيوب أن يغفل عن عيوبه، ويتنبه لعيوب الآخرين، وبذلك يزيد عيباً آخر على عيوبه.

(١) المحجة البيضاء، ج ٥ ص ٢٥٤.

(٢) المحجة البيضاء، ج ٥ ص ٢٦٤.

في استماع الغيبة

الاستماع إلى الغيبة محرّم، والمستمع مثل المغتاب في كل الأمور حتى وجوب التسامح منه، وإنه من الكبائر؛ فعن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُسْتَمِعُ أَحَدُ الْمُغْتَابَيْنِ»^(١)، بل يظهر من الروايات الكثيرة وجوب ردّ الغيبة.

وَعَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنِ الْغَيْبَةِ، وَالْإِسْتِمَاعِ إِلَيْهَا، إِلَى أَنْ قَالَ: أَلَا وَمَنْ تَطَوَّلَ عَلَى أَخِيهِ فِي غَيْبَةٍ سَمِعَهَا فِيهِ فِي مَجْلِسٍ فَرَدَّهَا عَنْهُ، رَدَّ اللَّهُ عَنْهُ الْفَبَ بَابٍ مِنَ الشَّرِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَإِنْ هُوَ [لَمْ يَرُدَّهَا وَهُوَ] قَادِرٌ عَلَى رَدِّهَا كَانَ عَلَيْهِ كَوْزَرٌ مَنِ اغْتَابَهُ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(٢).

وَفِي وَصِيَّةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَا عَلِيُّ! مَنْ اغْتَابَ عَنْدَهُ أَخُوهُ الْمُسْلِمُ فَاسْتَطَاعَ نَصْرَهُ فَلَمْ يَنْصُرْهُ خَذَلَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٣).

«والظاهر أن الردّ غير النهي عن الغيبة، والمراد به الانتصار للغائب بما يناسب تلك الغيبة، فإن كان عيباً دنيوياً انتصر له بأن العيب ليس إلا ما عاب الله به من المعاصي التي من أكبرها ذكرك أخاك بما لم يعبأ الله به، وإن كان عيباً دينياً، وجّهه بمحامل تخرجه عن المعصية، فإن لم يقبل التوجيه انتصر له بأن المؤمن قد يتلى بالمعصية، فينبغي أن تستغفر له، وتهتم له لا أن تعيره، ولعل تعيرك إياه أعظم عند الله من معصيته»^(٤).

ويلحظ أحياناً أن المستمع فضلاً عن أنّه لم يمنع الغيبة، يعتمد إلى تشجيع

(١) المحجة البيضاء، ج ٥ ص ٢٦٠

(٢) وسائل الشيعة، المجلد الثامن، الباب ١٥١، من أبواب أحكام العشرة، ح ١٣

(٣) وسائل الشيعة، المجلد الثامن، الباب ١٥١، من أبواب أحكام العشرة، ح ١

(٤) المكاسب، شرح السيد كلانتر - المجلد الرابع، ص ٦٩

المستغيب من خلال مشاركته في الاستغابة، وإذا كان المستمع من أهل الصلاح، رغب المستغيب في الاستغابة من خلال الاشتغال بذكر الله أو الاستغفار، وهي من الوسائل الشيطانية لدفع المستغيب إلى الاستغابة؛ ومن الممكن أن يكون الحديث الشريف الذي يضاعف وزر المستمع للغيبة سبعين مرة بالنسبة إلى وزر المستغيب، إشارة لهؤلاء الأشخاص.

تتميم

للشيخ الجليل والمحقق العظيم الشهيد السعيد الثاني (رضوان الله عليه) كلام نختم به هذا المقام، إذ يقول: «ومن أضرّ أنواع الغيبة غيبة المتّسمين بالفهم، والعلم، المرائين، فإنهم يفهمون المقصود إلى صفة أهل الصلاح والتقوى، ليظهروا من أنفسهم التعفّف عن الغيبة، ويفهمون المقصود، ولا يدرون بجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين: الرياء، والغيبة، وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان، فيقول: الحمد لله الذي لم يبتلينا بحب الرياسة، أو حبّ الدنيا، أو بالتكيف بالكيفية الفلانية، أو يقول: نعوذ بالله من قلة الحياء، أو من سوء التوفيق، أو نسأل الله أن يعصمنا من كذا، بل مجرد الحمد على شيء إذا علم منه اتصاف المحدث عنه بما ينافيه، ونحو ذلك، فإنه يغتابه بلفظ الدعاء، وسَمَتِ أهل الصلاح. وإنما قصده أن يذكر عيبه بضرب من الكلام المشتمل على الغيبة، والرياء، ودعوى الخلاص من الرذائل، وهو عنوان الوقوع فيها، بل في أفحشها، ومن ذلك أنّه قد يُقدّم مدح من يريد غيبته، فيقول: ما أحسن أحوال فلان، ما كان يقصّر في العبادات، ولكن قد اعتراه فتور، وابتلي بما يُبتلى به كلّنا، وهو قلة الصبر، فيذكر نفسه بالذمّ، ومقصوده أن يذم غيره، وأن يمدح نفسه بالتشبه

بالصالحين في ذمّ أنفسهم فيكون مغتاباً مرئياً، مزكياً نفسه، فيجمع بين ثلاث فواحش، وهو يظنّ بجهله أنه من الصالحين المتعطفين عن الغيبة؛ هكذا يلعب الشيطان بأهل الجهل، إذا اشتغلوا بالعلم والعمل، من غير أن يتقنوا الطريق، فيتبعهم، ويحبط بمكائده عملهم، ويضحك عليهم، ويسخر منهم.

ومن ذلك أن يذكر ذاكر عيب إنسان، فلا ينتبه له بعض الحاضرين، فيقول: سبحانه الله، ما أعجب هذا!! حتى يُصغي الغافل إلى المغتاب، ويعلم ما يقوله، فيذكر الله سبحانه، ويستعمل اسمه آلة في تحقيق خبثه وباطله، وهو يمنّ على الله بذكره جهلاً وغروراً. ومن ذلك أن يقول: جرى من فلان كذا، وابتلي بكذا، بل يقول: جرى لصاحبنا أو صديقنا كذا، تاب الله عليه وعلينا، يظهر الدعاء له، والتألم، والصدقة، والصحبة؛ والله مطلع على خبث سريرته، وفساد ضميره، وهو بجهله لا يدري أنه قد تعرّض لمقت أعظم مما يتعرّض له الجهّال إذا جاھروا بالغيبة.

ومن أقسامها الخفيّة الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب؛ فإنه إنما يظهر التعجب، ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة، فيزيد فيها؛ فكأنّه يستخرج منه الغيبة بهذا الطريق؛ فيقول: عجبت ممّا ذكرته، ما كنت أعلم بذلك إلى الآن، ما كنت أعرف من فلان ذلك، يريد بذلك تصديق المغتاب، واستدعاء الزيادة منه باللفظ والتصديق لها، بل الإصغاء إليها، بل السكوت عند سماعها^(١).

(١) كشف الريبة في أحكام الغيبة: ٨ - ٩ (في أقسام الغيبة).



الْحَدِيثُ الْعِشْرُونَ

النِّيَّة

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(١). قَالَ:

«لَيْسَ يَعْنِي أَكْثَرُكُمْ عَمَلًا؛ وَلَكِنْ أَصَوَّبَكُمْ عَمَلًا. وَإِنَّمَا
الْإِصَابَةُ خَشْيَةُ اللَّهِ، وَالنِّيَّةُ الصَّادِقَةُ، وَالْخَشْيَةُ. ثُمَّ قَالَ: الْإِبْقَاءُ
عَلَى الْعَمَلِ حَتَّى يَخْلُصَ، أَشَدُّ مِنَ الْعَمَلِ، وَالْعَمَلُ الْخَالِصُ،
الَّذِي لَا تُرِيدُ أَنْ يَحْمَدَكَ عَلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، أَفْضَلُ مِنَ
الْعَمَلِ. أَلَا وَإِنَّ النِّيَّةَ هِيَ الْعَمَلُ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ (عَزَّ وَجَلَّ): ﴿كُلُّ يَوْمٍ
يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾^(٢) يَعْنِي عَلَى نِيَّتِهِ»^(٣).

معاني المفردات:

البلاء: الاختبار والتمحيص.

الصواب: نقيض الخطأ.

نسبة الابتلاء إلى الحق تعالى

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: إشارة إلى قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ^(٤).

(١) الملك: ٢

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الإخلاص، ح ٤.

(٣) تبارك: ١ و ٢

والموت: الانتقال من النشأة الظاهرية الملكية (الدنيا) إلى النشأة الباطنية الملكوتية.

أو أنه الحياة الثانية الملكوتية بعد الحياة الأولى الملكية الدنيوية. وعلى كل تقدير يكون الموت أمرًا وجوديًا، بل هو أتم من الوجود الملكي؛ لأن الحياة الملكية الدنيوية مشوبة بالمواد الطبيعية الميتة، وحياتها عرضية وزائلة. في حين أن الحياة الذاتية الملكوتية التي تحصل هناك تبعث على استقلالية النفوس، وتكون تلك الدار، دار حياة ومن لوازم الحياة. وأن الأبدان المثالية البرزخية قائمة بالنفوس قيامًا صدوريًا. مثل قيام المعلول بالعلة. وبالجمله: الحياة الملكوتية، التي يُعبر عنها بالموت متعلق للجعل والتكوين، وتحت قدرة الذات المقدس.

إنَّ الهدف من تكوّن الحياة الملكية هو تمحيص النفوس، والفرقة بين السعيد منها والشقي. وعليه تتّضح الغاية المنشودة من وراء اختبار الناس.

وأما خلق الموت، فهو أيضًا دخیل في هذا الفرز والتفريق، بين السعيد والشقي، بل هو الجزء الأخير من العلة؛ لأن المقياس في الفعلیات هي الصور الملكوتية الأخيرة التي ينتقل بها الإنسان من هذا العالم.

وخلاصة الكلام أن المقياس في التفرقة هو الصور الأخروية الملكوتية، وهي لا تحصل إلا بواسطة الحركات الجوهرية، والأفعال الاختيارية الدنيوية الملكية. فاتّضحت الغاية المنشودة من الامتحان والاختبار المترتب على خلق الموت والحياة.

وقوله سبحانه: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، الذي ربط نتيجة الامتحان بأحسن الأعمال، يعود أيضًا إلى هذا المعنى المذكور. وعليه يفسّر الحديث الشريف؛ لأنه فسر الأحسن بالأصوب، والأصوب بخشية الله، والنية الصادقة؛ وهي الصور

الباطنية للنفس، والباعثة على التفرّق الحقيقي للأرواح، أو أنها من مظاهر الاختلافات الجوهرية، الغيبية للنفس. بل بناءً على تأثر القلب والباطن بالأعمال الظاهرية، يحصل التفرّق بالأعمال أيضًا؛ فامتحان الأعمال، اختبار للذاتيات أيضًا. وإذا فسرنا الآية المباركة بحسب ظاهرها، وقطعنا النظر عن تفسير الإمام عليه السلام، كان الاختبار أيضًا بهذا المعنى المذكور؛ لأن الحضور في هذه النشأة الدنيوية، وخلق الموت والحياة، باعثن على فرز الأعمال الحسنة عن الأعمال السيئة. أما سببية خلق الحياة في ذلك فمعلوم؛ لأنها سبب النهوض والحركة والعمل. أما خلق الموت، فمع العلم بعدم استقرار الحياة الدنيوية، وتيقن حصول الارتحال من هذه النشأة الفانية، تختلف الأعمال من إنسان لآخر، ويتم الفرز بين صالحها وطالحها.

الخشية والنية الصادقة وصواب الأعمال

الحديث الشريف أناط صواب العمل، وحسنه، بأمرين شريفين:

أحدهما: الخوف والخشية من الحق المتعالي.

إنّ الخوف والفرع من الحق المتعالي يوجب خشية النفس وتقواها، وهي تبعث على زيادة قبول آثار الأعمال أكثر. وإنّ أثر العبادات والمناسك هو خضوع قوى الإنسان للعقل، وقاهرية ملكوتية النفس للملك، حتى بلوغ الجذبة الروحية، والوصول إلى المقصود الأصلي؛ وقيمة كل عمل تتحدّد بما له من دور في هذا التأثير، وتحت هذا المقياس يندرج الحديث المعروف: «أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ أَحْمَرُهَا»^(١).

(١) الأربعين، ص ١٧٧، شرح الحديث ١٥

إنَّ التَّقْوَى تَزَكِّي النَّفْسِ وَتَطَهَّرُهَا مِنَ الدَّنَسِ وَالْقَذَارَاتِ؛ وَخَشْيَةُ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ لَهَا التَّأْثِيرُ التَّامُّ فِي تَقْوَى النَّفُوسِ، الَّتِي هِيَ مِنَ الْعَوَامِلِ الْكَبِيرَةِ لِإِصْلَاحِ النَّفُوسِ، وَإِصَابَةِ الْأَعْمَالِ وَحُسْنِهَا وَكَمَالِهَا؛ وَلَهَا قُدْرَةٌ فَعَّالَةٌ فِي تَأْثِيرِ الْأَعْمَالِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْقَالْبِيَّةِ الظَّاهِرِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ، وَهِيَ سَبَبٌ لِقَبُولِهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(١).

وَالْآخَرُ: النِّيَّةُ الصَّادِقَةُ وَالْإِرَادَةُ الْخَالِصَةُ، فَكَمَالُ الْعِبَادَاتِ وَنَقْصُهَا وَصَحَّتْهَا، وَفَسَادُهَا كَلِيًّا، تَابِعٌ لَهَا؛ وَنِسْبَةُ النِّيَّاتِ إِلَى الْأَعْمَالِ، كَنِسْبَةِ الْأَرْوَاحِ إِلَى الْأَبْدَانِ، وَالنَّفُوسِ إِلَى الْأَجْسَادِ، وَلَا تَقْبَلُ عِبَادَةُ الْبَتَّةِ عِنْدَ الْحَقِّ الْمُتَعَالِيِّ مِنْ دُونِ نِيَّةٍ خَالِصَةٍ، إِذْ لَا مَلَازِمَةَ بَيْنَ صِحَّةِ الْعِبَادَةِ وَقَبُولِهَا، فَمَثَلًا مَنْ يُؤَدِّي لِسَعَةِ رِزْقِهِ صَلَاةَ اللَّيْلِ، أَوْ يَتَصَدَّقُ لِدَفْعِ الْبَلِيَّةِ، أَوْ يَقْدِّمُ الزَّكَاةَ لَتَنْمِيَةِ أَمْوَالِهِ، هَذِهِ الْعِبَادَاتُ صَحِيحَةٌ وَمَجْزِيَّةٌ، وَتَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا تِلْكَ الْآثَارُ إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى أَجْزَائِهَا وَشَرَائِطِهَا. وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ عِبَادَةً لِلْحَقِّ الْمُتَعَالِيِّ، فَلَا نِيَّةٌ صَادِقَةٌ، وَلَا إِرَادَةٌ خَالِصَةٌ، هِيَ عِبَادَةٌ لِنَيْلِ الرِّغْبَاتِ النَّفْسِيَّةِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَكَذَلِكَ الْعِبَادَاتُ الَّتِي تُؤَدَّى خَوْفًا مِنَ النَّارِ، أَوْ شَوْقًا إِلَى الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّ مَنْ قَامَ بِهَا لَمْ يُرِدْ رِضَا الْحَقِّ سَبْحَانَهُ، حَتَّى يَتَحَقَّقَ الشَّرْكُ، وَإِنَّمَا عَبْدٌ صَنَمِ النَّفْسِ.

إِنَّ اللَّهَ (سَبْحَانَهُ) يَقْبَلُ أَمْثَالَ هَذِهِ الْعِبَادَاتِ بِسَبَبِ عِزْزِنَا، وَرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ، بِدَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ؛ هَذَا هُوَ حَالُ عِبَادَةِ الْعَبِيدِ وَالْأَجْرَاءِ. وَأَمَّا عِبَادَةُ الْأَحْرَارِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ لِحُبِّهِمُ الْحَقِّ الْمُتَعَالِيِّ، وَلِبَحْثِهِمْ عَنِ الذَّاتِ الْمُقَدَّسَةِ، فَهِيَ أَوَّلُ مَقَامِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَحْرَارِ.

يجب أن يخلو القلب لله (تعالى) حتى يكون خالصاً، ورد في الحديث الشريف: «الْقَلْبُ السَّلِيمُ: الَّذِي يَلْقَى رَبَّهُ وَلَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ سِوَاهُ، قَالَ: وَكُلُّ قَلْبٍ فِيهِ شِرْكٌ، أَوْ شَكٌّ، فَهُوَ سَاقِطٌ؛ وَإِنَّمَا أَرَادَ بِالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، لِتَفْرَغَ قُلُوبُهُمْ لِلْآخِرَةِ»^(١).

وإن من الشرك الخفي الاعتماد على الأسباب، والركون إلى غير الحق، وقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام: «أَنَّ الشَّرْكَ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ»، وَقَالَ: «مِنْهُ تَحْوِيلُ الْخَاتَمِ لِيَذْكُرَ الْحَاجَّةَ، وَشِبْهُ هَذَا»^(٢). ودخول غير الحق المتعالي إلى القلب من الشرك الخفي؛ وإخلاص النية هو: إخراج غير الحق سبحانه من القلب مقام الذات المقدس.

وللشك مراتب أيضاً، فمنه الجلي، ومنه الخفي، وتحصل هذه المراتب نتيجة ضعف اليقين، ونقصان في الإيمان. والقلب السليم، هو القلب الفارغ من مطلق الشرك والشك. والغاية من الزهد في الدنيا هو انصراف القلب شيئاً فشيئاً عنها، وتوجهه إلى المقصود الأصلي، والمطلوب الواقعي. إنَّ التوجّه إلى غير الحق المتعالي يعدّ من عمل أهل الدنيا، ويحرم من الآخرة الحقيقية، وجنّة اللقاء التي هي أعلى مراتب الجنة، وإن كانت لهم مراتب أخرى من الكمالات المعنوية، والجنان الرفيعة.

في الإخلاص

قال العارف الحكيم السالك خواجه عبدالله الأنصاري رحمه الله: «الإخلاص: تصفية

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الإخلاص، ح ٥.

(٢) وسائل الشيعة، المجلد ٣، أبواب أحكام الملابس، باب ٦١، ص

العمل من كل شوب»^(١)، أي بشوب رضا نفسه، أو رضا غيره من المخلوقات. إن عبادة أرباب الإخلاص هي رسم تجليات المحبوب، ولا يوجد في قلوبهم سوى الحق المتعالي الواحد؛ مع أن أفق الإمكان قد اتصل بالوجوب، وإن التدليّ الذاتي، والدنو المطلق الحقيقي قد حصل لهم، وإن رسم الغيرية قد ارتفع بالكلية عنهم، فهم يقومون بجميع وظائف العبودية. ولا تكون عبادتهم بالروية والتفكير، بل بالتجلي. وقد أشير إلى هذا المعنى في صلاة ليلة معراج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «الْإِبْقَاءُ عَلَى الْعَمَلِ أَشَدُّ مِنَ الْعَمَلِ. قَالَ: وَمَا الْإِبْقَاءُ عَلَى الْعَمَلِ؟ قَالَ: يَصِلُ الرَّجُلُ بِصَلَةٍ، وَيُنْفِقُ نَفَقَةً لِلَّهِ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، فَكُتِبَ لَهُ سِرًّا، ثُمَّ يَذْكُرُهَا، فَتُمَحَّى فَتُكْتَبُ لَهُ عِلَانِيَةً، ثُمَّ يَذْكُرُهَا، فَتُكْتَبُ لَهُ رِبَاءً»^(٢)، ففي الحديث الشريف: حثّ على لزوم المحافظة، والمواظبة على الأعمال التي تصدر من الإنسان، حين إنجازها، وبعد تحققها، إذ قد يأتي الإنسان بالعمل خالٍ من الرياء والعُجب، وغيره؛ ولكنه بعد العمل يُعاب بالرياء بذكره للآخرين، وقد يتمّ الإظهار بالإيحاء والتلويح؛ فمثلاً إذا أراد أن يكشف عن أدائه صلاة الليل، التجأ إلى أساليب اللفّ والدوران، فتحدّث عن حسن جوّ السحر، أو رداءته، وضيّع عمله من جرّاء المكائد الخفية للنفس.

ولا بد من معرفة أن تخليص النية من جميع مراتب الشرك والرياء وغيرها، ومراقبتها، والمحافظة عليها، من الأمور الصعبة، والمهمة جداً، بل إن بعض مراتبها لا يتيسر إلا للخُلص من أولياء الله تعالى؛ لأن النية هي الإرادة الباعثة

(١) منازل السائرين. ص ٣١، قسم المعاملات، باب الإخلاص.

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الرياء، ح ١٦.

نحو العمل، وتتبع الملكات النفسانية التي هي باطن الإنسان وشاكلته؛ وإن كمال الأعمال ونقصها تابع لكمال النية ونقصها؛ لأن النية هي الصورة الفعلية، والناحية الملكوّية للعمل.

إن ظاهر صلاة أمير المؤمنين عليه السلام، وظاهر صلاة المنافق متضاهيان في الأجزاء، والشرائط، والشكل الظاهري، ولكن هذا يعرج بعمله إلى الله، ولصلاته صورة ملكوتية أعلى، وذاك يغور في أعماق جهنم، ولصلاته صورة ملكوتية سفلية.

إنه لا فرق بين المظهر الخارجي للنبي صلى الله عليه وآله، وجميع الناس؛ ولهذا عندما كان يدخل شخص من خارج المدينة، يسأل: أيكم النبي؟ إن الذي يفضّله على غيره، هو روحه الكبيرة القوية اللطيفة، لا جسمه المبارك، وبدنه الشريف.

لقد بين الإمام الصادق عليه السلام في هذا الحديث (العشرين):

أولاً: أن النية أفضل من العمل، والمعنى: أن بعد تعلق النية بالعمل، والروح بالجسم، يتحقق عمل واحد، وجسم واحد، وأن كل واحد من الجزء الصوري الملكوّي في هذين المزيجين الخليطين: أحدهما: من النية والعمل، والآخر: من الروح والجسم، أفضل من الجزء المادي المُلْكِي. وهذا هو معنى الحديث المشهور: «نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ»^(١).

ثانياً: إن العمل فإن في النية، والمُلْك في الملوكوت، والمظهر في الظاهر، وقال عليه السلام: «أَلَا وَإِنَّ النِّيَّةَ هِيَ الْعَمَلُ» ولا يوجد شيء آخر عدا النية، وأن جميع الأعمال فانية في النية، ولا استقلالية لها. ثم استشهد بقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكَلَتِهِ﴾، وإن الأعمال تابعة لشاكلة النفس، وشاكلة النفس وإن كانت الهياة الباطنية للروح، والملكات المخمرة فيها، لكن النية هي الشاكلة الظاهرية للنفس.

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، ح ٢.

ونستطيع أن نقول: بأن الملكات هي الشاكلة الأولية للنفس؛ والنيّات هي الشاكلة الثانوية لها، والأعمال تتبعها، كما قال الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ومن هنا يتبين بأن طريق تخليص الأعمال من جميع مراتب الشرك، والرياء وغيرها ينحصر في إصلاح النفس وملكاتهما، ويكون ذلك معيناً لكل الإصلاحات، ومصدرًا لجميع المعارج والكمالات.

فإذا أخرج الإنسان حب الدنيا بالترويض العلمي أو العملي، من قلبه، كانت غايته المنشودة شيئاً آخر غير الدنيا، وخلصت أعماله من الشرك الأعظم الذي هو جلب أنظار أهل الدنيا، وكسب موقع لديهم، وطهرت نيته، وتساوى عنده العمل في الجلوة أو الخلوة، في السر أو العلن.



الْحَدِيثُ الْحَاثِي وَالْعَشْرُونَ

الشكر

عن أبي جعفر عليه السلام قال:

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ عَائِشَةَ لَيْلَتَهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ تُتَعَبُ نَفْسَكَ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ أَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟ قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُومُ عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِ رِجْلَيْهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿طه﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ^(١).

معاني المفردات

قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ: إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ^(٢).

توجيه عرفاني للآية الشريفة

إن الفتح في مشرب أهل العرفان، يعني: فتح الحق سبحانه لأبواب المعارف، والعوارف، والعلوم، والمكاشفات، على الإنسان، بعد أن كانت موصدة في وجهه، ومغلقة عليه. والفتوح ثلاثة:

(١) أصول الكافي - المجلد الأول - كتاب الإيمان والكفر، باب الشكر، ح ٦.

(٢) الفتح: ١ - ٢

الأول: الفتح القريب، وهو أول الفتوحات وأقربها، فعندما يغادر السالك البيت المظلم للنفس ببركة ترويضها، واجتياز منازلها، وأنوار الهداية، تفتح أبواب قلبه فتلقى فيه المعارف، ويصبح من ذوي مقام القلب. ويقال بأن الآية المباركة ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾^(١) تشير إلى هذا الفتح، ومعه تفتح أبواب المعارف القلبية، وتغفر الذنوب النفسية.

الثاني: الفتح المبين، وفيه يفتح على السالك باب الأسماء والصفات، وترتفع النقوش المتقدمة النفسية، والمتأخرة القلبية، وتُغفر ذنوبه في ظل غفارية الأسماء، وستاريتها. ويقال بأن قوله تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ تلويح إلى هذا الفتح، ومعناه: إنا فتحنا عليك عالم الأسماء والصفات، فتحًا مبينًا، حتى نغفر لك في ظل غفارية الأسماء الإلهية، الذنوب المتقدمة النفسية، والقلبية المتأخرة؛ وهذا فتح لباب الولاية؛ ومعه تفتح أبواب التجليات الإلهية.

والفتحان: القريب، والمبين يتيسران للأنبياء والأولياء والعرفاء

الثالث: الفتح المطلق، ما دام السالك في حجاب كثرات الأسماء، وتعيّنات الصفات، تكون أبواب التجليات الذاتية مغلقة في وجهه. وحينما تتم التجليات الذاتية الأحدية عليه، وتُباد النقوش الخلقية والأمرية بأسرها من قلبه، ويغرق العبد في عين الجمع، يكون «الفتح المطلق» وغُفران الذنب المطلق، واستتار بواسطة التجلي الأحدي على الذنب الذاتي الذي هو مصدر كل الذنوب «وُجُودُكَ ذَنْبٌ لَا يُقَاسُ بِهِ ذَنْبٌ» ويقال بأن قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾^(٢). إشارة

(١) الصف: ١٣

(٢) النصر: ١

إلى هذا الفتح، وهو من المقامات الخاصة بمرتبة خاتم النبيين؛ وإذا حصل ذلك لشخص، فإنها هو بالتبع، وبسبب شفاعة النبي الأكرم ﷺ.

ويتضح من البيان السابق أن للذنوب مراتب، فحسنات الأبرار من سيئات المخلصين. وكان رسول الله ﷺ يقول: «لَيْزَانُ - أَوْ لَيْغَانُ - عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(١) الرّين: الغبرة، وهو الالتفات إلى عالم الكثرة، ولكنه سرعان ما يزول؛ وفي الحديث «أن رسول الله ﷺ لا يقوم من مجلس وإن خفّ حتى يستغفر الله خمساً وعشرين مرة»^(٢).

فليست المغفرة والذنوب في الآية هي المصطلح عليهما عرفاً لدى عامة الناس، ولا تنافي المقامات المعنوية من العصمة، بل تؤكدّها؛ لأن غفران الذنوب من لوازم السلوك الروحاني، واجتياز المداخل، والوصول إلى أوج الكمال الإنساني؛ لأنّ كل موجود في هذا العالم نتاج هذه النشأة المملّكية، والمادة الجسمية، وله جميع الشؤون المملّكية: الحيوانيّة: والبشريّة: والإنسانيّة؛ المتوافرة بعضها بالفعل، وبعضها بالقوة؛ فإذا أراد السفر من هذا العالم إلى عالم آخر، ومنه إلى مقام القرب المطلق، لا بد من اجتياز هذه المداخل، والعبور من منازل الطريق، وعندما يصل إلى مرتبة، تغفر له ذنوب المرتبة السابقة، وهكذا حتى تغفر له جميع الذنوب في ظل التجليات الذاتية الأحادية، ويستتر الذنب الوجودي الذي هو منشأ جميع الذنوب في ظل الكبرياء الأحدي. وهذه هي غاية عروج كمال الموجود. ويحدث في هذا المقام الموت، والفناء التام. ولهذا عندما نزلت الآية

(١) صحيح مسلم، كتاب الذكر، ص ٤١. وفي الحديث ٢٢ من كتاب أربعين الشيخ البهائي: (مئة مرة).

(٢) سفينة البحار، المجلد الثاني، ص ٣٢٢.

الشريفة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ على رسول الله ﷺ قال: «إن هذه السورة تنبئ بموتي»^(١). والله العالم.

في حقيقة الشكر

الشكر: تقدير نعمة المنعم، وله آثار قلبية ولسانية وأفعالية، وهو: حالة نفسية ناجمة عن معرفة المنعم والنعمة، وصدور كل نعمة منه؛ وتنتج من هذه الحال الأعمال القلبية والقلبية.

أركان الشكر

للشكر أركان ثلاثة^(٢):

الأول: معرفة المنعم وصفاته، ومعرفة النعمة من حيث صدورها منه، كلّها: جليّها، وخفيّها، فهو المنعم الحقيقي؛ وأنّ الخلق كلّهم منقادون لحكمه، مسخّرون لأمره.

الثاني: الحال التي هي ثمرة تلك المعرفة، وهي: الخضوع، والتواضع، والسرور بالنعمة، من حيث إنّها هدية دالّة على عناية المنعم بك، وعلامة ذلك أن لا تفرح من الدنيا إلّا بما يوجب القرب منه.

الثالث: العمل، فإنّ تلك الحال إذا حصلت في القلب حصل فيه نشاط للعمل، الموجب للقرب منه، وهذا العمل يتعلّق بثلاثة أشياء:

أولّها: القلب، وعمله: قصد تعظيمه تعالى، وتحميده، وتمجيده، والتفكير في صنائعه، وأفعاله، وآثار لطفه، والعزم على الإحسان إلى خلقه كافة.

(١) تفسير نور الثقلين - المجلد الخامس ص ٦٨٩

(٢) الكلام للطوسي، ينظر: المحجة البيضاء، ج ٧، بيان حد الشكر وحقيقته.

وثانيها: اللسان، وعمله: إظهار ذلك المقصود بالتحميد والتمجيد، والتسبيح والتهليل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحو ذلك.

وثالثها: الجوارح، وعملها استعمال النعمة الظاهرة والباطنة في طاعته وعبادته، نحو: استعمال العين في قراءة مصنوعاته، وتلاوة كتابه، وتذكر العلوم الماثورة عن الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، وكذا سائر الجوارح.

في كيفية الشكر

الشكر يتبع معرفة المنعم وإحسانه، ولأنَّ أحدًا لم يعرفه حق معرفته، لم يستطع أحد شكره سبحانه حق شكره، وكان منتهى شكر الإنسان معرفته بعبجزه عن النهوض بهذا الحق؛ ومن هذا المنطلق اعترف الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بالعجز، على الرغم من أن شخصًا لم يشكر ربه، ولم يعبد، بمثل شكر ذلك الوجود المقدس وعبوديته.

إن الذي يلتفت إلى الأسباب، ويرى تأثيراتها مستقلة، كافر بنعم الحق المتعالي؛ لأنه قد نحت أصنامًا وجعل لكل واحد منها دورًا مؤثرًا.

إلى متى تكفر قلوبنا الميتة بنعم الحق سبحانه، وتتعلق بهذا العالم وظروفه وأشخاصه؟ إن هذه التعلقات والتوجهات، كفران لنعم ذاته المقدس، وإسفال ستار على رحمته.

مراتب الشكر

تختلف مراتب شكر العباد باختلاف مستويات معرفتهم من جانب، واختلاف النعم من جانب آخر.

فللنعم الظاهرية مرتبة من الشكر، وللعلوم والمعارف مرتبة، وللتجليات الأسماء مرتبة، وللتجليات الذاتية الأحدية مرتبة.

ولما كانت جميع مراتب النعم متوافرة لقليل من العباد، كان النهوض بأداء الشكر على جميع المستويات لقليل من العباد، وهم الخُلَصُّ من الأولياء الجامعين لجميع الحضرات، والذين هم برزخ البرازخ، والحافظين لكل المراتب الظاهرة والباطنة، ولهذا يكون شكرهم مع جميع الألسنة: الظاهرة، والباطنة، والسرّية.

والشكر وإن قالوا: إنه من المقامات العامة؛ ولكن في النهاية يتخصّص الأمر للخُلَصِّ، بل للكَمَلين؛ ولهذا قال الشيخ العارف الخواجة الأنصاري: «وَالدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ أَنْ لَا يَشْهَدَ الْعَبْدُ إِلَّا الْمُنْعَمَ، فَإِذَا شَهِدَ الْمُنْعَمَ عُبودِيَّةً اسْتَعْظَمَ مِنْهُ النُّعْمَةَ، وَإِذَا شَهِدَهُ حُبًّا، اسْتَحْلَى مِنْهُ الشَّدَّةَ، وَإِذَا شَهِدَهُ تَفَرِيدًا لَمْ يَشْهَدْ مِنْهُ نِعْمَةً وَلَا شِدَّةً»^(١).

توضيحه: إن الدرجة الثالثة من الشكر هي مشاهدة العبد لجمال المنعم والتأمل فيه، وله مقامات ثلاثة:

الأول: أن يشاهد جمال المنعم مشاهدة العبد الذليل لمولاه، ويغفل عن نفسه ويستغرق في آداب الحضور، ولا يرى لنفسه اعتباراً؛ فإذا أنعم عليه في اللحظات التي فيها يحتقر نفسه بنعمة، استعظمها، ووجد نفسه غير مؤهل لتلك النعمة.

الثاني: أن يشاهده مشاهدة الصديق لصديقه، وفي هذه الحال يستغرق في جمال محبوبه، وكل ما يرى منه يكون محبوباً لديه، ومستمتعاً منه، حتى إذا كان شاقاً ومجهّداً.

الثالث: يشاهده مشاهدة التفريد، من دون تعيّنات الأسماء، بل يشاهد

(١) منازل السائرين، قسم الأخلاق، باب الشكر.

الذات نفسها، فيغفل عن نفسه وعن غيره، ولا يكون مشهودًا له إلا ذات الحق من دون أن يرى نعمة، أو يشاهد شدة.

فضيلة الشكر وآثاره في الأخبار المأثورة

قال رسول الله ﷺ: «الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ كَأَجْرِ الصَّائِمِ الْمُحْتَسِبِ. وَالْمُعَافَى الشَّاكِرُ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ كَأَجْرِ الْمُبْتَلَى الصَّابِرِ. وَالْمُعْطَى الشَّاكِرُ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ كَأَجْرِ الْمَحْرُومِ الْقَانِعِ»^(١).

وقال أبو عبد الله عليه السلام: «ثَلَاثٌ لَا يَضُرُّ مَعَهُنَّ شَيْءٌ: الدُّعَاءُ عِنْدَ الْكَرْبِ، وَالِاسْتِغْفَارُ عَلَى الذُّنُوبِ، وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمَةِ»^(٢).

وقال عليه السلام: «إِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ مِنَ الْمَاءِ فَيُوجِبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا الْجَنَّةَ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّهُ لَيَأْخُذُ الْإِنَاءَ، فَيَضَعُهُ عَلَى فِيهِ، فَيَسْمِي؛ ثُمَّ يَشْرَبُ، فَيُنَحِّيهِ، وَهُوَ يَشْتَهِيهِ، فَيَحْمَدُ اللَّهَ؛ ثُمَّ يَعُودُ، فَيَشْرَبُ؛ ثُمَّ يُنَحِّيهِ، فَيَحْمَدُ اللَّهَ؛ ثُمَّ يَعُودُ، فَيَشْرَبُ؛ ثُمَّ يُنَحِّيهِ، فَيَحْمَدُ اللَّهَ، فَيُوجِبُ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) بِهَا لَهُ الْجَنَّةَ»^(٣).

وحمد الله يساوي الشكر، فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام: «شُكْرُ كُلِّ نِعْمَةٍ وَإِنْ عَظُمَتْ أَنْ تَحْمَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهَا»^(٤)، و«شُكْرُ النِّعَمَةِ: اجْتِنَابُ الْمَحَارِمِ، وَتَمَامُ الشُّكْرِ قَوْلُ الرَّجُلِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»^(٥)، وعن حماد بن عثمان قال: «خَرَجَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام مِنَ الْمَسْجِدِ وَقَدْ ضَاعَتْ دَابَّتُهُ فَقَالَ: لَيْتَ رَدَّهَا اللَّهُ عَلَيَّ لِأَشْكُرَنَّ اللَّهَ

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الشكر، ح ١.

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الشكر، ح ٧.

(٣) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الشكر، ح ١٦.

(٤) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الشكر، ح ١١.

(٥) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الشكر، ح ١٠.

حَقَّ شُكْرُهُ. قَالَ: فَمَا لَبِثَ أَنْ أُتِيَ بِهَا، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ. فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: جُعِلَتْ فِدَاكَ أَلَيْسَ قُلْتُ: لَا شُكْرَنَّ اللَّهُ حَقَّ شُكْرِهِ؟ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَلَمْ تَسْمَعْ عَنِّي قُلْتُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ^(١)؛ ويفهم من هذا الحديث، أن حمد الله سبحانه وتعالى من أفضل مصاديق الشكر باللسان.

ومن آثار الشكر زيادة النعمة ووفورها، فعن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَالَ: «مَنْ أُعْطِيَ الشُّكْرَ، أُعْطِيَ الزَّيَادَةَ، يَقُولُ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ): ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾»^(٢).

تتميم

اعلم أن عائشة قد حَسِبَتْ بأن سرَّ العبادات ينحصر في الخوف من العذاب أو في محو السيئات، ولهذا بادرت إلى الاعتراض عليه قائلة: لماذا تجهد نفسك؟ وقد نشأ هذا الظن من جراء جهلها مقام العبودية والرسالة، ولما كان لا يمكن تحديث عائشة بجواب مفهم، بيّن (عليه الصلاة والسلام) بجواب مقنع، مرتبة من المراتب النازلة للعبادة، حتى تعرف بأنَّ عبادات حضرته ليست لهذه الأمور الدنية الحقيرة. والحمد لله.

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الشكر، ح ١٨.

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الشكر، ح ٨.



الْحَدِيثُ الثَّانِي وَالْعِشْرُونَ

الإنسان وكرهه للموت

عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«جاء رجلٌ إلى أبي ذرٍّ فقال: يا أبا ذرٍّ ما لنا نكره الموت؟ فقال: لأنكم عمّرتُم الدنيا وأخرتُم الآخرة، فتكرهون أن تُنقلُوا من عمرانٍ إلى خرابٍ، فقال له: فكيف ترى قُدومنا على الله؟ فقال: أمّا المحسنُ مِنْكُمْ فكَالْعَائِبِ يَقدُمُ على أهله، وأمّا المسيءُ مِنْكُمْ فكَالآبِقِ يُردُّ على مولاه. قال: فكيف ترى حالنا عند الله؟ قال: اعرضوا أَعْمَالَكُمْ على الكتاب، إن الله يقول: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾^(١). قال: فقال الرجلُ: فأين رحمة الله؟ قال: رحمة الله قريبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ». قال أبو عبد الله عليه السلام: «وكتبَ رجلٌ إلى أبي ذرٍّ - رضي الله عنه -: يا أبا ذرٍّ: أطرفني بشيءٍ مِنَ الْعِلْمِ. فكتبَ إليه: إِنَّ الْعِلْمَ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ إِنْ قَدَرْتَ أَنْ لَا تُسِيءَ إِلَى مَنْ تُحِبُّهُ فَافْعَلْ. فقال له الرجلُ: وهل رأيتَ أَحَدًا يُسيءُ إِلَى مَنْ يُحِبُّهُ؟ فقال له: نعم، نَفْسُكَ أَحَبُّ الْإِنْفُسِ إِلَيْكَ؛ فَإِذَا أَنْتَ عَصَيْتَ اللَّهَ، فَقَدْ أَسَأْتَ إِلَيْهَا»^(٢).

(١) الانقطاع: ١٣ - ١٤.

(٢) أصول الكافي المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب محاسبة العمل، ح ٢٠

كراهية الموت

الناس ينقسمون في كراهية الموت والخوف منه، على ثلاثة أقسام: ناقصون، ومتوسطون، وكَمَل.

القسم الأول: الناقصون، فالإنسان بحسب فطرته التي فطرها الله سبحانه عليها، يحب البقاء والحياة، وينفر من الفناء والممات، لذا يحب ويعشق ما يرى فيه البقاء والحياة الخالدة، ولَمَّا كُنَّا نحن الناقصين لا نُؤْمِن بعالم الآخرة، ولا تطمئن قلوبنا للبقاء السرمدي لذلك العالم، نحب هذا العالم الذي نحن فيه، ونهرب من الموت، بحسب تلك الفطرة.

إن الإدراك العقلي غير الإيمان والاطمئنان القلبي؛ نحن ندرك عقلاً، أو نصدق أحاديث الأنبياء تبعداً، بأن الموت انتقال من النشأة النازلة المظلمة الملكية إلى عالم حياة دائمة نورانية، ونشأة باقية عالية ملكوتية، ولكن قلوبنا لا تحظى بشيء من هذه المعرفة، ولو أننا آمنا بعالم الآخرة والحياة الأبدية، عُشِرَ إيماننا بحياة هذا العالم وبقائه، لتعلقت قلوبنا بذلك العالم أكثر ولعشقناه، ولسعينا قليلاً في إصلاح الطريق وترميمه؛ وعليه ينحصر العلاج الحاسم في إدخال الإيمان إلى القلب بالتفكير، والذكر النافع، والعلم، والعمل الصالح.

وأما خوف المتوسطين، وكراحتهم للموت، أي الذين لا يؤمنون بعالم الآخرة، فلأن قلوبهم انشدت إلى تعمير الدنيا، وغفلت عن تعمير الآخرة، ولهذا لا يرغبون في الانتقال من مكان فيه العمران والازدهار إلى مكان فيه الدمار والخراب؛ ولو كان إيمان الإنسان كاملاً، لم يسمح لنفسه أن يشتغل بأموره الدنيوية المنحطة ويغفل عن بناء الآخرة، ولو حاسبنا أنفسنا لما واجهنا صعوبة في موقفنا يوم الحساب، ولما دخل علينا الخوف والفرع، فعن الإمام موسى بن

جعفر عليه السلام قال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُحَاسِبْ نَفْسَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ، فَإِنْ عَمِلَ حَسَنًا، اسْتَزَادَ اللَّهَ؛ وَإِنْ عَمِلَ سَيِّئًا، اسْتَغْفَرَ اللَّهَ مِنْهُ، وَتَابَ إِلَيْهِ»^(١).

إذا انتهجت في هذا العالم صراط النبوة، ولم تنحرف عن محجة ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، ولم تنزلق أقدامك، لم يكن عليك بأس حين اجتيازك الصراط يوم القيامة؛ لأن حقيقة الصراط هي الصورة الباطنية للولاية، ففي الزيارة المباركة الجامعة الكبيرة: «أَنْتُمْ السَّبِيلُ الْأَعْظَمُ وَالصَّرَاطُ الْأَقْوَمُ». فمن استقام على هذا الصراط في حركته في الحياة الدنيا، ولم يضطرب قلبه، لم تضطرب أقدامه على الصراط في الحياة الآخرة، وإنما يجتازه كالبرق الخاطف. إذا كانت ملكاته مستقيمة ونورانية، كان في مأمن من ظلمة القبر ووحشته، وعالم القيامة وأهوالها، ولم يكن عليه خوف من تلك النشآت.

أما الكُمَّلون، والمؤمنون المطمئنون، فإنهم لا يكرهون الموت، ولكنهم يستوحشونه ويخافونه؛ لأنهم يخشون عظمة الحق المتعالي، وجلال ذاته المقدس، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «فَإَيْنَ هُوَ الْمُطَّلَعُ؟»^(٢) وكما كان أمير المؤمنين عليه السلام ليلة التاسع عشر من شهر رمضان مندهشاً دهشة عظيمة وفرعاً، على الرغم من أنه كان يقول: «وَاللَّهِ لَا بُنْ أَيْ طَالِبِ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الْفَطْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ»^(٣).

إن قلوب أولياء الله من جرّاء الخوف في منتهى الاختلاف فيما بينها في قبول تجليات الأسماء: فبعضها قلوب عشقية وشوقية، وأن الحق المتعالي يتجلّى في تلك القلوب من خلال أسمائه الجمالية، وذلك التجلي يبعث على الشوق والخوف، فإن

(١) أصول الكافي - المجلد الثاني - كتاب الإيمان والكفر، باب محاسبة العمل، ح ٢

(٢) البرهان، ج ٤، في تفسير الآية الأولى من سورة النصر، ح ٣.

(٣) نهج البلاغة: خ ٥

الخوف من مضاعفات تجلّي عظمته سبحانه وبعضها قلوب خوفية وحزينة، وأن الحق المتعالى يتجلّى في تلك القلوب بواسطة الأسماء الجلالية والعظمة، فيحصل الوجد، والحب الشديد، المشوب بالخوف، والحيرة المشوبة بالحزن. وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله رأى يوماً النبي عيسى عليه السلام يضحك، فعاتبه قائلاً: أتأمن مكر الله وعذابه، فأجاب عيسى عليه السلام: أأنت آيس من رحمة الله وفضله؟ فأوحى الله سبحانه إليهما: من كان منكما يحسن الظن بي أكثر فهو محبوب عندي أكثر. لقد تجلّى الحق المتعالى في قلب يحيى عليه السلام من خلال الأسماء الجلالية، فكان خائفاً، ومؤنباً للنبي عيسى عليه السلام بتلك الشدة؛ ولكن الحق قد تجلّى بأسمائه الجمالية في قلب عيسى عليه السلام فأجاب بحسب تجليات الرحمة.

الجنة والنار وأعمال الإنسان

في الحديث «يا محمد، اقرأ أمتك عني السلام، وأخبرهم أن الجنة مأوها عذب، وتربتها طيبة، فيها قيعان بيض، غرسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فمر أمتك فليكثرُوا من غرسها»^(١). وفي الحديث، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لما أُسري بي إلى السماء، دخلت الجنة، فرأيت فيها قيعان، ورأيت فيها ملائكة بينون، لبنة من ذهب، ولبنة من فضة؛ وربما أمسكوا؛ فقلت لهم: ما بالكم قد أمسكتكم؟! فقالوا: حتّى تجيئنا النفقة. فقلت: وما نفقتكم؟ قالوا: قول المؤمن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر؛ فإذا قال بنينا، وإذا سكت أمسكنا»^(٢).

(١) أمالي الصدوق ص ٣٦٦ المجلد ٦٩

(٢) بحار الأنوار، المجلد ١٨، ص ٢٩٢

وخلاصة الحديث: أن صورة الجنة وجهنم، الجسمانيتين الماديتين، هي صور الأعمال الحسنة والسيئة، لبني آدم؛ إذ تعود إليهم يوم الآخرة، والآيات الشريفة قد أشارت إلى ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾^(١)، وقوله: ﴿إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ إِلَيْكُمْ﴾^(٢).

ومن الممكن أن يكون عالم الجنة وعالم جهنم نشأتين ودارين مستقلين يتحرك إليهما بالحركة الجوهرية، والدوافع الملكوية والحركات الإرادية العملية والخلقية. وإن كانت حظوظ كل الناس من صور أعمال أنفسهم. وبهذا البيان نجتمع بين ظواهر الكتاب والأخبار المختلفين بحسب الظاهر.

تغريب الشيطان والنفس

لا يخفى أن حديث أبي ذر (رضوان الله تعالى عليه) في هذا المقام، حديث جامع، وكلام متين، لا بد من المحافظة عليه، فإنه لما قال: اعرضوا أعمالكم على الكتاب الكريم حيث يقول: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾. تمسك الرجل بالرحمة قائلاً: فأين رحمة الله؟ قال أبو ذر: ليست رحمة الحق بلا قيد، ولا شرط، بل هي قريبة من المحسنين.

آخر وسيلة يلتجئ إليها الشيطان الملعون، والنفس الأمارة بالسوء هي تغريب الإنسان برحمة الحق سبحانه، ومنعه بذلك عن المضي في العمل الصالح، إننا في قضايانا الدنيوية، لا نعتمد على رحمة الحق سبحانه بل نرى العوامل الطبيعية والظاهرية، مستقلة ومؤثرة، وكأنه لا أثر في الوجود إلا للأسباب

(١) الكهف: ٤٩

(٢) علم اليقين، المجلد ٢، ص ٨٨٤

الظاهرية. ولكننا في الأمور الأخروية نتكل غالبًا بحسب زعمنا على رحمة الحق سبحانه، ونغفل عن توجيهه لنا، وخلاصة الكلام: نكون في شؤوننا الدنيوية من المفوضة، وفي شؤوننا الأخروية من الجبريين، غافلين عن أن هذين المسلكين باطلان وفاسدان، ادرس سير الأنبياء عليهم السلام، وأدعية الإمام زين العابدين عليه السلام وتدبر: ماذا كان يفعل في مقام العبودية؟ وعلى رغم ذلك عندما يلقي نظرة على صحيفة أمير المؤمنين عليه السلام، يبدي أسفه، ويظهر عجزه!

فنحن إما أن نكذبهم - نعوذ بالله - ونقول بأنهم لم يطمئنا، ولم يؤمنوا برحمة الحق سبحانه، أو نكذب أنفسنا، ونفهم بأن هذه الأقوال التي نتفوه بها من مكائد الشيطان وإغراءات النفس، إذ يريدان تضليلنا عن الصراط المستقيم. نعوذ بالله من شرهما. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا.



الْحَدِيثُ الثَّلَاثُ وَالْعِشْرُونَ

المراء والجدل

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ:

«طَلَبَةُ الْعِلْمِ ثَلَاثَةٌ، فَأَعْرِفُهُمْ بِأَعْيَانِهِمْ، وَصِفَاتِهِمْ: صِنْفٌ يَطْلُبُهُ
لِلْجَهْلِ، وَالْمِرَاءِ؛ وَصِنْفٌ يَطْلُبُهُ لِلْاِسْتِطَالَةِ، وَالْخُتْلِ؛ وَصِنْفٌ يَطْلُبُهُ
لِلْفَقْهِ، وَالْعَقْلِ. فَصَاحِبُ الْجَهْلِ وَالْمِرَاءِ مُوْذٍ، مُمَارٍ، مُتَعَرِّضٌ لِلْمَقَالِ فِي
أَنْدِيَةِ الرِّجَالِ بِتَذَاكُرِ الْعِلْمِ، وَصِفَةِ الْحِلْمِ، قَدْ تَسَرَّبَلَ بِالْخُشُوعِ، وَتَخَلَّى
مِنَ الْوَرَعِ؛ فَدَقَّ اللَّهُ مِنْ هَذَا خَيْشُومَهُ، وَقَطَعَ مِنْهُ حَيْزُومَهُ. وَصَاحِبُ
الْاِسْتِطَالَةِ، وَالْخُتْلِ، ذُو خَبٍّ وَمَلَقٍ، يَسْتَطِيلُ عَلَى مِثْلِهِ مِنْ أَشْبَاهِهِ،
وَيَتَوَاضَعُ لِلْأَغْنِيَاءِ مِنْ دُونِهِ، فَهُوَ لِحُلُوَائِهِمْ هَاضِمٌ، وَلِدِينِهِ حَاطِمٌ،
فَأَعْمَى اللَّهُ عَلَى هَذَا خُبْرَهُ، وَقَطَعَ مِنْ آثَارِ الْعُلَمَاءِ أَثَرَهُ. وَصَاحِبُ
الْفَقْهِ، وَالْعَقْلِ، ذُو كَأَبَةٍ وَحُزْنٍ، وَسَهَرٍ، قَدْ تَخَنَّكَ فِي بُرْنِسِهِ، وَقَامَ
اللَّيْلَ فِي حِنْدِسِهِ؛ يَعْمَلُ، وَيَخْشَى، وَجِلًّا، دَاعِيًّا، مُشْفِقًا، مُقْبِلًا عَلَى
شَأْنِهِ، عَارِفًا بِأَهْلِ زَمَانِهِ، مُسْتَوْحِشًا مِنْ أَوْثِقِ إِخْوَانِهِ، فَشَدَّ اللَّهُ مِنْ
هَذَا أَرْكَانَهُ وَأَعْطَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمَانَهُ»^(١).

(١) أصول الكافي، المجلد ١، كتاب فضل العلم، باب النوادر، ح ٥

معاني المفردات:

فَأَعْرِفُهُمْ بِأَعْيَانِهِمْ: أَعْرِفُهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَحَدَّدُوا، وَيَتَشَخَّصُوا، وَلَا يَلْتَبِسُوا عَلَيْكَ.

صِفَاتِهِمْ: الْحَالَاتُ الَّتِي تَتَّبِعُ الْمَلَكَاتِ وَالْأَعْرَاضِ هَذِهِ الصِّفَاتُ الثَّلَاثَةُ، مِثْلُ: مُؤَذٍّ، مُرَاءٍ، مُتَعَرِّضٍ؛ فَبِهَذِهِ الْأَوْصَافِ يَتِمُّ تَعْرِيفُ أَحْوَالِهِمْ وَيَتَشَخَّصُونَ بِأَعْيَانِهِمْ.

الْجَهْلُ: خِلَافُ الْعِلْمِ، وَلَعَلَّ الْمَقْصُودَ مِنْهُ هُنَا، إِخْفَاءُ الْحَقِّ، أَوْ تَجَاهُلُهُ، وَرَفْضُ قَبُولِ الْحَقِّ.

المراء: الجدل في الرأي والحديث

الاستِطَالَة: طلب الرفعة.

الْحَتْلُ: الخدعة والمكر.

مُتَعَرِّضٌ لِلْمَقَالِ: أَيِ إِظْهَارِ الْمَقَالِ.

الْأَنْدِيَّةُ: جَمْعُ «النَّادِي» وَهُوَ مَحَلُّ اجْتِمَاعِ الْقَوْمِ، وَمَجْلِسُ التَّدَاوُلِ لِقَضَايَاهُمْ.

بِتَذَاكُرِ الْعِلْمِ: الظَّرْفُ إِذَا مَتَّعِلِقٌ بِالْمَقَالِ أَوْ بَدَلٍ عَنِ الْمَقَالِ.

صِفَةُ الْحِلْمِ: مَعْطُوفَةٌ عَلَى تَذَاكُرِ الْعِلْمِ.

أَيِ: يَتَذَاكُرُونَ الْعِلْمَ حَتَّى يَجْعَلُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْمُنْتَمِينَ إِلَيْهِ؛ وَيَصِفُونَ الْحِلْمَ، وَيُسْتَحْسِنُونَهُ، حَتَّى يُعَدُّوا مِنَ الْحُكَمَاءِ.

تَسْرَبَلٌ: لَيْسَ السَّرْبَالُ ، وَتَسْرَبَلٌ بِالْخُشُوعِ: أَيِ ارْتَدَى لِبَاسَ الْخُشُوعِ، وَأَظْهَرَ مَلَازِمَتَهُ كَمَا يُلْصِقُ الثَّوْبَ بِالْجِسْمِ وَيُلَازِمُهُ. فِي حِينِ أَنَّهُ خَالٍ عَنْهُ، كَالثَّوْبِ الَّذِي يَكُونُ اسْتِعَارَةً عَلَى الْجِسْمِ.

الْوَرَع: الابتعاد، واجتناب المحرمات، والمشتبهات.
 دَقَّ: قرع، أو آثت اسم صوت.
 مِنْ هَذَا: من أجل كل واحد من هذه الخصال.
 وَالْخَيْشُوم: أعلى الأنف. ودَقَّ الخيشوم: كناية عن الذل والهوان؛ أي أن الله
 (سبحانه، وتعالى) لأجل تلك الخصال يذللهم.
 وَالْحَيْزُوم: ما يضم عليه الحزام المَحْزَمُ.
 وَالْحَبَّ: الخدعة، والحُبْث، والغش.
 وَمَلَقَّ: مترلَّف.
 حَلَوَائِهِمْ: ما يدفع له الأغنياء مكافأة لأعماله، التي أنجزها لهم، ولتنازله
 عن مواقفه الدينية.
 الحَطْم: الكسر.
 خُبْرُهُ: يحتمل أن تكون بضم الخاء المعجمة وسكون الباء بمعنى الخبرة
 والبصيرة. ويحتمل أن يكون بفتح الخاء والباء. ولما كان الفعل منسوب إليه، كان
 المعنى الأوّل أنسب، وإن كان المعنى الثاني، لا يخلو عن وجه.
 والكَاَبَةُ: سوء الحال والذبول من شدة الهم والحزن.
 تَحَنَّكَ: يعني جعل تحت الحنك (الطرف من العمامة على الرأس).
 البُرُئْس: قلنسوة طويلة كان أهل العبادة في صدر الإسلام يضعونها على
 رؤوسهم.
 وَالْحِنْدِس: الليل الشديد الظلام.
 فَشَدَّ اللَّهُ أَرْكَانَهُ: يُقال: شدَّ عضده أي قواه، «الرُّكْن» هو الذي يُعتمد ويُقام
 عليه.

كيفية حصول العلم الصحيح

في تحصيل العلوم للمقدمات دور إعدادي للنفس، لتلقي العلوم المفاضة عليها من المبادئ العالية الغيبية؛ وقد ورد في الحديث الشريف: «لَيْسَ الْعِلْمُ بِكَثْرَةِ التَّعْلِيمِ بَلْ هُوَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي قَلْبٍ مَن يَشَاءُ»^(١). فإذا كانت النفس ذات ارتباط بالملكوت الأعلى، وعالم الملائكة المقربين، كانت الإلقاءات إليها من نوع الفيوضات الملكيّة، والعلوم التي تفاض عليها هي من العلوم الحقيقية، ومن عالم الملائكة. وإذا كانت النفس منشدة إلى عالم الملكوت السفلي، وعالم الجن والشيطان، والنفوس الخبيثة، كانت الإلقاءات إليها شيطانية، ومن قبيل الجهل المركب، والحُجب المظلمة.

ومن هذا المنطلق يرى أصحاب العلوم الحقيقية أن تطهير النفوس، وإخلاص النية في تحصيل العلم، ولا سيما في دراسة المعارف الحقّة والعلوم الشرعية، هو الشرط الأول في ذلك، ويؤكدونه للمتعلمين، وعندما يقول الرب جلّ جلاله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾^(٢) فذلك لأن التقوى تزكّي النفس وتربطها بعالم الغيب المقدس، فيكون التعليم إلهيًّا، والإلقاء رحمانيًّا. وحين يطلب الإنسان العلم من أجل تعمير نفسه ومأكله، ومشربه، وأنايته النفسانية، يغدو الهدف غير إلهي، وتصبح الإلقاءات شيطانية.

إن المقياس في العلم ليس تجميع المفاهيم الكلية، والاصطلاحات العلمية، بل رفع الحجب عن عين البصيرة للنفس، وفتح باب معرفة الله، إذ يكون العلم الحقيقي هو مصباح هداية الملكوت، والصراط المستقيم، للتقرب إلى الحق، ودار

(١) بحار الأنوار، مجلد ١، ص ٢٢٥.

(٢) البقرة: ٢٨٢

كرامته؛ وكل ما عدا ذلك هو من الحجب الغليظة وإن سميت علماً.
 إنّ طلاب العلم ينقسمون على نحو كلّيٍّ أوليٍّ إلى طائفتين:
 إحداهما: مَنْ هدفهم من وراء طلب العلم إلهي.
 والأخرى: مَنْ مقصودهم من وراء الدراسة أمور نفسية؛ والعلوم الصورية
 التي تحصل لديهم، حقيقتها الجهل المركب، والحجب الملوّنة.
 وفي هذه الرواية جعل الإمام الصادق (عليه السلام) الناس على ثلاثة أصناف - على
 الرغم من أنهم بحسب التقسيم الأولى الكليّ صنفان يدوران بين النفي
 والإثبات، لأجل التنبيه إلى هذين الصنفين اللذين يعود إليهما معظم أصحاب
 الجهل والضلال؛ والجهل الذي عناه الإمام (عليه السلام)، غير الجهل بالمعنى العرفي،
 والمقصود به: إما التباس الأمور، وإلقاء الناس في الجهالة، وإما التجاهل، وعدم
 الإذعان للحق.

ولهذا نجد في رواية أخرى الإمام الصادق (عليه السلام)، يصنف طلاب العلوم
 صنفين، فيقول: «مَنْ أَرَادَ الْحَدِيثَ لِمَنْفَعَةِ الدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ. وَمَنْ
 أَرَادَ بِهِ خَيْرَ الْآخِرَةِ أَعْطَاهُ اللَّهُ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(١).

مفاسد المرء والجدل

قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «يَاكُمْ وَالْمِرَاءَ، وَالْخُصُومَةَ، فَإِنَّهُمَا يُمْرِضَانِ الْقُلُوبَ
 عَلَى الْإِخْوَانِ وَيَنْبُتُ عَلَيْهُمَا النَّفَاقُ»^(٢).
 إنّ الأعمال الظاهرية تترك آثاراً في الباطن والقلب، تناسب تلك الأعمال،

(١) أصول الكافي مجلد ١، كتاب فضل العلم، باب المستأكل بعلمه، ح ٢

(٢) أصول الكافي مجلد ٢، كتاب الإيمان والكفر، باب المرء والخصومة، ح ١.

وتأثير الأعمال السيئة في القلب أسرع وأكثر؛ لأن الإنسان نتاج عالم الطبيعة. وأن القوى الشهوية والغضبية والشيطانية ترافقه، وتتصرف فيه، وقد ورد في الحديث: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مَجْرَى الدَّمِّ مِنْ بَنِي آدَمَ»^(١)، ولهذا يتجه القلب نحو المفسد، ولدى وصول أقل مدد من أعضاء الإنسان، أو صديق منحرف سيئ، يتحقق الأثر الشديد في القلب، وقد ورد النهي عن صداقة المنحرفين، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لَا يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ الْمُسْلِمِ أَنْ يُوَاخِيَ الْفَاجِرَ فَإِنَّهُ يُزَيِّنُ لَهُ فِعْلَهُ، وَيُحِبُّ أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُ، وَلَا يُعِينُهُ عَلَى أَمْرِ دُنْيَاهُ، وَلَا أَمْرِ مَعَادِهِ، وَمَدْخُلُهُ، إِلَيْهِ وَخَرَجُهُ مِنْ عِنْدِهِ شَيْنٌ عَلَيْهِ»^(٢)؛ والنكته المهمة في النهي عن مخالطتهم هي تأثير أخلاقهم في الإنسان؛ والأهم من كل ذلك هو تأثر روح الإنسان بأعماله، فإن في ممارسة قليلة للأعمال السيئة، تأثير كبير في الروح، قد لا يمكن تطهيرها منه في سنين طويلة.

إن الإنسان إذا انصرف إلى المراء والخصومة حصلت بعد مدة ظلمة موحشة في القلب، وأفضت الخصومة اللسانية الظاهرية إلى الخصومة القلبية الباطنية، وهذا هو السبب الكبير للنفاق والتلون. فلا بد من معرفة أن مفسد النفاق تعود إلى مفسد المراء والجدال أيضًا.

وذكر الإمام الصادق عليه السلام آثارًا وعلائم لصاحب الجهل والمراء، منها: **أولاً:** إيذاء الناس، وسوء مجلسه، وهذه من الصفات الذميمة، والمفسد التي تسبب هلاك الإنسان؛ وفي الحديث الشريف: «مَنْ آذَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ»^(٣).

(١) سنن الدارمي، المجلد ٢، ص ٣٢٠.

(٢) أصول الكافي المجلد الثاني، كتاب العشرة، باب من تركه مجالسته، ح ١٣ و ٣.

(٣) أصول الكافي المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب من آذى المسلمين، ح ٨.

ثانيًا: المراء والتصديّ للحديث والبحث العلمي من أجل التغلب على الآخرين، وإظهار علمه.

أما جعله ﷺ المراء علامة على المراء، فيمكن أن يكون المقصود من المراء الأول: الصفة القلبية، وملكته الخبيثة، ومن الثاني: الأثر الظاهر منه.

ثالثًا: أن يظهر الاتصاف بالحلم كذبًا، وهذا هو النفاق، وذو الوجهين والرياء والشرك، وإن إظهار الخشوع على الرغم من الخلو من الورع من أوضح مصاديق الشرك والرياء والنفاق والتلون.

وهنا نكتة لو وقف عندها الإنسان وتأمل فيها لانقصم ظهره، وهي أن الإمام الصادق عليه السلام يقول بعد ذكره لهذه العلامة: «فَدَقَّ اللهُ مِنْ هَذَا خَيْشُومَهُ وَقَطَعَ مِنْهُ خَيْزُومَهُ» وهذه الجملة إما إخبار أو دعاء؟ وعلى أي حال فإنها ستتحقق؛ لأنها إذا كانت إخبارًا، فإنها إخبار صادق مصدق، وإذا كانت دعاءً فهو دعاء معصوم ووليّ الله، وهو مستجاب، وهذا كناية عن الذل والهوان والفضيحة. ومثله ما في آخر الحديث: «فَأَعَمَّى اللهُ عَلَى هَذَا خُبْرَهُ، وَقَطَعَ مِنْ أَثَارِ الْعُلَمَاءِ أَثَرَهُ».

في المراتب الظاهرية والباطنية للمراء وآثارها

إنّ للمراء مرتبة باطنية، وملكة نفسانية، وله مرتبة ظاهرة، هي نتاج تلك المرتبة الباطنية، وآية وعلامة عليها. فمن كانت له ملكة الاستطالة والترفع، وحب الرئاسة، والتزوير، وخداع الناس، كانت لها علامات وآثار ظاهرية أيضًا، ذكر بعضها الإمام الصادق عليه السلام وهي: الخدعة والاحتيال على الناس، فإنه يجعل نفسه من أهل الصلاح في حين أنّه في الحقيقة لم يكن منهم. وهؤلاء الناس

ذئاب في زي الحَمَلِ الوديع، وشياطين في هيكل الإنسان؛ وإنهم أسوأ خلق الله، وإساءتهم إلى دين الناس أكثر من إساءة جيوش المخالفين الأعداء.

ومن الآثار الظاهرية للجهل والمرء

الأول: أنهم يتواضعون لمن يطمعون فيه، وينصبون له شَرَكَ التَّدْلِيسِ والتملق، فهم يدفعون بدينهم وإيمانهم، كي يفيدوا من دنياهم، وهؤلاء من الذين ورد فيهم الحديث: «يَطْلُعُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيَقُولُونَ: مَا أَدْخَلَكُمُ النَّارَ وَإِنَّمَا دَخَلْنَا الْجَنَّةَ بِفَضْلِ تَعْلِيمِكُمْ، وَتَأْدِيبِكُمْ؛ فَيَقُولُونَ: إِنَّا كُنَّا نَأْمُرُكُمْ بِالْخَيْرِ، وَلَا نَفْعَلُهُ»^(١).

الثاني: إنهم يتكبرون على أمثالهم الذين لا يطمعون فيهم دنيوياً ولكنهم يرونهم عثرات في طريق تقدمهم، فيترفعون عليهم ويحقرونهم؛ لأنهم يخشون أن ينافسوه يوماً من الأيام.

العلماء بين الاستقامة والانحراف

من أصعب الأمور، وأقسى الأشياء، محافظة العلماء، والزهاد، والمتقين، على دينهم ومراقبة قلوبهم في حياتهم؛ ولهذا إذا نهض شخص من هذه الطبقة بوظائفه بإخلاص نية، وسلك طريق العلم، والزهد، والتقوى، كان من المقربين والسابقين، قال الإمام الصادق عليه السلام: «زُرَّارَةٌ، وَحُمَمَدُ بْنُ مُسْلِمٍ، وَأَبُو بَصِيرٍ، وَبُرَيْدٌ، مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾»^(٢).

(١) وسائل الشيعة، المجلد ١١، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باب ١٠، ح ١٢

(٢) وسائل الشيعة، المجلد ١٨، الباب ١١، من أبواب صفات التآخي، ح ٢٢

ويكفي فضل أهل العلم الحديث المنقول عن رسول الله ﷺ: «مَنْ جَاءَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ لِيُحْيِيَ بِهِ الْإِسْلَامَ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ دَرَجَةٌ وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ»^(١).

وإذا انحرف العالم - لا سمح الله - عن طريق الإخلاص، وسلك طريق الباطل، عُذَّ من علماء السوء، الذين هم أسوأ خلق الله، وقد وردت فيهم أحاديث شديدة، وتعبيرات قاسية.

ويجب على طلاب العلوم الدينية، والسالكين لهذا السبيل المحفوف بالمخاطر، أن يكون أول ما يضعونه بعين الاعتبار، إصلاح أنفسهم في أثناء الدراسة وأن يفضّلوه على كل شيء؛ لأنه أوجب كل الواجبات العقلية، والفرائض الشرعية، وأصعبها.

فيا طلاب العلوم الإسلامية، والكمالات، والمعارف، استيقظوا من نومكم، واعلموا أن الله قد أتمَّ الحجة عليكم أكثر، وسيحاسبكم أشدَّ، ويكون ميزان أعمالكم وعلومكم مغايرًا كليًا لميزان جميع العباد، وصراطكم أرق وأدق، ومحاسبة الله لكم أعظم. والويل لطالب علم إذا بعث علمه في قلبه الظلمة والكدر.

علامات أهل الفقه والفلسفة

لأصحاب الفقه والعقل، الذين يقصدون التفقه في الدين وإدراك الحقائق، علامات وآثار، عمدتها ما ذكره الإمام عليه السلام:

منها: الحزن، والهَمُّ، والانكسار، الناجمة عن الخوف من المعاد، والتقصير في

(١) سنن الدارمي، المجلد ١، ص ١٠٠

وظائف العبودية. إِنَّ الانكسار والحزن ينيران القلب ويجليّانه، وهما مبدأ إصلاح النفس، ومنشأ النهوض بوظائف العبودية. وإن هذا النور - نور القلب - يسلب السكون والقرار من النفس، ويجعله مستمتعاً في مناجاة الحق المتعالي فيحيي ليلاليه بوظائف العبودية؛ قال عليه السلام: «قَدْ تَحَنَّنَكَ فِي بُرْنُسِهِ، وَقَامَ اللَّيْلَ فِي حِنْدِسِهِ» فإن الجملة الأولى كناية عن ملازمة العبادة.

ومنها: أَنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ قِيَامِهِ بِوُظَائِفِ الْعِبَادَةِ يَعِيشُ حَالَةَ الْفَزَعِ؛ لِأَنَّ نَوْرَ الْعِلْمِ يَهْدِيهِ إِلَى أَنَّهُ كَلِمَا أَدَّى وَظَائِفُهُ، شَعْرٌ بِالْقُصُورِ أَوْ التَّقْصِيرِ، فَيَمْتَلِئُ قَلْبُهُ خَوْفًا وَخَشْيَةً. وَقَدْ قَالَ الْحَقُّ جَلَّ جَلَالُهُ فِيهِمْ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(١).

إِنَّ نَوْرَ الْعِلْمِ يَبْعَثُ عَلَى الْخَشْيَةِ وَالْحَزَنِ، وَصَاحِبُهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ إِقْبَالِهِ عَلَى إِصْلَاحِ نَفْسِهِ، لَا يَقَرُّ لَهُ قَرَارٌ مِنْ جَرَاءِ خَوْفِهِ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيُدْفَعُهُ نَحْوَ الطَّلَبِ مِنَ اللَّهِ فِي أَنْ يَصْلَحَهُ؛ وَيَحْذَرُهُ مِنَ الْإِنْشَغَالِ بِغَيْرِ الْحَقِّ؛ وَيَبْعَدُهُ عَنْ أَهْلِ زَمَانِهِ، وَيَجْعَلُ هَاجِسَهُ الْخَوْفَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا أَنْ يَمْنَعُوهُ مِنَ السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ، وَيَزِينُوا الدُّنْيَا وَلِذَٰئِذَا فِي عَيْنِهِ؛ وَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ يُؤَيِّدُ مِثْلَ هَذَا الْعَالَمِ الرَّبَّانِيِّ، وَيَقْوِي وَجُودَهُ، وَيَنْعَمُ عَلَيْهِ بِالْأَمَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

فَيَا لَيْتَنَّا كُنَّا مَعَهُمْ فَتَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ.



الْحَدِيثُ الرَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ

الْعِلْمُ

عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال:

«دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا جَمَاعَةٌ قَدْ أَطَافُوا بِرَجُلٍ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقِيلَ: عَلَامَةٌ، فَقَالَ: وَمَا الْعَلَامَةُ؟ فَقَالُوا لَهُ: أَعَلِمَ النَّاسُ بِأَنْسَابِ الْعَرَبِ، وَوَقَائِعِهَا، وَأَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالْأَشْعَارِ الْعَرَبِيَّةِ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ذَاكَ عِلْمٌ لَا يَضُرُّ مَنْ جَهِلَهُ وَلَا يَنْفَعُ مَنْ عِلِمَهُ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّمَا الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ، أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ، أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ؛ وَمَا خَلَاهُنَّ فَهُوَ فَضْلٌ»^(١).

معاني المفردات

ما هذا: للتحقير.

والعلامة: صيغة مبالغة، والمعنى: كثير العلم جدًا.

من: للسؤال عن الشخص؛ وما: للسؤال عن الحقيقة؛ أو عن شرح الاسم ومفهومه؛ ولما قالوا: إن هذا الرجل علامة، تعلق غرض خاتم النبيين بمعرفة حقيقة الوصف بحسب زعمهم، فقال: وما العلامة؟ ولم يقل: من العلامة؟ أو: لماذا يقال له العلامة؟ أو: ما السبب في كونه علامة؟.

(١) أصول الكافي، المجلد الأول، كتاب فضل العلم، باب صفة العلم وفضله، ح ١

أقسام العلوم النافعة

العلوم النافعة تنقسم على ثلاث أقسام:

الأول: علم راجع إلى الكمالات العقلية والوظائف الروحية؛ العلم بالذات المقدس الحق جلّ وعلا، ومعرفة أوصافه الجمالية والجلالية، والعلم بالعوالم الغيبية المجردة مثل الملائكة وأصنافهم من أعلى مراتب الجبروت الأعلى والملكوت الأعلى إلى نهاية الملكوت السفلي والملائكة الأرضية وجنود الحق سبحانه. والعلم بالأنبياء والأولياء ومقاماتهم ومدارجهم، والعلم بالكتب المنزلة، وكيفية نزول الوحي، وتنزل الملائكة والروح. والعلم بنشأة الآخرة وكيفية عودة الموجودات إلى عالم الغيب، وحقيقة عالم البرزخ والقيامة، وتفصيل ذلك.

ويتكفل بيان هذا العلم بعد الأنبياء، والأولياء، الفلاسفة، والعظماء من الحكماء، وأصحاب المعرفة، والعرفان.

الثاني: علم راجع إلى الأعمال القلبية ووظائفها، وهو العلم بالمنجيات الخُلُقِيَّة والمهلكات، أي العلم بمحاسن الأخلاق وكيفية تحصيلها، وأسباب حصولها ومبادئها وشرائطها، والعلم بقبائح الأخلاق ومبادئها، وكيفية التنزه عنها.

والذي يتولّى بيان هذه الأمور أيضًا الأنبياء، والأوصياء عليهم السلام، ثم علماء الأخلاق، وأصحاب الرياضة الروحية وذوي المعارف.

الثالث: علم تناط به تربية الظاهر، نحو: علوم: الفقه، وآداب المعاشرة، وتدبير المنزل، وسياسة المَدُن؛ ويتكفل بشرحها الأنبياء ثم الأولياء عليهم السلام ثم علماء الظاهر من الفقهاء والمحدّثين.

ولابد من معرفة ترابط هذه المراتب الثلاث لدرجة انعكاس آثار كل مرتبة على الأخرى من دون فرق في ذلك بين الأمور الكمالية، أو الأمور القبيحة المعيبة.

إنّ تهذيب الخلق، وتحسين الباطن، وكمال الإيمان، ومتانة العقائد، ترك آثاراً على نشأتي: البرزخ والقيامة؛ لشدة الارتباط بين العوالم الثلاثة، بل إن العوالم الثلاثة حقيقة واحدة، ذات مظاهر ثلاثة. فيلزم على طالب السفر إلى عالم الآخرة، أن يتمعن في كل واحدة من المراتب الثلاث، ويشدد مراقبتها، ويصلحها، ولا يلوي بوجهه عن كل واحد من الكمالات العلمية والعملية، ولا يكتفي بإحداها.

إن رسول الله ﷺ قد قسّم في هذا الحديث الشريف العلوم على ثلاثة أقسام. ولا شك في أن هذه العلوم الثلاثة مرتبطة بهذه المراتب الثلاث، تشهد بذلك العلوم السائدة في الكتب الإلهية وسنن الأنبياء وأحاديث المعصومين عليهم السلام.

إن علوم الشريعة منحصرة في هذه الأقسام الثلاثة، بحسب حاجات الإنسان، والمقامات الإنسانية الثلاثة. ولا يحقّ لأحد من العلماء في هذه العلوم الثلاثة أن يطعن في الآخر، ولا يجب على الإنسان إذا جهل علماً أن يكذبه، ويتناول على صاحبه؛ فإذا سألنا الله سبحانه يوم القيامة، وقال (مثلاً): أنتم لم تكونوا تعرفون معنى وحدة الوجود، بحسب مسلك الحكماء، ولم تتعلّموه من الإنسان المتخصص في ذلك العلم، وصاحب ذلك الفن؛ ولم تحصلوا على علم الفلسفة ومقدماتها، فلماذا أهتم القائل بها وكفّرتموه من دون معرفة؟ فماذا نملك من جواب أمام ساحة قدسه، عدا أن نطأطئ الرأس حياءً وخجلاً؟. إن لكل علم مبادئ ومقدمات، ولا يتسير فهم ذلك العلم إلّا بعد استيعاب تلك

المقدمات، ولا سيما مثل هذه المسألة الدقيقة التي استنزفت جهود أجيال تلو أجيال، وعلى الرغم من ذلك يصعب فهم أصل الحقيقة ومغزاها على نحو دقيق. وهكذا إذا سأل الله سبحانه حكيمًا متفلسفًا، أو عارفًا متصنِّعًا، لماذا جعلت العالم الفقيه قشريًا وظاهريًا وطعنت فيه؟ بل ما المسوِّغ الشرعي لقدحك في سلسلة من العلوم الشرعية، التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام من ربهم لتكميل النفوس البشرية، وفي تكذيبك إيَّاه وإهانتها؟

الآية المحكمة، والفريضة العادلة، والسنة القائمة

الآية المحكمة، هي: العلوم العقلية، والعقائد الحقّة، والمعارف الإلهية، لأمرين: أحدهما: أن كلمة (آية) بمعنى: العلامة، وتناسب العلوم العقلية الاعتقادية؛ لأن هذه العلوم هي علامات الذات والأسماء والمعارف الأخرى، فنجدها في موارد كثيرة من الكتاب الإلهي، بعد استعراض البرهان على وجود الصانع المقدس، أو أسمائه، وصفاته، أو على وقوع القيامة، وكيفيّتها، وعالم الغيب، والبرزخ، نحو: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾^(١)، أو ﴿الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾^(٢)، وهذا تعبير شائع بالنسبة إلى هذه العلوم والمعارف؛ في حين أن كلمة (آية) لو ذكرت إثر مسألة فقهية شرعية، أو أصل من الأصول الأخلاقية، لكان مستهجنًا. فعُلم أن (الآية)، والعلامة، من مختصات علوم المعارف الإلهية. والآخر: أن التوصيف بـ(المُحكمة) مما ينسجم مع هذه العلوم؛ لأن هذه العلوم تخضع للموازين العقلية والبراهين المحكمة؛ وأما بقية العلوم فلا يوجد

(١) النحل: ١١

(٢) يونس: ٢٤

لها غالباً دليل قاطع ومتمين.

والفريضة العادلة: علم الأخلاق، وتطهير القلوب، لأمرين:

أحدهما: وصفها بالعدالة؛ لأن الخلق الحسن في علم الأخلاق هو الاعتدال بين حدّي: الإفراط والتفريط، فإن كُلاًّ منهما مذموم ومشين، فالشجاعة هي الحالة المعتدلة بين الإفراط، الذي يُعبّر عنه بالتَهَوُّر (وهو عدم الخوف في مورد ينبغي الخوف فيه)، والتفريط الذي يعبر عنه بالجُبْن (وهو الخوف في موارد لا ينبغي الخوف فيها).

والآخر: أن كلمة (الفريضة) تُشعر بذلك أيضاً؛ لأن الفريضة المقابلة للسنة الراجعة إلى القسم الثالث، يجد العقل إلى استيعابها سبيلاً، كما هو شأن علم الأخلاق، على خلاف السنة التي تكون تعبدًا صرفًا ويكون العقل عاجزًا عن إدراكه.

والسنة القائمة: تعود إلى العلوم التعبدية، والآداب الشرعية، التي يعبر عنها بالسنة (فعل المعصوم، وقوله، وتقريره)، لأمرين:

أحدهما: تعجز العقول غالباً عن إدراكها، فينحصر طريق إثباتها وفهمها، بالسنة.

والآخر: توصيفها بالقائمة يناسب الواجبات الشرعية؛ لأن التعبير بإقامة الواجبات من الصلوات والزكوات، وغيرهما من التعابير الشائعة الصحيحة؛ في حين أن هذه الكلمة لم تستعمل في العلمين الآخرين.

علامات العلوم النافعة

لقد عبّر الحديث الشريف عن علم العقائد والمعارف بـ (الآية)، والسّر في

ذلك أن العلوم العقلية، والحقائق الاعتقادية إذا تمّ تحصيلها لأجل نفسها ولأجل تجميع المفاهيم والمصطلحات والحصول على المقامات الدنيوية، لا تكون من الآيات المحكمة، وإنما هي حجب غليظة وأوهام واهية؛ لأن الإنسان إذا لم يتبع من وراء طلب العلم الوصول إلى الحق، والتحقق بأسماء الله وصفاته، والتخلق بأخلاق الله، ستتحول إدراكاته إلى دركات، وحجب مظلمة، تسود قلبه، وتعمي بصيرته، ويصبح من مصاديق قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِيكَ ^(١)؛ فإن المقياس في البصر في عالم الآخرة، هو بصيرة القلب، وأن الجسم والقوى تابعة له.

إن القرآن الكريم قد ذكر مقياس معرفة العلماء: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ * فمن لا يخشى الحق المتعالي ليس من العلماء، وفي الحديث الشريف: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «يا طالب العلم، إن للعلم فضائل كثيرة، فرأسه التواضع؛ وعينه البراءة من الحسد؛ وأذنه الفهم؛ ولسانه الصدق؛ وحفظه الفحص؛ وقلبه حسن النية؛ وعقله معرفة الأشياء والأمر؛ ويده الرحمة؛ ورجله زيارة العلماء؛ وهمة السلامة؛ وحكمته الورع؛ ومستقره النجاة؛ وقائده العافية؛ ومركبه الوفاء؛ وسلاحه لين الكلمة؛ وسيفه الرضا؛ وقوسه المداراة؛ وجيشه محاوره العلماء؛ وماله الأدب؛ وذخيرته اجتناب الذنوب؛ وزاده المعروف؛ ومأواه الموادة؛ ودليله الهدى؛ ورفيقه محبة الأخيار» ^(٢).

إن ما استعرضه أمير المؤمنين عليه السلام هو علامات العلماء، فمن حصل على

(١) طه: ١٢٤-١٢٦

(٢) أصول الكافي، المجلد الأول، كتاب فضل العلم، باب النوادر، ح ٢

العلوم السائدة وخلي منها، فليعلم بأنه لاحظ له من العلم، بل هو من أصحاب الجهل والضلال.

ثم عبّر الإمام عليه السلام عن العلم بـ (المُحكمة) لأنّ العلم الصحيح، لنورانيته، وضيائه في القلب، يوجب الاطمئنان، ويدحض الريب والشك.

جاء في الحديث الشريف: «مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا جَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ»^(١)؛ هذه آثار الإخلاص في أربعين يومًا. فإذا كنت بذلت الجهد أربعين عامًا أو أكثر في سبيل تجميع المصطلحات والمفاهيم العلمية، وحسبت نفسك علامة، ومن جنود الله، ولم تجد أثرًا للحكمة في قلبك، ولا طعمًا لها على لسانك، فاعلم بأن دراستك وتعبك لم يقتربنا بالإخلاص بل إنما اجتهدت للشيطان والرغبات النفسية.

فبادر نحو إخلاص النية وتصفية القلب من الرذائل والكدر، فإذا لمست أثرًا حاول أن تستمر في ذلك أكثر؛ وإن كانت التصفية من أجل الاختبار كانت هذه النية منافية للإخلاص، ولكن من المحتمل أن بصيصًا من نورها يهديك.

أقسام العلوم بحسب الحديث الشريف

إعلم أن كثيرًا من العلوم تندرج على تقدير في قسم من الأقسام الثلاثة التي ذكرها رسول الله، وعلى تقدير آخر في قسم آخر. مثالاً: إن علم الطب، والتشريح، والنجوم، والأفلاك، وما يضاهيها، إذا جعلناها آية وعلامة، وكذلك علم التاريخ وأمثاله، إذا ألقينا عليه نظرة اعتبار واتّعاظ، اندرج جميعها في الآيه المحكمة؛ لأنه يحصل بواسطتها، أو يتأكد العلم بالله، أو بالمعاد، وقد يندرج

(١) بحار الأنوار، ج٦٧، كتاب الإيمان والكفر، باب الإخلاص، ح١٠.

تحصيلها في الفريضة العادلة، وقد يندرج تحت السنّة القائمة.

وأما إذا كانت دراسة هذه العلوم لأجل ذاتها أو لأجل أهداف أخرى، فإنْ شَغَلَتْنا عن علوم الآخرة، كانت مذمومة بالعرض، وإنْ لم تشغلنا عن علوم الآخرة فليس فيها ضرر أو نفع، وهو ما قاله رسول الله ﷺ. فالعلوم تنقسم على ثلاثة أقسام:

الأول: ما كان نافعاً للإنسان بحسب أحواله في النشآت الأخرى التي يعد الوصول إليها غاية التكوين والكائنات؛ وهذا القسم هو الذي جعله رسول الله ﷺ علماً، وقسمه على الأقسام الثلاثة التي وردت في الحديث الشريف.

الثاني: ما يضر بالإنسان ويصرفه عن وظائفه اللازمة، وهذا القسم من العلوم المذمومة التي يجب على الإنسان أن لا يقترب منها، نحو: علم السحر، والشعوذة.

الثالث: ما لا ضرر فيها ولا نفع، فيهدر الإنسان وقته عليها للتسلّي والتلهّي، مثل علم الموسيقى وعلم الأنساب والحساب، وإذا استطاع الإنسان أن يُدخل هذا النوع من العلم تحت واحد من العلوم الثلاثة كان أفضل. وإذا لم يتمكن من ذلك، فعدم الاشتغال حسن؛ كي لا يهدر العمر القصير.

إن أنفع العلوم وأهمها بالنسبة إلى حياته الأبدية الخالدة هو العلم الذي أمر به الأنبياء ﷺ والأولياء، وحثّوا الناس على تعلّمه، وهو هذه العلوم الثلاثة التي ذكرناها.

والحمد لله تعالى.



الْحَدِيثُ الْخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ

الشك والوسوسة

عن عبد الله بن سنان قال:

«ذَكَرْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ رَجُلًا مُبْتَلًى بِالْوُضُوءِ، وَالصَّلَاةِ، وَقُلْتُ:

هُوَ رَجُلٌ عَاقِلٌ. فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: وَأَيُّ عَقْلٍ لَهُ، وَهُوَ يُطِيعُ

الشَّيْطَانَ؟ فَقُلْتُ لَهُ: وَكَيْفَ يُطِيعُ الشَّيْطَانَ؟ فَقَالَ: سَلُهُ، هَذَا الَّذِي

يَأْتِيهِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ هُوَ؟ فَإِنَّهُ يَقُولُ لَكَ: مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ»^(١).

مقدمة

إن قلب الإنسان شيء لطيف متوسط بين نشأة الملك ونشأة المملوك، عين منه نحو عالم الدنيا والمملك، وبها يعمر هذا العالم، وعين أخرى منه نحو عالم الآخرة والمملوك والغيب، وبها يعمر عالم الآخرة والمملوك. فإذا كانت وجهة القلب نحو عالم الشيطان، كانت الإلقاءات في القلب من سنخ الجهل المركب الشيطاني، وفي النهاية تستشري من باطن الذات، الوسوسة، والشك، والشرك، والشبهات الباطلة، وتسري في كل أنحاء الجسم. وإذا كانت وجهة القلب نحو تعمير الآخرة، والمعارف الحقة، غدت الخواطر من الإلقاءات الإلهية، وتظهر من الشك والشرك وتنزه منهما. قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلِقَلْبِهِ فِي صَدْرِهِ أَذْنَانِ: أُذُنٌ يَنْفُثُ فِيهَا الْمَلِكُ، وَأُذُنٌ يَنْفُثُ فِيهَا الْوَسْوَاسُ الْخَنَاسُ، يُؤَيِّدُ اللَّهُ الْمُؤْمِنَ بِالْمَلِكِ، وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: وَيَأَيَّدُهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ»^(٢).

(١) أصول الكافي، المجلد الأول، كتاب العقل والجهل، ح ١٠

(٢) مجمع البيان، المجلد العاشر، ص ٥٧١

الوسوسة من الأعمال الشيطانية

إن الشاهد على أن الوسواس من ألعاب الشيطان، مخالفتها لأحكام الشريعة وأخبار أهل بيت العصمة والطهارة.

مثلاً: ورد في كيفية وضوء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها كانت غسلة واحدة. ومن ضروريات الفقه أجزاء غُرْفَةٍ واحدة للوجه، وغُرْفَةٍ لغسل اليد اليمنى وغُرْفَةٍ لغسل اليد اليسرى؛ والغسل ثلاث مرات، بأن نصب الماء في كل مرة على أن يستوعب الماء العضو المغسول بدعة وحرام من دون أي محذور، يطل وضوؤه، إذا مسح برطوبة الغسلة الثالثة؛ وفي أخبار أهل البيت عليهم السلام أن الغسلة الثالثة بدعة، وكل بدعة في النار؛ لكن الإنسان الجاهل المبتلى بالوسوسة، يغسل أعضاء الوضوء أكثر من عشر مرات، وفي كل مرة يوصل الماء إلى كل أطراف العضو الذي يُريد أن يغسله بدقة متناهية، بل يغسل العضو حتى يجري ماء الوضوء ويتحقق الغسل الشرعي ثم يكرر الغسل مرات عديدة، فعلى أي مقياس نستطيع أن نطبق عمله هذا؟ ومع أي حديث أو فتوى فقيه يتطابق عمله؟ لقد صُلِّيَ المسكين عشرين عامًا، أو أكثر، بمثل هذا الوضوء الباطل، وتظاهر أمام الناس أنه في منتهى القدسية والطهارة.

فإذا كانت هذه الوسوسة من جراء منتهى التقوى والاحتياط في الدين فلماذا نجد الكثير من ذوي الوسوسة التي لا مسوِّغ لها والجهلة المتنسكين، لا يحتاطون في مواضع يجب الاحتياط فيها أو يستحب؟ هل سمعت أحدًا يعيش حالة الوسوسة في الشبهات المالية؟ مَنْ من الوسواسين دفع الزكاة والخمس مرات عديدة؟ وذهب إلى الحج لأداء الواجب مرات متكررة؟ وأعرض عن الطعام المشتبه؟ لماذا كانت أصالة الحلية في الأطعمة المشتبه جارية وأصالة الطهارة في مشكوك النجاسة غير جارية؟ مع أنه في باب مشكوك الحلية من الراجح

الاجتناب؛ فعن أبي عبد الله عليه السلام: «وإنما الأمور ثلاثة: أمرٌ بين رُشدِهِ، فيُتَّبَعُ، وأمرٌ بين غيِّهِ، فيُجْتَنَبُ، وأمرٌ مُشْكِلٌ، يُرَدُّ عِلْمُهُ إِلَى اللَّهِ، وَإِلَى رَسُولِهِ»^(١). وفي باب الطهارة عكس ذلك كُلُّ شَيْءٍ لَكَ طَاهِرٌ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّهُ نَجِسٌ.

كان أحد الأئمة المعصومين عليه السلام إذا ذهب لقضاء حاجته رش الماء على فخذه، حتى إذا ترشحت لدى الاستبراء أو الاستنجاء قطرات من الماء لم يحس بذلك، فهو لم يحتط ولم يتوسوس. وهذا المسكين الذي يرى نفسه محتذياً حذو الإمام المعصوم عليه السلام وأخذاً دينه منه، لا يتقي لدى التصرف في الأموال، ولا يحتاط تجاه الطعام بل يتكل على قاعدة أصالة الطهارة ويأكل، ثم يقوم ويغسل فمه ويديه. إنه حين الأكل يتمسك بأصالة الطهارة، وبعد أن يشبع يقول: كل شيء نجس.

وأسوأ من كل ذلك وأكثر فضيحة، وسوسة بعضهم في نية الصلاة، وتكبيرة الإحرام؛ لأنه يرتكب عدة من محرمات، ويعدّ نفسه من المقدسين، ويرى بهذا العمل مزية لنفسه.

ومن شؤون الوسوسة عدم الاقتداء بأشخاص حكم عليهم بالعدالة نصاً وفتوى، فإن ظاهرهم من أهل الصلاح ومن المحافظين على الأعمال الشرعية وباطنهم معلوم عند الله، ولا يجب علينا البحث والتفتيش الدقيق عنهم، بل لا يجوز البحث والتحرّي عنهم ومع ذلك نرى الشيطان يلجمه ويقوده إلى زاوية من زوايا المسجد معتزلاً جماعة المسلمين فيصلي فرادى ويعلل عدم التحاقه بالجماعة بأنني أحتاط ولا أجد توجهاً قلبياً نحو الجماعة ولكنه لا يتضايق من إمامته للجماعة، والإمامة أصعب، ومحل التباسها أكثر ولكن لما كانت الإمامة موافقة للرغبات النفسية لا يحتاط في ذلك.

(١) أصول الكافي، ج ١، كتاب العلم، باب اختلاف الحديث، ح ٩.

ومن شؤون الوسوسة التي يكثر الابتلاء بها، الوسوسة في قراءة الفاتحة في الصلاة، إذ قد تخرج نتيجة تكرار الحروف، أو الكلمات، وتفخيمها من القواعد التجويدية، وقد تتغير صورة الكلمة كلياً. إن الصلاة التي تعدّ معراجاً للمؤمن، وقرбанاً للمتقين، وعموداً للدين تفرغ من كل شؤونها المعنوية وأسرارها الإلهية وتتحول إلى كلمات يراد لها التجويد، ومن ثمّ ينجرّ تجويد الكلمات، إلى فسادها وعدم إجزائها بحسب ظاهر الشرع. فهل يعيش هؤلاء وساوس الشيطان أو تغمرهم فيوضات الرحمن؟؛ إنّ هذا المسكين عرف من حضور القلب علماً وعملاً: الوسوسة في النية، ومدّ كلمة ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ أكثر من القدر اللازم، وتغيير تقاسيم الوجه والفم حين تلفظ الكلمات.

وقد تحدث الوسوسة أو تشتد من جرّاء أن جهلة يطرون على هذا الوسواسي، ويعدّون وسوسته من الفضائل، قائلين: إنه نتيجة شدة دينه وتقواه أصبح وسواسياً، والحق أن الوسوسة مخالفة للدين، ومن ثمار الجهل. لقد علّم: نقلاً، وفعلاً، بأن هذه الوسواس من الشيطان، الذي يفسد عملنا، ويصرف قلوبنا عن الحق المتعالي، بل قد يدخل الوسوسة في العقيدة والدين، ويبعد دينك عن دين الله، ويجعلك شاكاً في المبدأ، والمعاد؛ ويدفعك إلى الشقاء الأبدي.

معالجة الوسوسة

إنّ معالجة هذه الآفة القلبية تتمّ بالعلم النافع، والعمل، بكل سهولة ويسر؛ فيجب أولاً أن يشعر الإنسان بأنه سقيم، حتى يسعى في سبيل المعالجة. ولكن النقص يكمن في أن الشيطان قد يزين له الأمور على مستوى لا يرى فيه هذا المسكين نفسه مريضاً.

المعالجة بالعلم من خلال التفكير في أن هذا العمل الذي يريد أن ينجزه ويريد أن يجعله مرضياً لله تعالى من أي مصدر يؤخذ حتى تكون كفيته على ذلك النحو المخصوص؟ ومن الواضح أن العوام من الناس يأخذون من الفقهاء كيفية العمل، ومراجع التقليد يستنبطونها من الكتاب والسنة والقواعد الفقهية. وعندما نرجع إلى الفقهاء نسمع منهم القدح في عمل الوسواسي، ويرون بعض أعماله باطلة، وعندما نرجع إلى الأحاديث الشريفة، والكتاب الإلهي نجد بأن عمله من الشيطان ويجعل صاحبه مجنوناً. إن الإنسان العاقل إذا فكر وتدبر قليلاً قبل أن يهيم الشيطان على عقله أوجب على نفسه الإقلاع عن هذا العمل الفاسد، وسعى لتصحيح عمله حتى يكون مرضياً عند الحق المتعال.

عندما يدرك الوسواسي ضرورة الإصلاح، يدخل مرحلة العمل، والعمدة في هذه المرحلة عدم الاهتمام بالوساوس الشيطانية. فمثلاً إذا كان ابتلاؤه بالوسوسة في الوضوء، فليتوضأ بغرفة واحدة على رغم وسوسة الشيطان. إن الشيطان يوسوس، ويقول: إن هذا العمل ليس بصحيح؛ ولكن يواجهه بأن عملي لو لم يكن صحيحاً لوجب أن لا يكون عمل رسول الله ﷺ والأئمة الطاهرين عليهم السلام والفقهاء جميعاً صحيحاً. لأن رسول الله ﷺ والأئمة الطاهرين قد توضأوا في مدة طويلة تقرب من ثلاثمائة سنة، وكانت كيفية وضوء جميعهم واحدة. فإذا كان عملهم باطلاً، فليكن عملي باطلاً أيضاً. وإذا كان مقلداً لمجتهد، فيجيب الشيطان بأنني أعمل في وضوء فتوى المجتهد، فإذا كان وضوئي باطلاً، فلا يؤخذني ربي عليه، ولا تكون عليّ حجتة. وإذا أوقعك الشيطان الملعون في الشك قائلاً بأن المجتهد لم يقل هكذا فافتح رسالته العلمية وتأكد من صحة العمل، فإذا لم يعبأ بإلقاءاته مرات عديدة، وعملت على خلاف رأيه، غدا آيساً منك. ونرجو أن

تكون المعالجة النهائية لمرضك. وقد ورد هذا المعنى في الأحاديث الشريفة: فعن زرارة، وأبي بصير، قالا: «قُلْنَا لَهُ: الرَّجُلُ يَشْكُ كَثِيرًا فِي صَلَاتِهِ حَتَّى لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى وَلَا مَا بَقِيَ عَلَيْهِ؟ قَالَ: يُعِيدُ. قُلْنَا لَهُ: فَإِنَّهُ يَكْثُرُ عَلَيْهِ ذَلِكَ، كُلَّمَا أَعَادَ شَكَّ. قَالَ: يَمْضِي فِي شَكِّهِ، ثُمَّ قَالَ: لَا تُعَوِّدُوا الْحَبِيثَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بِنَقْضِ الصَّلَاةِ فَتُطْمَعُوهُ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ حَبِيثٌ يَعْتَادُ لِمَا عُوِّدَ، فَلْيَمْضِ أَحَدُكُمْ فِي الْوَهْمِ وَلَا يُكْثِرَنَّ نَقْضَ الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ مَرَّاتٍ لَمْ يَعُدْ إِلَيْهِ الشَّكُّ. قَالَ زُرَّارَةُ: ثُمَّ قَالَ: إِنَّهَا يُرِيدُ الْحَبِيثُ أَنْ يُطَاعَ فَإِذَا عُصِيَ لَمْ يَعُدْ إِلَى أَحَدِكُمْ»^(١).

وإذا خالفت الشيطان مدة من الزمان، ولم تلق بالآلوساوسه، انقطع طمعه عنك، وعادت الطمأنينة والسكون إلى نفسك، ولكن في غضون أيام تصديك للشيطان، تضرع إلى ساحة الحق المتعالي والتجئ إلى ذاته المقدس من شر ذاك الملعون وشر النفس.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَشْكُو إِلَيْكَ مَا أَلْقَى مِنَ الْوَسْوَسةِ فِي صَلَاتِي حَتَّى لَا أَدْرِي مَا صَلَّيْتُ مِنْ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ، فَقَالَ إِذَا دَخَلْتَ فِي صَلَاتِكَ فَاطْعَنْ فَحِذْكَ الْأَيْسَرَ بِأَصْبِعِكَ الْيُمْنَى الْمُسَبَّحَةِ ثُمَّ قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَإِنَّكَ تَنْحَرُهُ وَتَطْرُدُهُ»^(٢).

والحمد لله أولاً وأخراً وظاهراً وباطناً، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

(١) فروع الكافي، المجلد ٣، ص ٣٥٨ و ٣٥٩

(٢) فروع الكافي، المجلد ٣، كتاب الصلاة، باب: من شك في صلاته، ح٤، ص ٣٥٩.



الْحَدِيثُ السَّائِسُ وَالْعِشْرُونَ

طالب العلم

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ
الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِهِ، وَإِنَّهُ يَسْتَعْفِرُ
لِطَالِبِ الْعِلْمِ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْخَوَاتِمِ فِي الْبَحْرِ.
وَفَضَّلَ الْعَالِمُ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ النُّجُومِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ
وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا؛
وَلَكِنْ وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ مِنْهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ»^(١).

العلم

المراد من العلم في الحديث الشريف علوم الآخرة التي يقصد منها البلوغ إلى
المقامات والدرجات الملوكوتية، وقد مرّ أن جميع العلوم الأخروية لا تخرج عن
إطار العلوم الثلاثة: العلم بالله والمعارف الإلهية، وغايته جنة الذات، وعلم تهذيب
النفس والسلوك إلى الله، وغايته جنة الصفات، وعلم الآداب وسنن العبودية،
وغايته جنة الأعمال، وهي صورة أداء العبودية وآثارها، وهذه الجنات ليست
بمعمورة ومشيدة، فكما أن أراضي النفس في بدء الأمر مستوية ولا شيء فيها،
كذلك أرض جنة الأعمال قاع مسطحة، ومستوية، وعمرانها تابع لعمران النفس.

(١) أصول الكافي، المجلد الأول، كتاب فضل العلم، باب ثواب العالم والمتعلم، ح ١

وإن لم يُعَمَّرْ مقام الغيب للنفس بالمعارف الإلهية، والجذبات الغيبية الذاتية، لم تحصل للإنسان جَنَّةَ الذَاتِ وَاللِّقَاءِ. وإن لم يَهْدَبْ الباطن، ولم يتحلَّ الداخل، ولم تقوَّ الإرادة والعزم ولم يكن القلب محلَّ تجلٍّ للأسماء والصفات، لم تكن جَنَّةُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ التي هي الجنة المتوسطة، للإنسان. وإن لم ينهض الإنسان بالعبودية، ولم تطابق أعماله وأفعاله وحركاته وسكناته أحكام الشريعة، لم يحصل على جَنَّةِ الْأَعْمَالِ التي ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾^(١).

وبهذا يتضح أنَّ كل علم من هذه العلوم سبيل للوصول إلى الجنة التي تناسبه، وسالك سبيله، سالك لطريق من طرق الجنة. وأنَّ كل علم طريق إلى العمل الذي يناسبه، فالأعمال التي تنجم من علم المعارف، أعمال قلبية، وجذبات باطنية، نتيجتها جنة الذات واللقاء.

الملائكة وطالب العلم

من الملائكة ملائكة عالم المثال والموجودات الملكوتية البرزخية، ومن المحتمل أن تكون لهذه الطائفة جوارح وأعضاء وأجنحة ورياش وغيرها، ولما كانوا من عالم المثال والبرزخ، وكان لهذا العالم كمية وكيفية، كان لهذه الطائفة قدر خاص، وجوارح مخصوصة، وإنَّ قوله تعالى: ﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا﴾^(٢). ﴿أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّشْنَى وَتِلْكَ وَرَبْعٌ﴾^(٣). يرتبط بهذه الطائفة من الملائكة. ولكن للملائكة المقربين والقاطنين في الجبروت الأعلى، الإحاطة الوجودية القيومية، فهم يستطيعون، أن

(١) الزخرف: ٧١

(٢) الصفات: ١

(٣) فاطر: ١

يتمثلوا في كل واحد من العوالم بهيأة وصورة تناسب ذلك العالم؛ فكان جبرائيل الأمين، الذي هو من المقربين للساحة المقدسة، وحامل الوحي الإلهي، ومن أعلى مراتب موجودات سُكَّان الجبروت، يتمثل لرسول الله ﷺ، في المثال المقيد دائماً، وفي المثال المطلق، مرتين، وفي عالم الملك حيناً، وفي عالم الملك في صورة دحية الكلبي رضيع رسول الله ﷺ الذي كان أجمل الناس.

ولابد من معرفة أنّ التمثّل الملكي للملائكة، لا يشبه الموجودات الملكية، كي يراها كل سليم الحس والبصر، بل الجانب المملوكوتي للملائكة يغلب الجانب الملكي؛ ولهذا لا يراهم الناس مع أبصارهم الملكية، بل رأى بعض أصحاب رسول الله ﷺ جبرائيل وهو في صورة دحية الكلبي، بعد تأييد من الحق المتعالي، وإشارة من خاتم الأنبياء ﷺ.

إن طلبة العلم والمعارف، والمتوجهين إلى الحق والحقيقة، ممن لا يزالون في الطريق، محلّ عناية ملائكة الله، ورعايتهم، وتأييدهم، وإنّ مثل هذا الملكي الذي تحوّل إلى ملكوتي، وهذا الأرضي الذي أصبح سماوياً قد وطأت أقدامه، أجنحة الملائكة، فإذا انفتحت عين بصيرته المملوكوتية والمثالية رأى نفسه مستقراً على أجنحة الملائكة، وإنه يطوي المسافات بفضل تأييداتهم.

أما الذين، لا يزالون يعيشون في عالم الملك، ولم يتركوا عالم الملكوت، فمن الممكن أن يكونوا محلّ تأييد ولطف المملوكوتين، إذ يفرشون أجنحتهم تواضعاً لهم وابتهاجاً بهم وبأعمالهم، وفي الحديث النبوي الشريف: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ حَتَّى يَطَّأَ عَلَيْهَا رِضًا بِهِ»^(١).

(١) غوالي اللآلئ، المجلد الأول، ص ١٠٦.

فَعَلِمَ أَنَّ الْخُطْوَةَ الْأُولَى إِلَى اللَّهِ وَإِلَى مَرْضَاتِهِ، وَضَعَ الْأَقْدَامَ عَلَى أَكْتافِ الْمَلَائِكَةِ، وَالْجُلُوسَ عَلَى أَجْنَحَتِهِمْ، حَتَّى نِهَایَةَ مَرَاتِبِ الدِّرَاسَةِ، وَحَصُولِ الْعِلْمِ وَالْمَعَارِفِ، وَلَكِنْ الدَّرَجَاتُ تَخْتَلِفُ، وَالْمَلَائِكَةُ الْمُؤَيَّدِينَ لِهَذَا السَّالِكِ فِي سَبِيلِ الْعِلْمِ يَتَبَدَّلُونَ، بِحَسَبِ تَبَدُّلِ الْمَرَاتِبِ، وَيَصِلُ السَّالِكُ إِلَى مَرَحَلَةٍ، يَرْفَعُ قَدَمَهُ مِنْ عَلَى رَأْسِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، وَيَجْتَازُ عَوَالِمًا، وَيَطْوِي مَرَاتِبًا، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْنُو مِنْهَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ، بَلْ يَبْدِي جِبْرَائِيلُ أَمِينَ الْوَحْيِ عَجْزَهُ عَنِ الْوَصُولِ إِلَى تِلْكَ الدَّرَجَاتِ إِذْ يَقُولُ: «لَوْ دَنَوْتُ أَنْثَمَلَةً لَأَحْتَرَقْتُ»^(١).

الاستغفار لطالب العلم

إِنَّ حَقِيقَةَ الْوُجُودِ، عَيْنُ جَمِيعِ الْكِمَالَاتِ، وَالْأَسْمَاءِ، وَالصِّفَاتِ، وَالْوُجُودِ الْخَالِصِ الْمَحْضِ عَيْنُ الْكِمَالِ الْمَحْضِ الْخَالِصِ. وَلَمَّا كَانَ الْحَقُّ الْمُتَعَالِي جَلَّ شَأْنُهُ وَجُودَ صَرَفٍ، فَهُوَ كِمَالُ صَرَفٍ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ عَيْنُ جَمِيعِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ الْجَمَالِيَةِ وَالْجَلَالِيَةِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «عِلْمُ كُلِّهِ، قُدْرَةُ كُلِّهِ»^(٢).

وَقَدْ أَشَارَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَى تَسْبِيحِ الْمَوْجُودَاتِ بِأَسْرَها: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٣)، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(٤).

وَالْتَسْبِيحُ، وَالتَّقْدِيسُ، وَالثَّنَاءُ، يَتَطَلَّبُ الْعِلْمَ، وَالْمَعْرِفَةَ لِمَقَامِ الذَّاتِ الْمُقَدَّسِ لِلْحَقِّ جَلَّ شَأْنُهُ، فَتَسْبِيحُ الْمَوْجُودَاتِ لِلْحَقِّ الْمُتَعَالِي لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ عَنْ وَعْيٍ وَشُعُورٍ.

(١) بحار الأنوار، المجلد الثامن عشر، ص ٣٨٢

(٢)

(٣) الجمعة: ١

(٤) الإسراء: ٤٤

ويقول أهل المعرفة: إنّ الإنسان أكثر الموجودات بُعدًا وحجبًا عن الملكوت، ما دام مُنهمكًا بعالم الملك وشؤونه؛ لأن اشتغاله أكثر من جميعها، وأقوى؛ فاحتجابه أكثر من الجميع، وحرمانه عن الوصول إلى عالم الملكوت أعظم.

ولأن جميع الموجودات ذات وجهة ملكوتية، تكتسب بها الحياة، والعلم، والشؤون الحياتية، ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾^(١)؛ وهذا الدليل وجه آخر لتحقيق العلم والحياة في الموجودات بأسرها.

ولمّا كان الإنسان من جهة أرفع المخلوقات، وأسماها، ومن جهة أخرى محجوب عن عالم الملكوت، فلا يحصل له العلم بحياة الموجودات وشؤونها، فلا مانع من القول باستغفار كل ما في السماء والأرض للسالك طريق العلم، المتوجه إلى الحق المتعالي.

ولا مانع من احتمال آخر وهو أن الكائنات الأخرى تعلم، بأن الوصول إلى مقام فناء ذات الإنسان المقدس، والغرق في بحر الكمال، لا يتيسر إلا بتبع ذات الإنسان المقدس الكامل العالم بالله، العارف بالمعارف الإلهية، الجامع للعلم والعمل - فمن هذه الجهة يسألون الحق سبحانه، الكمال الإنساني، الذي يحصل بالغرق في بحر غفارية الحق، حتى ينالوا بوساطته كمالهم اللاتقة بهم؛ والله العالم.

فضل العالم على العابد

فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر، وهي ليالي

الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، فحقيقة العلم، والإيمان الذي يتقوّم بالعلم، هي النور؛ لأن النور هو الظاهر، المكشوف بالذات، المظهر، الكاشف عن غيره، فعَنْ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فِي تَفْسِيرِ آيَةِ النُّورِ الْمُبَارَكَةِ: قَالَ: ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ «قَالَ: كَذَلِكَ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ)، ﴿مِثْلُ نُورِهِ﴾ قَالَ: مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿كَمِشْكُورٍ﴾ قَالَ: صَدْرُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، قَالَ فِيهِ نُورُ الْعِلْمِ، يَعْنِي: النَّبُوَّةُ؛ ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾، قَالَ: عِلْمُ رَسُولِ اللَّهِ صَدَرَ إِلَى قَلْبِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ^(١).
وورد في الحديث المعروف: «الْعِلْمُ نُورٌ يَقْدِفُهُ اللَّهُ فِي قَلْبٍ مَنْ يَشَاءُ» ^(٢).

ولهذا النور مراتب، بحسب مراتب إيمان ذوي النور، وعلمهم.
ولابد من معرفة أن هذا النور الحقيقي الموجود في قلوب أهل الإيمان والعلم، لما كان من أنوار عالم الآخرة، ينير في عالم الآخرة بحسب فعالية النفس بالنور الحسي؛ هذا النور هو الذي ينير الصراط، لذا نور طائفة مثل نور الشمس، وأخرى مثل نور القمر، حتى ينتهي الأمر إلى نور يضيء أمام قدميه فقط.
ولما كانت العبادة لا تتحقق بلا علم، فلكل عابد نور مخصوص به، ولكن نور العابد، يضيء لنفسه، وينير تحت أقدامه، ولا ينير للآخرين، فمثل العابد أمام العالم، ليس مثل النجمة في الليل المظلم، حتى ينير قدرًا من المساحة المحيطة به، وإنّما مثل النجمة ليلة البدر، إذ يختفي نورها أمام نور القمر ليلة البدر، فهي ظاهرة، ولكن غير مظهرة لشيءٍ آخر.

قال صدر المتألهين عَلَيْهِ السَّلَامُ «المقصود من العالم في هذا الحديث الشريف غير العالم الرباني مَنْ يكون علمه لَدُنْيَاً وحاصلاً بواسطة الموهبة الإلهية، كما هو شأن علم

(١) توحيد الصدوق، ص ١٧٥

(٢) بحار الأنوار، المجلد الأول، ص ٢٢٥

الأنبياء والأولياء عليهم السلام، ويدلّ على ما ندعيه تمثيله بالقمر إذ لو كان المقصود من العلم، اللدني منه، لكان من الجدير به أن يمثل بالشمس لأن نورها بإفاضة من الحق المتعال من دون واسطة شيء آخر من نوعه أو جنسه».

العلماء ورثة الأنبياء عليهم السلام

الإنسان بحسب نشأته المملكية، والجسمية، وليد الملك والطبيعة، ومنشأ تلك الولادة المادية، الأب الجسماني، وبعد تربية الأنبياء، وحصول مقام القلب له، تتحقق له ولادة ملكوتية؛ فيكون الأنبياء آباءه الروحانيين، والورثة وراثته روحانية باطنية، والولادة ولادة ثانوية ملكوتية. والتربية والتعليم بعد الأنبياء من شؤون العلماء، الذين هم ورثة الأنبياء. إن الأنبياء عليهم السلام بحسب هذا المقام الروحاني لا يملكون درهماً ولا ديناراً، فتركّتهم العلم والمعارف وإن كانوا بحسب ولادتهم المملكية يحتوون كل الحثيات البشرية ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾^(١). وهذه الرواية الشريفة ظاهرة، بل صريحة، بأنّ الوراثة هي الروحانية التي ذكرناها. ويكون مقصود الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله من الحديث المنسوب إليه: «نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ»^(٢). على فرض صحة صدوره عنه صلّى الله عليه وآله ما يرتبط بشأن النبوة، والوراثة الروحانية، فلا يورثون مالا ولا منالاً، بل يورثون العلم. والسلام.

(١) الكهف: ١١٠

(٢) مسند أحمد، ج ٢، ص ٤٦٣



الْجَذِبَةُ السَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ

حضور القلب

عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«فِي التَّوْرَةِ مَكْتُوبٌ يَا بَنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمَلًا قَلْبِكَ غِنَى، وَلَا أَكِلُكَ إِلَى طَلَبِكَ، وَعَلَيَّ أَنْ أَسُدَّ فَاقَتَكَ وَأَمَلًا قَلْبِكَ خَوْفًا مِنِّي. وَإِنْ لَا تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمَلًا قَلْبِكَ شُغْلًا بِالدُّنْيَا ثُمَّ لَا أَسُدُّ فَاقَتَكَ وَأَكِلُكَ إِلَى طَلَبِكَ»^(١).

معاني المفردات

تفرغ القلب للعبادة: إخلاؤه من الانتباه لأي شيء آخر حتى ينشغل بالعبادة خاصة.

وَمَلَأَ الْإِنَاءَ مَاءً: وَضَعَ فِيهِ بِقَدَرِ مَا يَأْخُذُهُ.
وَأَكُلُ: صِيغَةُ مُتَكَلِّمٍ مِنْ (وَكَلَّ إِلَيْهِ الْأَمْرَ)، أَي: سَلَّمَهُ وَفَوَّضَهُ وَتَرَكَهُ إِلَيْهِ وَاكْتَفَى بِهِ.
الفاقة: الحاجة، والفقر.

كيفية حصول التفرغ للعبادة

لابد للإنسان من تخصيص وقت يتفرغ فيه للعبادات، حتى يتيسر له حضور القلب الذي هو بمنزلة اللبِّ والجوهر؛ وأن يحافظ على أوقات الصلاة،

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب العبادة، ح ١

أهمّ العبادات، وأن يؤديها في وقت الفضيلة، ولا يشغل بعمل آخر، فإن آخرها إلى آخر الوقت، وأتى بها بفتور ونقص، كانت هذه العبادة لا نورانية لها، بل مثار سخط الهي، وكان مستخفاً بالصلاة، ومتهاوناً في أمرها.

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لَا تَتَهَاوَنُ بِصَلَاتِكَ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ عِنْدَ مَوْتِهِ: لَيْسَ مِنِّي مَنْ اسْتَخَفَّ بِصَلَاتِهِ، لَيْسَ مِنِّي مَنْ شَرِبَ مُسْكِرًا، لَا يَرُدُّ عَلَى الْحَوْضِ لَا وَاللَّهِ»^(١). وقال أبو الحسن الأول عليه السلام: «لَمَّا حَضَرْتُ أَبِي الْوَفَاةَ قَالَ لِي: يَا بُنَيَّ لَا يَنَالُ شَفَاعَتَنَا مَنْ اسْتَخَفَّ بِالصَّلَاةِ»^(٢).

إن تأخير الصلاة إلى نهاية وقتها من دون مسوّغ، وعدم المحافظة على حدودها، من التهاون والاستخفاف بها؛ إنها مصيبة عظيمة، وأي مصيبة أعظم من الانقطاع عن الرسول الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والحرمان من شفاعته وشفاعة أهل بيته العظام!

والأهم من تفرغ الوقت، تفرغ القلب، بل هو مقدمة لتفريغ القلب. إن شقاءنا في أننا عندما نكبّر تكبيرة إحرار الصلاة، فكأننا فتحنا باب المتجر، أو دفتر الحساب، أو كتاب الدرس، ونرسل القلب للانصراف إلى أمور أخرى، ونغفل كلياً عن العمل العبادي، وعندما ننتبه للعبادة نجد أنفسنا في نهاية الصلاة! عجباً إذا كلّمت صديقاً، بل شخصاً غريباً انصرف قلبك إليه عن غيره، وإذا كلّمت وناجيت ولي النعم، ورب العالمين، غفلت عنه وانصرفت إلى غيره؟ هل للعباد في نفسك مكانة أعظم من الذات المقدس للحق؟ أو أن الكلام معهم أغلى من مناجاة قاضي الحاجات؟.

إننا نرى التكاليف الإلهية كلفة، وفرضاً علينا، لذا لانرى لها أهمية؛ فلا بد من إصلاح الينبوع، والعثور على الإيمان بالله، لإصلاح الأمور. إن إيمان السيد

(١) فروع الكافي، المجلد الثالث، ص ٢٦٩ - ٢٧٠

(٢) فروع الكافي، المجلد الثالث، ص ٢٦٩ - ٢٧٠

ابن طاووس (رضي الله عنه)، يدفعه للاحتفال بيوم بلوغه؛ لأن الحق المتعال قد رخص له بالمناجاة، وزينه بزينة التكليف والخطاب. وإذا لم يكن عمل هذا السيد الجليل حجة لك، فعمل سيد الموحدين وأولاده المعصومين حجة عليك، فتأمل في حياتهم وكيفية عباداتهم ومناجاتهم، إذ كان لون وجه بعضهم يتغير لدى حلول وقت الصلاة، وتضطرب فرائضه خشية لله؛ وقد شهر عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أن سهماً قد أصاب قدمه المبارك، فلم يستطع أن يتحمل ألم انتزاعه من رجله، فقام وصلى وفي أثناء اشتغاله بالصلاة، انتزع السهم ولم ينتبه أصلاً.

عزيزي: إن عدم إدراك الألم حين التوجه إلى شيء آخر ليس من الأمور الممتنعة، فإن النفس عندما تلتفت على نحو تام إلى شيء تغفل عن مُلك البدن، وأسفاً إننا نتوجه نحو كل شيء توجهاً تاماً، الا نحو عبادة الله.

إن تفرغ القلب من غير الحق من الأمور المهمة، التي على الإنسان أن يحققها مهما كلف الثمن، والسبيل إلى تحصيله ميسور وسهل، فمع قدر قليل من الانتباه والمراقبة نستطيع أن ننجزه ونحققه. يجب على الإنسان الذي يريد السلوك إلى الله إمساك الخيال وإلجامه، وبعد مضي مدة من الزمان في المراقبة، يُدَجِّن الخيال، ويهدأ، وتزول عنه حالة التشتت، ويصير الخير من عادته - والخير عادة - فيصرف فارغ البال إلى التوجه نحو الحق والعبادة.

إن حضور القلب روح العبادة، فعن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنَّهما قالا: «إِنَّمَا لَكَ مِنْ صَلَاتِكَ مَا أَقْبَلْتَ عَلَيْهِ مِنْهَا، فَإِنْ أَوْهَمَهَا كُلَّهَا أَوْ غَفَلَ عَنْ آدَابِهَا لَفَتْ فَضْرَبَ بِهَا وَجْهَ صَاحِبِهَا»^(١).

(١) فروع الكافي، المجلد الثالث، ص ٣٦٣

وعن الثُمَالِيِّ قَالَ: «رَأَيْتُ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام يُصَلِّي فَسَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبِهِ فَلَمْ يُسَوِّهِ حَتَّى فَرَّغَ مِنْ صَلَاتِهِ. قَالَ: فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: وَيَحْكُ أَتَدْرِي بَيْنَ يَدَيَّ مَنْ كُنْتُ؟ إِنَّ الْعَبْدَ لَا يَقْبَلُ مِنْهُ صَلَاةٌ إِلَّا مَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ مِنْهَا. فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ هَلَكْنَا. قَالَ: كَلَّا، إِنَّ اللَّهَ مُتَمِّمٌ ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالنَّوَافِلِ»^(١).

وقال أبو عبد الله عليه السلام: «يَا عَبْدَ اللَّهِ إِذَا صَلَّيْتَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُودَعٍ يَخَافُ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَيْهَا أَبَدًا، ثُمَّ اصْرِفْ بَبَصْرِكَ إِلَى مَوْضِعِ سُجُودِكَ، فَلَوْ تَعَلَّمَ مَنْ عَنْ يَمِينِكَ وَشِمَالِكَ لَأَحْسَنْتَ صَلَاتَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ بَيْنَ يَدَيَّ مَنْ يَرَاكَ وَلَا تَرَاهُ»^(٢).

وعن أبي عبد الله عليه السلام في حديث أَنَّهُ قَالَ: «لَأُحِبُّ لِلرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ مِنْكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلَاةٍ فَرِيضَةً أَنْ يَقْبَلَ بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ وَلَا يَشْغُلَ قَلْبُهُ بِأَمْرِ الدُّنْيَا، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقْبَلُ بِقَلْبِهِ فِي صَلَاتِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا أَقْبَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ بِوَجْهِهِ وَأَقْبَلَ بِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ بِالْمَحَبَّةِ بَعْدَ حُبِّ اللَّهِ إِيَّاهُ»^(٣).

إننا نحن المساكين المحجوبين عن المعرفة، المحرومين من التوجه إلى الحق المتعالي، لا نعرف شيئاً عن صداقة ذاته المقدس لنا وإقباله علينا ونقيس صداقة الحق على صداقة العباد. إن أهل المعرفة يقولون بأن الحق المتعالي يرفع الحجب لمحبيه، ويعلم الله ما في هذا الرفع للحجب من الكرامات! إنه غاية آمال الأولياء؛ وأقصى أمنياتهم رفع هذه الحجب.

وفي المناجاة الشعبانية لأئمة الهدى عليهم السلام: «إِلَهِي هَبْ لِي كَمَالَ الْإِنْقِطَاعِ إِلَيْكَ، وَأَنْزِرْ أَبْصَارَ قُلُوبِنَا بِضِيَاءِ نَظَرِهَا إِلَيْكَ، حَتَّى تَحْرِقَ أَبْصَارَ الْقُلُوبِ حُجَبَ النُّورِ،

(١) وسائل الشيعة، المجلد الرابع، الباب الثالث من أبواب أفعال الصلاة، ح ٦ وح ٤

(٢) وسائل الشيعة، المجلد الرابع، الباب الثاني من أبواب أفعال الصلاة، ح ٥

(٣) وسائل الشيعة، المجلد الرابع، الباب الثاني من أبواب أفعال الصلاة، ح ٦

فَتَصِلَ إِلَى مَعْدِنِ الْعِظْمَةِ، وَتَصِيرَ أَرْوَاحُنَا مُعَلَّقَةً بِعِزِّ قُدْسِكَ»^(١). إلهي ما هذه الحجب النورانية؟ وما معدن العظمة والجلال وعز القدس والكمال، الذي هو منتهى طلب هؤلاء الكبار، ونحن محرومون حتى من استيعابه العلمي فكيف بتذوقه وشهوده؟. يكفي لأهل المعرفة هذا الحديث الواحد، حتى ينفقوا جل عمرهم، لتحصيل الحب الإلهي، ويتمتعوا بالإقبال على الله.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «مَنْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ يَعْلَمُ مَا يَقُولُ فِيهِمَا، أَنْصَرَفَ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ ذَنْبٌ إِلَّا غَفَرَ لَهُ»^(٢).

مراتب حضور القلب

العبادة ثناء على المعبود، ولما كان أحد لا يستطيع أن يكتشف كيفية الثناء على الذات الأحدي المقدس؛ لأن الثناء قائم على معرفتها، ومعرفة صفاتها، وكيفية الارتباط بين عالمي: الغيب والشهادة، لذا كانت العبادات توقيفيه، فلا يحق لأحد أن يشرع عبادة من عنده، ولا اعتبار لأساليب تواضع الناس للكبار والسلطين، أمام عظمة ساحة قدس رب العالمين؛ فلا بد للإنسان من أن يتلقى كيفية العبادة والعبودية من الوحي والرسالة، من دون تصرف.

وينقسم حضور القلب، الذي هو روح العبادة على قسمين:

أحدهما: حضور القلب في العبادة، وله مراتب، وعمدتها مرتبتان:

الأولى: حضور القلب في العبادة إجمالاً: وهو أن الإنسان لدى إنجازه أية عبادة يعرف إجمالاً بأنه يشني على المعبود، على الرغم من عدم معرفته أي ثناء

(١) مفاتيح الجنان، المناجات الشعبانية

(٢) وسائل الشيعة، المجلد الرابع، الباب الثاني والثالث من أبواب أفعال الصلاة، ح ٧ وح ٥

يشني، أو أي اسم من أسماء الحق يدعو. نحن، في عبادتنا بمنزلة الأطفال، نمدح الحق، من دون أن نعرف أسرارها؟ وما الأسماء التي ترتبط بها؟ وكيف تكون ثناءً للحق جل وعلا؟ ولكن لا بد من أن نعرف إجمالاً بأنها ثناء على الكامل المطلق، والمعبود المطلق، والممدوح المطلق، على النحو الذي أثنى هو بنفسه على نفسه، وأمرنا أن نشني أمام ساحته المقدسة بهذه الكيفية.

الثانية: حضور القلب تفصيلياً؛ ولا تيسر لأحد المرتبة الكاملة منها إلا للخلص من أوليائه، ولأهل المعرفة، ولكن المراتب الدانية منها متيسرة للآخرين. فالمرتبة الأولى منها: الالتفات إلى معاني الألفاظ في مثل الصلاة، والدعاء. والمرتبة الثانية: أن يعرف بحسب الإمكان أسرار العبادة، وكيفية ثناء المعبود في كل الأوضاع والأحوال.

والآخر: حضور القلب في المعبود: وله مراتب أيضاً، وعمدتها ثلاثة: الأولى: حضور القلب في تجليات الأفعال. والثانية: حضور القلب في تجليات الأسماء والصفات. والثالثة: حضور القلب في تجليات الذات. ولكل واحدة من هذه المراتب الثلاث على نحو كلي أربع مراتب: المرتبة العلمية، والمرتبة الإيمانية، والمرتبة الشهودية، والمرتبة الفئائية.

والمقصود من حضور القلب في تجليات الأفعال العلمية، هو أن الشخص العابد السالك يدرك عن يقين وبرهان بأن مراتب الوجود كافة، قبس من فيوضات تجلي الذات الأقدس، وأن كل شيء حاضر عند ساحة قدسه، بحضور واحد، وأن الجميع شعاع مظهر مشيئته. فإذا علم العابد هذا المعنى عن علم ودليل، فهم بأنه هو وعبادته وعلمه وإرادته وقلبه وحركات قلبه وظاهره وباطنه والجميع حاضرون في ساحة قدسه بل كلّها عين الحضور.

وإذا سَجَّلَ قلم العقل هذا المعنى الثاني بالدليل، على لوح القلب، واعتقد بالترويض العلمي والعمل، بهذه القضية اليقينية الإيمانية، بلغ حضور القلب مرتبة تجلي الإيمان. وبعد حصول الكمال لهذا الإيمان والمجاهدة والترويض والتقوى الكاملة للقلب، تشمله الهداية الإلهية، ويحصل في قلبه قدرًا من تجليات الأفعال بالعيان، والشهود، ثم يتكامل حتى يصبح القلب كليًا مرآة للتجليات، ويحصل للسالك الصعق والفناء. وهذه هي المرتبة الأخيرة للحضور، التي تنتهي إلى فناء الحاضر في تجليات الأفعال. وكثير من أهل السلوك يبقون في هذا الصعق إلى الأبد ولا يصحون.

وإذا كان قلب السالك مؤهلًا لأكثر من ذلك من جراء إشعاع الفيض الأقدس في عالم الأزل، يصحو السالك من الصعقة، ويحصل له الإنس ويعود إلى عالمه ويكون موردًا لتجليات الأسماء، ويطوي تلك المراتب الأربعة، ويصل إلى مرحلة الفناء في الصفات، وبمناسبة عينه الثابتة يفنى في اسم من الأسماء الإلهية. وإن كثيرًا من أهل السلوك يبقون في هذا الفناء الأسامي ولا يصحون. ولعل الكلمة القائلة: «إِنَّ أَوْلِيَّائِي تَحْتَ قَبَابِي لَا يَعْرِفُهُمْ غَيْرِي»^(١). إشارة إلى هؤلاء الأولياء.

وإذا كان هناك استعداد أكثر من جراء تجلي الفيض الأقدس في عالم الأزل، يحصل للسالك بعد الصعقة والفناء، الأنس أيضًا ويصحو، ويصير محلاً للتجليات الذاتية ويطوي المراحل الأربعة حتى مرتبة الفناء الذاتي، والصعق الكلي فينتهي السير إلى الله ويحصل الفناء التام؛ قال بعضهم إن الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾^(٢). تشير إلى هذه الطائفة

(١) إحياء العلوم، المجلد الرابع، ص ٢٥٦

(٢) النساء: ١٠٠

من أولياء الله والسالكين إليه وأجرهم لا يكون إلا على الذات المقدس تبارك وتعالى. وقد يتفق أن يفيق السالك من فناءه فينهض بحسب استعداده، وقدر إحاطة عينه الثابتة، هداية الناس: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْفِرُ * قُرْ فَأَنْذِرُ﴾^(١).

ولابد من معرفة أن العبادات والكيفيات المعنوية لها، تختلف كثيرًا من شخص لآخر من أصحاب المقامات المذكورة وتتفاوت، فلكل منهم حظٌّ ونصيب من مناجاة الحق المتعالي.

إنَّ ما حصل للإمام الصادق عليه السلام لدى العبادة لا يمكن أن يحصل للآخرين؛ «فَقَدْ رَوِيَ أَنَّ مَوْلَانَا جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ الصَّادِقَ عليه السلام كَانَ يَتْلُو الْقُرْآنَ فِي صَلَاتِهِ فَعُشِّي عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ سُئِلَ: مَا الَّذِي أَوْجَبَ مَا انْتَهَتْ حَالُكَ إِلَيْهِ؟ فَقَالَ مَا مَعْنَاهُ: مَا زِلْتُ أَكْرُرُ آيَاتِ الْقُرْآنِ حَتَّى بَلَغْتُ إِلَى حَالٍ كَأَنِّي سَمِعْتُهَا مُشَافَهَةً مِمَّنْ أَنْزَلَهَا عَلَى الْمُكَاشَفَةِ وَالْعِيَانِ، فَلَمْ تَقُمْ الْقُوَّةُ الْبَشَرِيَّةُ بِمُكَاشَفَةِ الْجَلَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ»^(٢).

والحالة التي كانت تحصل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لم تحصل لأحد من الكائنات، فقد ورد في الحديث المشهور: «لِي مَعَ اللَّهِ حَالٌ لَا يَسَعُهُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ»^(٣). علينا أن لا نجحد هذه المقامات بل نسلم بها فإن في التسليم لأمر الأولياء فوائد كثيرة، وفي الإنكار والعياذ بالله مفسد. اللهم إني مُسَلِّمٌ لَأَمْرِهِمْ عليهم السلام.

من أسرار العبادة وتجسيم الأعمال

مَرَّ أَنْ لِلْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ وَالْأَفْعَالِ الْعِبَادِيَةِ صُورَةٌ بَاطِنِيَّةٌ مَلَكُوتِيَّةٌ، وَآثَرٌ فِي قَلْبٍ

(١) المدثر: ١- ٢

(٢) فلاح السائل ص ١٠٧

(٣) كتاب أحاديث المشوى

العابد، أما الصورة الباطنية فهي التي تعمّر العوالم البرزخية والجنة الجسمانية؛ لأن أرض الجنة قاع خالية من كل شيء، وأن الأذكار والأعمال موادّ لإنشاء وبناء لها.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ صَلَّى الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَاتِ فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا وَأَقَامَ حُدُودَهَا، رَفَعَهَا الْمَلَكُ إِلَى السَّمَاءِ بَيْضَاءَ نَقِيَّةً يَقُولُ: حَفِظَكَ اللَّهُ كَمَا حَفِظْتَنِي، واستودعك الله كما استودعني ملكا كريما. وَمَنْ صَلَّى بَعْدَ وَقْتِهَا مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَلَمْ يُقِمِ حُدُودَهَا، رَفَعَهَا الْمَلَكُ سَوْدَاءَ مُظْلِمَةً وَهِيَ تَهْتِفُ بِهِ: ضَيَّعْتَنِي ضَيَّعَكَ اللَّهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِي وَلَا رَعَاكَ اللَّهُ كَمَا لَمْ تَرَعْنِي»^(١).

ويفاد من هذا الحديث الشريف فضلا عن تحقق الصورة الملكوّية للعمل، حياة الصورة الملكوّية وشؤونها الحياتية أيضًا، وهذا ضرب من البرهان على تجسم الأعمال. والأخبار تدل على أن لجميع الموجودات حياة ملكوتية، وأن عالم الملوك كله حياة وعلم. ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾^(٢).

وعن أبي عبد الله في حديث طويل: «إِذَا بَعَثَ اللَّهُ الْمُؤْمِنَ مِنْ قَبْرِهِ خَرَجَ مَعَهُ مِثَالُ يَقْدُمُ أَمَامَهُ، كُلَّمَا يَرَى الْمُؤْمِنُ هَوْلًا مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ قَالَ لَهُ الْمِثَالُ: لَا تَفْزَعْ وَلَا تَحْزَنْ وَأَبَشِّرْ بِالسُّرُورِ وَالْكَرَامَةِ مِنَ اللَّهِ (عَزَّ، وَجَلَّ)، حَتَّى يَقِفَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ (عَزَّ، وَجَلَّ) فَيَحَاسِبُهُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَأْمُرُ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمِثَالُ أَمَامَهُ، فَيَقُولُ لَهُ الْمُؤْمِنُ: يَرْحَمَكَ اللَّهُ نَعَمْ الْخَارِجُ، خَرَجْتَ مَعِيَ مِنْ قَبْرِي وَمَا زِلْتَ تُبَشِّرُنِي بِالسُّرُورِ وَالْكَرَامَةِ مِنَ اللَّهِ حَتَّى رَأَيْتُ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا السُّرُورُ الَّذِي كُنْتَ أَدْخَلْتَهُ عَلَى أَخِيكَ الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا، خَلَقَنِي اللَّهُ (عَزَّ، وَجَلَّ) مِنْهُ لِأُبَشِّرَكَ»^(٣).

(١) وسائل الشيعة، المجلد الثالث، الباب الثالث من أبواب المواقيت، ح ١٧، ص ٩٠.

(٢) العنكبوت: ٦٤.

(٣) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب أذخال السرور على المؤمنين، ح ٨.

«فالأعمال الصالحة والاعتقادات الصحيحة تظهر صوراً نورانية مستحسنة موجبة لصاحبها كمال السرور والابتهاج، والأعمال السيئة والاعتقادات الباطلة تظهر صوراً ظلمانية مستقبحة توجب غاية الحزن والتألم»^(١)؛ فعلى كل مؤمن بعالم الغيب وبأحاديث الأنبياء والأولياء وأهل المعرفة، أن يصلح أعماله، ويبدل الجهد حتى يأتي بالفرائض على الأقل مع توجه القلب، ويجبر عيوبها بالنوافل؛ فعن أبي جعفر عليه السلام قال: «إِنَّمَا جُعِلَتِ النَّافِلَةُ لِيَتِمَّ بِهَا مَا يَفْسُدُ مِنَ الْفَرِيضَةِ»^(٢)، وعن أبي جعفر عليه السلام: «كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليهما السلام يُصَلِّي فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ الْفَ رَكْعَةً وَكَانَتْ الرِّيحُ تُثْبِتُهُ مِثْلَ السُّبُطَةِ»^(٣).

التفرغ في العبادة يوجب الغنى في القلب

لما لم يكن أحد غنياً حقيقياً أمام ساحة الحق (جلّ جلاله) المقدسة الغني بالذات، وكانت الموجودات كلها فقيرة ومحتاجة؛ لذا كلما كان تعلق القلب بغير الحق أشدّ، كانت الحاجة أكثر، أما أمر الحاجة القلبية، والفقر الروحي، فواضح جداً؛ لأن التعلق والتوجه نفسه فقر؛ وأما الحاجة الخارجية فأكثر وضوحاً؛ لأن أحداً لا يستطيع النهوض بأعماله بنفسه، فيحتاج في ذلك إلى غيره؛ والأثرياء وإن ظهرت في مظهر الغنى ولكن بالتمعن يتبين أن حاجتهم تتضاعف على قدر تزايد ثرواتهم؛ فالأثرياء فقراء في مظهر الأغنياء، ومحتاجون في زيٍّ من لا يحتاج. وكلّما رَكَلَ الإنسان بقدمه التعلق بالدنيا، تحوّل وجه قلبه إلى الغني المطلق، وآمن بالفقر الذاتي للموجودات، وعرف بأن أحداً من الكائنات لا يملك لنفسه

(١) الأربعون، للشيخ البهائي، ص ٢٠٠.

(٢) وسائل الشيعة، المجلد الثالث، باب ١٧ من أبواب أعداد الفرائض ونوافلها، ح ١٠.

(٣) الإرشاد: ٢٥٦.

شيئاً، وأن جميع الأقوياء والأعزّاء والسلاطين قد سمعوا بقلوبهم أمام ساحة الحق المقدسة من الهاتف الملوكوتي، واللسان الغيبي، الآية الكريمة: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١).

ورد في الحديث أن جبرائيل قد هبط بمفاتيح خزائن الأرض لخاتم النبيين ﷺ، فتواضع ﷺ ولم يقبلها وافتخر بفقره.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمٍ جَرَادَةٍ تَقْضُمُهَا»^(٢)، ويقول الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «أَسْتَنْكَفُ أَنْ أَطْلُبَ الدُّنْيَا مِنْ خَالِقِهَا فَكَيْفَ بِطَلَبِهَا مِنْ مَخْلُوقٍ مِثْلِي»^(٣).

إن أهل الحق يعرفون أن التوجه نحو خزائن الدنيا والمال والجاه ومجالسة أهلها يسبب أي نوع من الكدورة والظلام في القلب، وكيف يبعث على الوهن والفتور في العزيمة، ويوجب فقر القلب، ويصرفه عن الانتباه إلى النقطة المركزية الكاملة بصورة مطلقة؟ ولكن عندما أعطيت القلب إلى أهله وأعرضت عن غيره تجلّى فيه صاحبه؛ وتجلي الغني المطلق، يدفع إلى الغنى المطلق، ويغرق القلب في بحر العزة: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤)، ويتولى صاحب البيت إدارة شؤون عبده، بل يصبح هو سمعه وبصره ويده ورجله، وتحقق ثمرة التقرب بالنوافل، فعن أبي جعفر عليه السلام في حديث قدسي: «وَإِنَّهُ لَيَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّافِلَةِ حَتَّى أَحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَلِسَانَهُ الَّذِي

(١) فاطر: ١٥

(٢) الخطبة ٢٢٤ من نهج البلاغة

(٣) علل الشرائع، ج ١، الباب: ١٦٥، ح ٣.

(٤) المناهقون: ٩

يَنْطِقُ بِهِ وَيَدَّهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا»^(١). فتوصد باب فقر العبد وفاقته نهائياً ويستغني عن العالمين. ويرتفع من وراء هذا التجلي الخوف من جميع الكائنات، ويحلّ الخوف من الحق المتعالى محله، وتملأ القلب عظمة الحق وهيبته، ولا يرى لغير الحق عظمة واحشاماً وتصرفاً، ويدرك حقيقة «لا مؤثر في الوجود إلا الله» بكل قلبه.

أمّا غفلة القلب عن الاشتغال بالحق فهي أساس كل الشقاء، وينبوع كل النقائص ومبعث كل الأمراض النفسية، فيحول بين القلب والحق المتعالى ظلامٌ داكن وكدورة شديدة وحجب غليظة تمنع من تغلغل نور الهداية فيه، وتحرمه من التوفيقات الإلهية، فينعطف القلب كلياً إلى الدنيا وملذاتها، ويتعدى في كل حركاته وسكناته عن ساحة الحق المتعالى، فيكون نصيبه الخذلان. وهو ما تولى الحديث الشريف بيانه: «وَأِنْ لَا تَفْرَغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأُ قَلْبَكَ شُغْلًا بِالدُّنْيَا، ثُمَّ لَا أَسَدُّ فَاقَتَكَ، وَأَكْمَلَكَ إِلَى طَلَبِكَ».

تنبيه

المقصود من إيكال الأمر إلى العبد (أَكْمَلَكَ إِلَى طَلَبِكَ)، ليس تفويض الأمر إليه؛ لأن هذا المسلك باطل؛ إذ لا يوجد كائن خارج عن نطاق تصرف الحق سبحانه، والتعبير بإيكال الأمر إلى العبد إشارة إلى التوجّه إلى الدنيا، وتغلب الأنانية عليه، مقابل الذي يولي وجهه نحو الحق والملكوت الأعلى، فيغمر جوانب قلبه نور الحق، وتكون تصرفاته حقاً، بل يتحول في بعض مراحل وجوده إلى وجود الحق، وقد أشير إلى بعض هذه المقامات في حديث التقرب إلى الله بالنوافل. والله العالم.

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب من أذى المسلمين، ج ٨.



الْحَدِيثُ الثَّامِنُ وَالْعِشْرُونَ

لقاء الله

عن عبد الصّمد بن بشير، عن بعض أصحابه، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

«قُلْتُ أَصْلَحَكَ اللَّهُ: مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ أَبْغَضَ لِقَاءَ اللَّهِ أَبْغَضَ اللَّهُ لِقَاءَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنُكْرَهُ الْمَوْتَ: فَقَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ حَيْثُ تَذْهَبُ، إِنَّمَا ذَلِكَ عِنْدَ الْمَعَايِنَةِ إِذَا رَأَى مَا يُحِبُّ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُقَدِّمَ عَلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُحِبُّ لِقَاءَهُ، وَهُوَ يُحِبُّ لِقَاءَ اللَّهِ حِينَئِذٍ، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنْ لِقَاءِ اللَّهِ، وَاللَّهُ يُبْغِضُ لِقَاءَهُ»^(١).

معاني المفردات

أَصْلَحَكَ اللَّهُ: دعاء في الخير، وهو مستحب وإن كان مضمونه حاصلًا في المدعوله.

المُعَايِنَةُ: مصدر من باب المفاعلة، وعَايَنْتُ الشَّيْءَ عِيَانًا: إِذَا رَأَيْتُهُ بِعَيْنِكَ. ويسمى حين النزع والاحتضار بالمعاينة؛ لأن الميّت يشاهد آثار عالم الآخرة بعينه، إذ تنفتح عيونه الغيبية الملكوتية، وتكشف له نبذة من أحوال الملكوت.

لقاء الله وكيفيته

المقصود بمقام لقاء الله لدى من يدعيه: أنه بعد حصول التقوى التامة

(١) فروع الكافي، المجلد الثالث، ص ١٣٤

والكاملة، وانصراف القلب نهائياً عن جميع العوالم، ورفض التوجه نحو النشاطين: الملك، والملكوت. ووطأ الأناية والإنية، والإقبال الكلي نحو الحق المتعالي وأسماء ذاته المقدس وصفاته، والانصهار في عشق ذاته المقدس وحبّه، وتحمل جهد ترويض القلب، يحصل صفاء في القلب لدى السالك يبعث على تجلّي أسمائه، وصفاته، وتمزّق الحجب الغليظة التي أسدلت بين العبد من جهة، والأسماء والصفات من جهة أخرى، والفناء في الأسماء والصفات، والتعلق بعزّ قدسه وجلاله والتدليّ التام بذاته. وفي هذا الحال لا يوجد حاجز بين روح السالك المقدسة والحق المتعالي سوى حجاب الأسماء والصفات.

ويمكن أن يرفع الستار النوري للأسماء والصفات لبعض أرباب السلوك أيضاً، وينال التجليات الذاتية الغيبية، ويرى نفسه متديلاً ومتعلقاً بالذات المقدس، ويشهد الإحاطة القيومية للحق والفناء الذاتي لنفسه، ويرى بالعيان أن وجوده ووجود جميع الكائنات، ظلّاً للحق المتعالي.

هذا القلب الذي بلغ في سعته، وإحاطته، الموجودات المجردة بل اجتازها، ووطأ بأقدامه رؤوسها، فلا حجاب بينه وبين الحق المتعالي؛ ورد في الحديث الشريف: «إِنَّ رُوحَ الْمُؤْمِنِ لَأَشَدُّ اتِّصَالًا بِرُوحِ اللَّهِ مِنْ اتِّصَالِ شُعَاعِ الشَّمْسِ بِهَا»^(١)، وفي المناجاة الشعبانية: «إِلَهِي هَبْ لِي كَمَالَ الْإِنْقِطَاعِ إِلَيْكَ، وَأَثَرِ أَبْصَارِ قُلُوبِنَا بِضِيَاءِ نَظَرِهَا إِلَيْكَ حَتَّى تَخْرِقَ أَبْصَارَ الْقُلُوبِ حُجُبَ النُّورِ فَتَصِلَ إِلَى مَعْدِنِ الْعِظَمَةِ وَتَصِيرَ أَرْوَاحُنَا مُعَلَّقَةً بِعِزِّ قُدْسِكَ. إِلَهِي وَاجْعَلْنِي مِمَّنْ نَادَيْتَهُ فَأَجَابَكَ وَلَا حَظَّتْهُ فَصَعَوْقَ لَجَلَالِكَ فَنَاجَيْتَهُ سِرًّا وَعَمِلَ لَكَ جَهْرًا»^(٢). وفي الكتاب

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب أخوة المؤمن، ح ٤

(٢) مفاتيح الجنان، المناجاة الشعبانية

الإلهي الشريف، لدى حكاية معراج الرسول الأكرم ﷺ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَدَنَّا فَرَكَكَ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾^(١). هل نستطيع أن نوجه قول أمير المؤمنين عليه السلام: «فَهَبْنِي صَبْرْتُ عَلَىٰ عَذَابِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلَىٰ فِرَاقِكَ؟»^(٢). وهل يمكن تفسير: «ما عَبْدُكَ خَوْفًا مِنْ نَارِكَ، وَلَا طَمَعًا فِي جَنَّتِكَ، بَلْ وَجَدْتُكَ أَهْلًا لِلْعِبَادَةِ فَعَبَدْتُكَ، عِبَادَةَ الْأَحْرَارِ»^(٣) على أن هذا الأئين من جرّاء فراق الجنة وأطعمتها؟ هيهات.

هل يمكن القول أن تجلّي جمال الحق سبحانه ليلة المعراج، والمجلس الذي أقيم في تلك الليلة من دون أن يحضره أحد من الكائنات، أو يطلع على أسرارها، حتى أمين الوحي جبرائيل، بأنه مشاهدة للجنة وقصورها المشيّدة، وأن أنوار العظمة والجلال هي رؤية لنعم الحق؟. من المؤسف أننا نحن المساكين، المسجونين في الحجب المظلمة، لا نفهم إلاّ المطعومات والمشروبات، والمنكوحات وأمثالها، وإذا أراد فيلسوف أو عارف أن يرفع هذه الحجب، رأينا سعيه هذا غلطاً، وما دمنا مسجونين في البئر المظلم، عالم الملك، لم نستوعب شيئاً من أصحاب المعارف والمشاهدات.

ولكن عزيزي: لا تظن بأن قلبك يضاهي قلوب الأنبياء، وأهل المعارف. إن قلوبنا مشحونة بغبار التعلق بالدنيا، وملذاتها، وإن انغماسنا في الشهوات يمنع قلوبنا من أن تكون مرآة لتجلي الحق سبحانه، ومحلاً لظهور المحبوب، فنفتح باب التأويل، ونسدّ باب معرفة الله، فنفسر قول الإمام عليه السلام: «مَا رَأَيْتُ شَيْئًا إِلَّا وَرَأَيْتُ اللَّهَ مَعَهُ، وَقَبْلَهُ، وَفِيهِ»^(٤) على رؤية الآثار. وقوله: «لَمْ أَعْبُدْ رَبًّا لَمْ أَرَهُ»^(٥)

(١) النجم: ٨ و ٩

(٢) مفاتيح الجنان، دعاء كميل

(٣)

(٤) الأسفار، ج ١، ص ١١٧، علم اليقين، ج ١، ص ٤٩، الكلمات المكنونة ص ٣،

(٥) التوحيد الشيخ الصدوق، ص ٣٠٥، الباب ٤٣، ح ١

بالعلم بالمفاهيم الكلية التي تضارع علومنا، وتأوّه الأولياء وتحرقهم في معاناة الفراق، بالبعد عن الحور العين، وطيور الجنة، نعم، لسنا رجال تلك الساحات، ولا نفهم إلا المتع الحيوانية والجسمانية، ولهذا ننكر جميع المعارف.

إننا نترك لعن ملعونين على لسان الله ورسوله ﷺ، ونلعن من يصرخ بالإيمان بالله ورسوله والأئمة الهادين عليهم السلام. وإنني أعلم بأن هذا اللعن والتوهين لا يسيء إلى مقامهم، بل قد يضاعف حسناتهم ويرفع من درجاتهم، ولكنه يسيء إلينا وقد يبعث على الخذلان وسلب التوفيق منا.

إنَّ العلم الذي لا يفضي إلى الإيمان هو الحجاب الأكبر؛ ولكن إذا لم تُرد الحجاب، ولم نتعلم، لا نتمكن من خرقه. إن العلوم بذور المشاهدات. ونادراً ما يحصل أن يبلغ الإنسان إلى مقامات شامخة من دون تعلّم حجاب المصطلحات والعلوم؛ فالطريق المألوف لمعرفة الله، وطلبه، هو الابتداء بإنفاق وقت في التفكير بالحق سبحانه، والحصول على العلم بالله، وأسماء ذاته المقدس، وصفاته، بالتلمذة على يد رجال ذلك العلم، ثم التزوّد من المعارف بواسطة الرياضة العلمية، والعملية، وينتهي بذلك حتماً إلى النتيجة المنشودة.

وإن لم يكن الإنسان من أهل المصطلحات - العلم - يستطيع أن يصل إلى النتيجة من خلال تذكّر المحبوب، وانشغال القلب بالذات المقدّس؛ فمن المعلوم أنَّ مثل هذا الانشغال القلبى، والتوجه الباطنى سيكون سبباً للهداية بعونه تعالى، ولعلّ الله سبحانه وتعالى يفتح عليه باباً من المعارف، إنه وليّ النعم.

انكشاف بعض الأحوال الغيبية لدى الموت

إنَّ الإنسان لدى سكرات الموت، والاحتضار، يشاهد صور أعماله، وآثارها، ويسمع من ملك الموت بشارة الجنة، أو الوعيد بالنار؛ وتنكشف له آثار

أعماله في قلبه، من: النورانية، وشرح الصدر، أو أضدادها، من: الظلام، وضيق الصدر؛ فإن كان من أهل الإيمان والسعادة، يستعد قلبه عند معانيه البرزخ لمشاهدة النفحات اللطيفة اللطيفة والجمال، وتظهر فيه آثار تجلياتها، فيأخذ القلب في حب لقاء الله.

وإن كان من أهل الإيمان والعمل الصالح، أغدقت عليه من كرامات الحق المتعالي بقدر إيمانه وأعماله، فيتوق إلى الموت، ولقاء كرامات الحق، ويرتحل من هذا العالم بالبهجة والروح والريحان.

وإن كان من أهل الشقاء، انكشف عليه بقدر نصيبه من دار الدنيا، وما اكتسبه لنفسه منها، من آثار السخط الإلهي، والقهر، فدخل الذعر في نفسه، فلا يكون عنده شيء أبغض من التجليات الجلالية، والقاهرة، للحق المتعالي. وينكشف على أهل المعاصي، والكبائر، بقدر اجتراحهم للسيئات، أنموذج من جهنهم، فلا يكون شيء عندهم أبغض من الرحيل من هذا العالم، فيرحلون بكل عنف وقسوة وعذاب.

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «حَرَامٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّهَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ هِيَ أَمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»^(١).

وعن عباد بن مروان قال: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ: «مَنْكُمُ وَاللَّهِ يُقْبَلُ، وَلَكُمْ وَاللَّهِ يُغْفَرُ، إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ أَنْ يُغْتَبَطَ وَيَرَى الشُّرُورَ وَقُرَّةَ الْعَيْنِ إِلَّا أَنْ تَبْلُغَ نَفْسُهُ هَهُنَا - وَأَوْمَى بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ.

ثُمَّ قَالَ عليه السلام: إِنَّهُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ وَاحْتَضَرَ، حَضَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَعَلِيٌّ، وَالْأَئِمَّةُ، وَجَبْرِئِيلُ، وَمِيكَائِيلُ وَمَلَكُ الْمَوْتِ عليه السلام، فَيَدْنُو مِنْهُ جَبْرِئِيلُ عليه السلام، فيقول

(١) علم اليقين للفيض الكاشاني، المجلد الثاني، ص ٨٥٣

لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ هَذَا كَانَ يُحِبُّكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ فَأَحْبَبُهُ، فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا جَبْرَائِيلُ إِنَّ هَذَا كَانَ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ فَأَحْبَبُهُ، فَيَقُولُ جَبْرَائِيلُ: يَا مَلَكَ الْمَوْتِ إِنَّ هَذَا كَانَ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَآلَ رَسُولِهِ فَأَحْبَبُهُ وَارْفُقْ بِهِ. فَيَدْنُو مِنْهُ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَقُولُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَخَذْتَ فِكَاكَ رَقَبَتِكَ؟ أَخَذْتَ أَمَانَ بَرَاءَتِكَ؟ تَمَسَّكَتَ بِالْعِصْمَةِ الْكُبْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؟ فَيُوقِّفُهُ اللَّهُ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ لَهُ: وَمَا ذَاكَ؟ فَيَقُولُ: وَلَايَةُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَقُولُ: صَدَقْتَ، أَمَّا الَّذِي كُنْتَ تَحْذَرُ فَقَدْ آمَنَكَ اللَّهُ، وَأَمَّا الَّذِي كُنْتَ تَرْجُو فَقَدْ أَذْرَكَتْ، أَبْشِرْ بِالسَّلَفِ الصَّالِحِ مُرَافَقَةٍ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلِيٍّ، وَالْأُئِمَّةُ مِنْ وَرَثَةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثُمَّ يَسَلُّ نَفْسَهُ سَلًّا رَفِيقًا ثُمَّ يَنْزِلُ بِكَفْنِهِ مِنَ الْجَنَّةِ وَخُنُوطُهُ خُنُوطُ كَالْمِسْكِ الْأَذْفَرِ فَيُكْفَنُ بِذَلِكَ الْكَفَنِ وَيُخْنَطُ بِذَلِكَ الْخُنُوطِ، ثُمَّ يُكْسَى حُلَّةً صَفْرَاءَ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ. فَإِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ فُتِحَ لَهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْ رَوْحِهَا وَرِيحَانِهَا ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمِ نَوْمَةَ الْعُرُوسِ عَلَى فِرَاشِهَا، أَبْشِرْ بِرُوحِ وَرِيحَانِ وَجَنَّةِ نَعِيمٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانٍ.

قَالَ: وَإِذَا حَضَرَتِ الْكَافِرُ الْوَفَاةُ حَضَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَعَلِيٌّ وَالْأُئِمَّةُ وَجَبْرَائِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَمَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَدْنُو مِنْهُ جَبْرَائِيلُ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا كَانَ مُبْغِضًا لَكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ فَأَبْغِضْهُ، فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا جَبْرَائِيلُ إِنَّ هَذَا يُبْغِضُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَهْلَ بَيْتِ رَسُولِهِ فَأَبْغِضْهُ: فَيَقُولُ جَبْرَائِيلُ: يَا مَلَكُ الْمَوْتِ إِنَّ هَذَا يُبْغِضُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَهْلَ بَيْتِ رَسُولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَبْغِضْهُ وَاعْنِفْ عَلَيْهِ. فَيَدْنُو مِنْهُ مَلَكُ الْمَوْتِ فَيَقُولُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَخَذْتَ فِكَاكَ رَقَبَتِكَ؟ أَخَذْتَ بَرَاءَةً؟ أَمَّا تَمَسَّكَتَ بِالْعِصْمَةِ الْكُبْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ لَهُ: أَبْشِرْ يَا عَدُوَّ اللَّهِ بِسَخَطِ عَذَابِهِ وَالنَّارِ، أَمَّا الَّذِي كُنْتَ تَرْجُو فَقَدْ فَاتَكَ، وَأَمَّا الَّذِي كُنْتَ

تَحْذَرُ فَقَدْ نَزَلَ بِكَ. ثُمَّ يَسْأَلُ نَفْسَهُ سَلًا عَنِيفًا، ثُمَّ يُوَكَّلُ بِرُوحِهِ ثَلَاثُمَائِهِ شَيْطَانٍ يَبْزُقُونَ فِي وَجْهِهِ وَيَتَأَذَى بِرِيحِهِ، فَإِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ فَتُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ النَّارِ يَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْ فِيحِ رِيحِهَا وَلَهْبِهَا»^(١).

إن الحياة الدنيوية، كانت ستارًا ملقًى على عيوبنا، وحجابًا على وجه أهل المعارف، وعندما يزاح هذا الستار، ويُخترق هذا الحجاب، يرى الإنسان أنموذجًا، مما أعدّه لنفسه، ومما كان فيه؛ فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٢): «أَحْكَمُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى الله عليه وآله يُسَمِّيَهَا: الْجَامِعَةَ»^(٣).

إذن من المهم السعي لتطوير حالة القلب، وجعلها إلهية، وتوجيهها نحو الحق المتعالي وأوليائه ودار كرامته، ويتم هذا قطعًا بواسطة التفكير في آلاء الذات المقدس، ونعمائه والمحافظة على طاعته وعبادته. مع الاستعانة بالله في جميع الأحوال، ولاسيما في حالات الخلوة مع الله بكل تذلل وتضرع وبكاء، ويطلب منه أن يلقي حبه في قلبه، ويخرج حب الدنيا، وما عدا الله من قلبه، وبعد التمعن في ذلك مدة من الزمن، والمراقبة، وإفهام القلب النتائج الحسنة لمحبة الله، والنتائج السيئة لحب الدنيا، يتحقق ذلك إن شاء الله تعالى.

معنى حب الحق المتعالي وبغضه

إن نسبة الحب والبغض وأمثالها للحق المتعالي، الواردة في القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة، ليست بمعناها المتفاهم العرفي؛ لأن لازمها الانفعال

(١) علم اليقين، المجلد ٢، ص ٨٥٤ - ٨٥٦.

(٢) الزلزلة: ٧

(٣) هذه الرواية منقولة عن عبد الله بن مسعود كما في مجمع البيان المجلد الخامس ص ٥٢٥.

النفسي الذي يتنزّه الحق سبحانه منه.

إنَّ سخط الحق المتعالى على عبده، هو ظهور القهَّارية والانتقام؛ وحبّه له، هو ظهور بالرحمة والكرامة. وعليه نقول: إن أمثال هذه الأوصاف والأحوال التي تلازم في عالم الملك، التجدد والانفعال، توجد في العوالم الغيبية، والنشآت التجردية ولا سيّما في عالم الأسماء ومقام الواحدية، في صورة منزّهة وبعيدة عن جميع النقائص، ويكون التعبير عن تلك الصور، بحسب النشأة التجردية والصقع الربوبي مغايرًا عن التعبير عنها في هذا العالم.

إن التجليات الرحمانية والرحيمية إذا ظهرت في هذا العالم، كانت في صورة الحب والرحمة واللطف، الملازمة للانفعال والتأثر، وذلك نتيجة ضيق هذا العالم. ففي الحديث أن للرحمة مئة جزء، وإن جزءاً واحداً منها قد هبط إلى هذا العالم، وتحققت به كل الرحمة فيه، نحو الرحمة الحاصلة بين الأولاد والأبوين.

والتجليات القاهرية والمالكية، التي هي من تجليات الجلال، تظهر في هذا العالم في صورة البغض والغضب الملازمين للانفعال والتأثر أيضاً.

إن باطن الحب، والبغض، والغضب؛ الرحمانية، والقهَّارية، وتجليات الجمال، والجلال، موجودة بعين الذات، ولا تتطرق إليها الكثرة والتجدد والانفعال. ولما كان المظهر: (الحب، والبغض) فانياً في الظاهر: (الرحمانية والقهَّارية)؛ والظاهر يتجلى في المظهر، يصحّ في بعض المقامات التعبير عن أحدهما بالآخر. وعليه يكون سخط الحق المتعالى لعبده، ظهوراً بالقهَّارية والانتقام، وظهور حبه له، بالرحمة والكرامة. والله العالم.



الْحَدِيثُ الثَّاسِعُ وَالْعِشْرُونَ

وَحْيَةُ النَّبِيِّ لِعَلِيِّ بِخُصَالِ

بالسَّندِ المتَّصِلِ عن معاوية بن عَمَّارٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ:

«كَانَ فِي وَصِيَّةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله لِعَلِيِّ عليه السلام أَنْ قَالَ: يَا عَلِيُّ أَوْصِيكَ فِي نَفْسِكَ بِخِصَالٍ فَأَحْفَظْهَا عَنِّي، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّهُ. أَمَّا الْأُولَى: فَالْصَّدْقُ وَلَا يَخْرُجَنَّ مِنْ فَيْكِ كَذِبٌ أَبَدًا. وَالثَّانِيَةُ: الْوَرَعُ وَلَا تَجْتَرِئْ عَلَى خِيَانَةٍ أَبَدًا. وَالثَّالِثَةُ: الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ ذِكْرُهُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ. وَالرَّابِعَةُ: كَثْرَةُ الْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى يُبْنَى لَكَ بِكُلِّ دَمْعَةٍ الْفُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ. وَالْخَامِسَةُ: بِذَلِكَ مَالِكَ وَدَمَكَ دُونَ دِينِكَ. وَالسَّادِسَةُ: الْأَخْذُ بِسُنَّتِي فِي صَلَاتِي، وَصَوْمِي، وَصَدَقَتِي، أَمَّا الصَّلَاةُ فَالْخُمْسُونَ رُكْعَةً، وَأَمَّا الصَّيَامُ فَثَلَاثَةُ أَيَّامٍ فِي الشَّهْرِ: الْخَمِيسُ فِي أَوَّلِهِ، وَالْأَرْبَعَاءُ فِي وَسْطِهِ، وَالْخَمِيسُ فِي آخِرِهِ، وَأَمَّا الصَّدَقَةُ فَجُهِدُكَ حَتَّى تَقُولَ: قَدْ أَسْرَفْتُ، وَلَمْ تُسْرِفْ.

وَعَلَيْكَ بِصَلَاةِ اللَّيْلِ، وَعَلَيْكَ بِصَلَاةِ اللَّيْلِ، وَعَلَيْكَ بِصَلَاةِ اللَّيْلِ،
وَعَلَيْكَ بِصَلَاةِ الزَّوَالِ، وَعَلَيْكَ بِصَلَاةِ الزَّوَالِ، وَعَلَيْكَ بِصَلَاةِ الزَّوَالِ،
وَعَلَيْكَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَعَلَيْكَ بِرَفْعِ يَدَيْكَ فِي صَلَاتِكَ
وَتَقْلِيلِهَا، وَعَلَيْكَ بِالسَّوَالِكِ عِنْدَ كُلِّ وُضُوءٍ، وَعَلَيْكَ بِمَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ
فَارْكَبْهَا وَمَسَاوِي الْأَخْلَاقِ فَاجْتَنِبْهَا، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَلَا تَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَكَ»^(١).

(١) أصول الكافي، المجلد ١، كتاب فضل العلم، باب النوادر، ح ٥

معاني المفردات

الخصال: جمع خصلة، ومعناها: الفضيلة النابعة من السجية، وهو ما في (الصَّحاح)، وعليه يكون استعمالها في مطلق الأفعال والخلق، كما في هذا الحديث الشريف وغيره، من باب المجاز. ومن الممكن أن تكون الخصلة، أعم من الفضيلة الراسخة في طبيعة الإنسان، فيكون استعمالها في مثل هذه الموارد من باب الحقيقة.

الورع: بفتح الراء، و(الرَّعة)، مصدران لـ (ورع يَرع بكسر الراء فيهما)، ومعناه: التقوى أو شدة التقوى ومنتهى الحذر. ومن المحتمل أن يكون المعنى مأخوذاً من (ورعته توريعاً)، أي: كففته؛ لأن الورع في الحقيقة، كفّ النفس، ومنعها من تخطّي حدود الشرع والعقل. أو من ورّع بمعنى الرد، يقال: ورّعت الإبل عن الماء إذا رددتها؛ لأن المؤمن يردّ نفسه عن الشهوات والولوج فيها. لا تَجْتَرِي: من باب الافتعال، بمعنى الجسارة والشجاعة، وكثرة الإقدام في الأمور.

فَجْهْدُكَ: الجُهدُ بضمّ الجيم، وفتحها: الطاقّة، والمَشَقَّةُ، يُقال: جَهِدَ دَابَّتَهُ وَأَجْهَدَهَا، إذا استعملها أكثر من طاقتها. والجهد أيضاً بمعنى: الجدّية والإصرار. وهذه المعاني تناسب هذه الرواية.

عَلَيْكَ: اسم فعل، تستعمل بمعنى الفعل المتعدي، أو في محل الفعل المتعدي، ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾^(١) أي: الزموا، وعليه تكون الباء للتأكيد، لا للتعدي. وقال في مجمع البحرين: إذا تعدّت عليك بالباء كان معناها: استمسك مع إفادة المبالغة.

مقدمة

يتضح أهمية هذه الوصايا من نواح عديدة، هي:

الأولى: أن كون الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مخاطباً بالوصية يكشف عن عظمتها، وأهميتها؛ إذ أوصى بها من يعرف أنه لا يتهاون بها؛ واحتمال إرادة إفهام الآخرين، من قبيل (إِيَّاكَ أَعْنَى وَأَسْمَعِي يَا جَارَةَ) بعيد؛ لأن سياق الحديث يدلّ على أنه المقصود مباشرة، نحو: (فِي نَفْسِكَ)، و(احْفَظْهَا)، و(اللَّهُمَّ أَعْنَهُ). وقد ورد في إحدى وصايا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام إلى ولديه الإمامين الحسين عليه السلام: «أَوْصِيكُمَا وَأَهْلَ بَيْتِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي»، وتكشف هذه الوصايا عن شدة اهتمام المعصومين عليهم السلام بعضهم ببعض.

الثانية: أساليب التأكيد في الوصية على رغم العلم بعدم تجاوزها قيد أنملة، وعدم الوهن تجاهها، نحو: (يَا عَلِيّ أَوْصِيكَ)، و(فَاَحْفَظْهَا عَنِّي)، والدعاء: (اللَّهُمَّ أَعْنَهُ)، ونون التأكيد، والتكرار.

والإمام عليه السلام وإن كان في الأصل هو المخاطب، ولكن التكليف عامة، ومشتركة بين الجميع، إذ لا تعطل برحيل المخاطب، بل هي متواصلة مع الأجيال.

في مفسد الكذب

إنّ تقديم الوصية بالصدق يدلّ على أهميته على الوصايا الأخرى، ولنبداً بالحديث عن مفسد الكذب، فالكذب رذيلة اتفق العقل، والنقل على قبحها، وفسادها، وهي في نفسها من الفواحش، والمعاصي الكبيرة، وقد تترتب عليها مفسد أخرى، لا تقلّ عنها، وقد يسقط الإنسان من أعين الناس في الوسط

الاجتماعي إثر كذبة واحدة عندما تُكتشف، ولا يستطيع إلى نهاية العمر أن يجبرها.

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إِنَّ اللَّهَ (عَزَّ وَجَلَّ) جَعَلَ لِلشَّرِّ أَقْفَالًا، وَجَعَلَ مَفَاتِيحَ تِلْكَ الْأَقْفَالِ، الشَّرَابُ؛ وَالْكَذِبُ أَشْرُّ مِنَ الشَّرَابِ»^(١).
وعنه عليه السلام قال: «الْكَذِبُ هُوَ خَرَابُ الْإِيمَانِ»^(٢).

إن الكذب من المفسد، التي فقد الإحساس بقبحها نهائياً من جرّاء شيوعها بين الناس، ولكن سيأتي وقت نرى فيه أن الإيمان الذي هو رأس مال حياة عالم الآخرة، قد زال من أيدينا من جرّاء الاستهانة بالكذب ولم نشعر بذلك أبداً.

وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ وَيَكُونُ بَخِيلًا؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: وَيَكُونُ كَذَّابًا؟ قَالَ: لَا»^(٣).

ولقد استنكرت الأخبار الكذب حتى هزله، وأفتى العلماء بحرمة أيضاً، ومنهم صاحب الوسائل^(٤). وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «كَانَ عَلِيٌّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليهما السلام يَقُولُ لِوَلَدِهِ: اتَّقُوا الْكَذِبَ، الصَّغِيرَ مِنْهُ وَالْكَبِيرَ فِي كُلِّ جَدٍّ وَهَزَلٍ فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَذَبَ فِي الصَّغِيرِ اجْتَرَى فِي الْكَبِيرِ أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَصْدُقُ حَتَّى يَكْتَبُهُ اللَّهُ صَدِيقًا، وَمَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَكْذِبُ حَتَّى يَكْتَبَهُ اللَّهُ كَذَّابًا»^(٥).

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الكذب، ح ٣

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الكذب، ح ٤

(٣) وسائل الشيعة، المجلد الثامن، الباب ١٣٨، باب تحريم الكذب، أبواب أحكام العشرة، ح ١١ و ١٢.

(٤) وسائل الشيعة، المجلد الثامن، الباب ١٤٠، باب تحريم الكذب في الصغير والكبير والجد والهزل عدا ما استثنى.

(٥) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الكذب، ح ٢

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لَا يَجِدُ عَبْدٌ طَعَمَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتْرَكَ الْكَذِبَ: هَزْلُهُ، وَجَدَّهُ»^(١).

وفي وصايا رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي ذر: «يَا أَبَا ذَرٍّ، وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ، لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمُ، وَيْلٌ لَهُ، وَيْلٌ لَهُ»^(٢).

وأنتت أخبار أهل البيت على الصدق ثناءً بليغاً. فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كُونُوا دُعَاءَ لِلنَّاسِ بِالْخَيْرِ بِغَيْرِ السِّتِّكُمْ، لِيَرَوْا مِنْكُمْ الْجَهَادَ، وَالصَّدْقَ، وَالْوَرَعَ»^(٣).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إِنَّ أَقْرَبَكُمْ مِنِّي غَدَاً، وَأَوْجَبَكُمْ عَلَيَّ شَفَاعَةً، أَصْدَقَكُمْ لِسَانًا، وَأَدَاكُمْ لِلْأَمَانَةِ، وَأَحْسَنَكُمْ خُلُقًا، وَأَقْرَبَكُمْ مِنَ النَّاسِ»^(٤).

في حقيقة الورع ومراتبه

للورع مراتب كثيرة: فروع العوام: الاجتناب عن الكبائر؛ وورع الخواص: الابتعاد عن الشبهات خشية الوقوع في المحرمات؛ وورع أهل الزهد: الاجتناب عن المباحات للابتعاد عن وزرها؛ وورع أهل السلوك: ترك النظر إلى الدنيا لأجل الوصول إلى المقامات؛ وورع المجذوبين: ترك المقامات من أجل الوصول إلى باب الله، ومشاهدة جماله؛ وورع الأولياء، اجتناب التوجه إلى الغايات.

وهو أساس كلّ الكمالات المعنوية، يوجب صفاء النفوس وجلاءها، وهو من أهمّ منازل العوام، ومن أفضل زاد المسافر إلى الآخرة.

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الكذب، ح ١١

(٢) وسائل الشيعة، المجلد الثامن، الباب ١٤٠ من أبواب أحكام العشرة ح ٤ ص ٥٧٧.

(٣) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الصدق وأداء الآثار، ح ١٠.

(٤) بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٣٨١، كتاب: الإيمان والكفر، الباب: ٣٨، ح ٤١

عن أبي عبد الله عليه السلام قَالَ: «أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالْوَرَعِ، وَالْاجْتِهَادِ؛ وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ اجْتِهَادٌ لَا وَرَعَ فِيهِ»^(١). فالغاية من العبادات ترويض النفس، وجمها، وقهر الملكوت للملك والطبيعة، وهذا لا يحصل إلا بالورع الشديد، والتقوى الكاملة. إن النفوس المدنسة بالمعصية، لا تقبل صورة ولا رسماً إلا بعد تنظيفها من الكدر.

وقال أبو عبد الله عليه السلام: «عَلَيْكُمْ بِالْوَرَعِ فَإِنَّهُ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِالْوَرَعِ»^(٢)، فمن لا ورع له يُحْرَم من الكرامات التي وعدها الله لعباده، وهذا الحرمان من أعظم الخذلان والشقاء.

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «لَا تُنَالُ وَلَا يُتَنَّا إِلَّا بِالْعَمَلِ وَالْوَرَعِ»^(٣)، وعن الإمام الصادق: «لَيْسَ مِنَّا وَلَا كَرَامَةٌ مَنْ كَانَ فِي مَضْرٍ فِيهِ مَائَةُ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْمَضْرٍ أَحَدٌ أَوْ رَعٍ مِنْهُ»^(٤).

إن المقياس في كمال الورع في ضوء الروايات الشريفة، هو الاجتناب عن محرمات الله، هذا الاجتناب لا يستدعي جهداً جباراً، فالإنسان بالترويض النفسي، والعمل، يستطيع أن يترك جميع المحرمات، شريطة إرادته على أن يكون من أهل السعادة والنجاة، ومن أهل الولاية للأئمة الأطهار وكرامة الحق المتعالى.

مفاسد الخيانة وحقيقة الأمانة

بعد أن أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله بالورع، فرّع عليه قائلا: «وَلَا تَجْتَرِءَ عَلَى

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان، باب الورع، ح ١١

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان، باب الورع، ح ٣

(٣) وسائل الشيعة، المجلد ١١، باب ٢١ من أبواب جهاد النفس ح ١١٧

(٤) وسائل الشيعة، المجلد ١١، باب ٢١ من أبواب جهاد النفس ح ١١٧

خِيَانَةً أَبَدًا»، على الرغم من أن الورع أعم من الخيانة، وعليه لا بد من تفسير الخيانة بمعنى أعم من التفاهم العرفي لها، بأن نقول: إن مطلق المعصية، أو اقتراف مطلق ما يمنع السير إلى الله خيانة؛ لأن التكاليف الإلهية أمانات للحق سبحانه، ورد في الآية الكريمة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١)؛ إذ فسر بعض المفسرين الأمانة بالتكاليف الإلهية، بل إن جميع الأعضاء، والجوارح، والقوى، أمانات للحق المتعالي، واستعملها على خلاف رضا الحق سبحانه، خيانة، وتوجيه القلب إلى غير الحق خيانة. أو أن المقصود من الخيانة المعنى المتعارف، وتخصيصها بالذكر لشدة الاهتمام بها، فكأن الورع، كل الورع، هو الابتعاد عن خيانة الأمانة.

إن الركيزة الأساسية للاعتماد المتبادل بين الناس قائمة على الأمانة، وترك الخيانة، فلا يحظى الخائن بالاطمئنان لدى الناس؛ إن مثل هذا الإنسان يعيش حياة ضنكا.

عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «لَا تَنْظُرُوا إِلَى طُولِ رُكُوعِ الرَّجُلِ وَسُجُودِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ شَيْءٌ اعْتَادَهُ فَلَوْ تَرَكَهُ اسْتَوْحَشَ لِدَلِكِ، وَلَكِنْ انْظُرُوا إِلَى صِدْقِ حَدِيثِهِ وَأَدَاءِ أَمَانَتِهِ»^(٢).

وعن رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: «حَافَتَا الصِّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الرَّحِمُ وَالْأَمَانَةُ، فَإِذَا مَرَّ الْوَصُولُ لِلرَّحِمِ الْمُؤَدِّي لِلْأَمَانَةِ نَفَذَ إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِذَا مَرَّ الْخَائِنُ لِلْأَمَانَةِ الْقَطُوعُ لِلرَّحِمِ لَمْ يَنْفَعْهُ مَعَهَا عَمَلٌ وَتَكْفَأُ بِهِ الصِّرَاطُ فِي النَّارِ»^(٣).

(١) الأحزاب: ٧٢

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الصدق وأداء الأمانة، ح ١٢

(٣) فروع الكافي، المجلد الخامس، باب أداء الأمانة، ح ٣ و ٤.

وعن أبي عبد الله عليه السلام في وصيته له: «اعْلَمْ أَنَّ ضَارِبَ عَلِيٍّ عليه السلام بِالسَّيْفِ وَقَاتِلَهُ لَوْ ائْتَمَنْتَنِي وَاسْتَصَحَّحَنِي وَاسْتَشَارَنِي ثُمَّ قَبِلْتُ ذَلِكَ مِنْهُ لَأَدَيْتُ إِلَيْهِ الْأَمَانَةَ»^(١).

وعن النبي صلى الله عليه وآله في حديث المناهي: «أَنَّهُ نَهَى عَنِ الْخِيَانَةِ وَقَالَ: مَنْ خَانَ أَمَانَةً فِي الدُّنْيَا وَلَمْ يَرُدَّهَا إِلَى أَهْلِهَا ثُمَّ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ مَاتَ عَلَى غَيْرِ مِلَّتِي وَيَلْقَى اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ وَمَنْ اشْتَرَى خِيَانَةً وَهُوَ يَعْلَمُ فَهُوَ كَالَّذِي خَانَهَا»^(٢).

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «مَنْ خَانَ أَمَانَةً فِي الدُّنْيَا وَلَمْ يَرُدَّهَا إِلَى أَهْلِهَا مَاتَ عَلَى غَيْرِ دِينِ الْإِسْلَامِ وَلَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ فَيُؤَمَّرُ بِهِ إِلَى النَّارِ فَيَهْوَى بِهِ فِي شَفِيرِ جَهَنَّمَ أَبَدَ الْأَبَدِينَ»^(٣). ومن المعلوم أن خيانة المؤمنين تعم الخيانة المالية وغيرها، مما هو أكبر منها.

وفي الحديث القدسي: «لَا يَسْغُنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي وَلَكِنْ يَسْغُنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ»^(٤)؛ فإن قلب المؤمن عرش الحق المتعالي، وإنه سبحانه صاحب هذا البيت، فالالتفات إلى غيره خيانة له، والحب لغير ذاته الأقدس، ولغير أوليائه الذين يُعَدُّ حُبُّهُمْ حُبَّهُ سبحانه، خيانة لدى العرفاء.

وإن ولاية أهل بيت العصمة والطهارة، ومودّتهم، ومعرفة مرتبتهم المقدسة، أمانة من الحق سبحانه، علينا رعايتها بالمشايعة والتبعية الحقيقية؛ إذ من الممكن أن ينسى الإنسان علي بن أبي طالب عليه السلام من جراء الذهول، والوحشة، الحاصلتين بعد الموت لغير المخلصين، والمؤمنين.

(١) فروع الكافي، المجلد الخامس، باب أداء الأمانة، ح ٣ و ٤

(٢) وسائل الشيعة، المجلد ١٣، الباب ٣ من أبواب أحكام الوديعه ح ٢

(٣) وسائل الشيعة، المجلد ١٣، الباب ٣ من أبواب أحكام الوديعه ح ٥

(٤) إتحاف السادة المتقين، المجلد ٧، ص ٢٣٤.

عزيزي إنك عندما تعاني من مرض بسيط، تنسى كل علومك وثقافتك، فكيف بك عندما تواجه الصعاب والضغوط والمصائب والأهوال التي ترافق الموت وسكراته؟ وإذا فرضنا أنك رحلت من هذا العالم على حب محمد وآله، فأنت من أهل النجاة يوم القيامة ومصيرك السعادة، ولكنك في معاناة لدى البرزخ، وأهوال الموت والحشر ففي الحديث: «إِنَّا شُفَعَاؤُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَكِنْ تَزَوَّدُوا لِبَرْزَخِكُمْ»^(١).

في بيان الخوف من الحق المتعالي

الخوف من الحق من الكمالات المعنوية، وهو منشأ كثير من الفضائل النفسية، ومصدر جميع إصلاحات النفس. ويجب على السالك، والمهاجر إلى الله، أن يقبل بوجهه أكثر فأكثر على ما يبعث الخشية من الله في القلب، ويعمّق جذوره فيه، نحو: التفكير في العذاب، وشدة أهوال الموت، وبعد الموت، وتذكّر عظمة الحق المتعالي، وجلاله، وقهره، وسلطانه.

عن إسحاق بن عمار، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «يَا إِسْحَاقُ، خَفِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، وَإِنْ كُنْتَ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، وَإِنْ كُنْتَ تَرَى أَنَّهُ لَا يَرَاكَ فَقَدْ كَفَرْتَ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ يَرَاكَ ثُمَّ بَرَزْتَ لَهُ بِالْمَعْصِيَةِ فَقَدْ جَعَلْتَهُ مِنْ أَهْوَنِ النَّاطِرِينَ عَلَيْكَ»^(٢).

وإذا عرف شخص كيفية تجلي الحق في الملك والملكوت، وظهور الذات المقدس في السموات والأرضين، بواسطة المشاهدة الحضورية، أو المكاشفة القلبية،

(١) وسائل الشيعة المجلد الرابع ص ٦٨٨

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الخوف والرجاء، ح ٢.

أو الإيَّان الحقيقي، عرف بأن الحق المتعالى حاضر فى كل مكان، ومن المعلوم، أن السالك فى أى مقام كان، يراعى حضور الحق، ويمتنع عن مخالفة ذاته المقدس؛ لأن مراعاة الحضور والمحضر من الأمور الفطرية التى جبل عليها الإنسان، فإنه مهما كان مستهترًا ومن دون حياء، فرّق بين حضور الطرف الآخر وغيابه، فكيف إذا كان حضورًا للمنع العظيم الكامل؛ لأن فطرة الإنسان تراعى حضور كل شيء.

اختلاف الناس فى مراعاة حضور الحق

للخوف مراتب بحسب اختلاف مراتب أهل الإيَّان، والسلوك، وذوى ترويض النفس، وأرباب العرفان؛ فكلُّ يراعى حضور الحق سبحانه بحسب مرتبته التى تخصّه، فإن المؤمنين والمتقين يراعون حضوره (جلّ، وعلا) بامثال الأوامر، وترك النواهي. والمجدوبين بعدم الالتفات إلى غيره، والانقطاع التام الكامل عن غيره. والأولياء الكمّلين بنفى غيره، وإزهاق الأنانية.

وأشار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المقام الأول من مقامات الخوف: مشاهدة حضور الحق سبحانه، بقوله: «الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ (عَزَّ ذِكْرُهُ) كَأَنَّكَ تَرَاهُ». وأشار الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى المقام الثانى، وهو مشاهدة كيفية العلم الفعلى له سبحانه وتعالى، بقوله: «وَإِنْ كُنْتَ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، وإلى فطرية رعاية محضره سبحانه، بقوله: «وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ يَرَاكَ» الخ.

فى فضل البكاء

إن للبكاء من خشية الله سبحانه فضلًا كبيرًا، كما ورد فى هذا الحديث: «يُنْبِئُ لَكَ بِكُلِّ دَمْعَةٍ أَلْفَ بَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ».

وعن النبي ﷺ في حديث المناهي قال: «وَمَنْ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ قَطْرَةٍ مِنْ دُمُوعِهِ قَصْرٌ فِي الْجَنَّةِ مُكَلَّلٌ بِالْذُّرِّ وَالْجَوْهَرِ، فِيهِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ»^(١).

وقال الصادق عليه السلام: «أَنَّ الرَّجُلَ لَيَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ أَكْثَرُ مِمَّا بَيْنَ الثَّرَى وَالْعَرْشِ لِكَثْرَةِ ذُنُوبِهِ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَبْكِيَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ نَدَمًا عَلَيْهَا حَتَّى يَصِيرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا أَقْرَبُ مِنْ حِفْنِهِ إِلَى مُقْلَتِهِ»^(٢).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَلَهُ كَيْلٌ وَوَزْنٌ إِلَّا الدَّمُوعَ فَإِنَّ الْقَطْرَةَ تُطْفِئُ بِحَارًا مِنْ نَارٍ وَلَوْ أَنَّ بَاكِيًا بَكَى فِي أُمَّةٍ لَرَجَّحُوا»^(٣).

المكافأة العظيمة على الأعمال اليسيرة

يعترض بعضهم على ما ورد في الأحاديث الشريفة من المكافأة العظيمة يوم القيامة على أمور جزئية يسيرة، ولرد الاعتراض:

أولاً: تفاهة شيء عندنا لا تقوم دليلاً على أن صورته الغيبية الملكوئية تافهة؛ فالشكل الخارجي لجسم الرسول الأكرم المعظم ﷺ، من الكائنات الصغيرة في هذا العالم، ولكن روحه المقدسة كانت تحيط بالملك والملكوت، وهو واسطة إيجاد السماوات والأرضين. إنَّ الحكم على صغر الصورة الباطنية الملكوئية لشيء، يتفرّع على العلم بعالم الملكوت، وبواطن الأشياء، ولا يحقّ لأمثالنا إصدار مثل هذا الحكم.

(١) وسائل الشيعة، المجلد ١١، الباب ١٥، من أبواب جهاد النفس وما يناسبه ح ١، ص ١٧٥.

(٢) وسائل الشيعة، المجلد ١١، الباب ١٥، من أبواب جهاد النفس وما يناسبه ح ١٠، ص ١٧٨.

(٣) وسائل الشيعة، المجلد ١١، الباب ١٥، من أبواب جهاد النفس وما يناسبه ح ١١، ص ١٧٨.

ثانيا: ذلك العالم قائم على تفضّل الحقّ سبحانه، وبسط رحمته غير المتناهية.

ثالثا: النعم التي منحها سبحانه لعباده في هذا العالم، والتي تعجز العقول عن إحصاء كليّاتها، فضلا عن مفرداتها، منحها من دون طلب واستحقاق، فما المانع عن أن يتفضّل الحقّ سبحانه على عباده، بأضعاف مضاعفة من الأجر والمثوبة؟ قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَكَلْدُ الْعَيْنِ﴾^(١)؛ ولا حدّ محدود لمشتهيّات الإنسان؛ إن الله سبحانه قد خلق عالم الآخرة؛ وخلق إرادة الإنسان؛ على نحو لو أراد الإنسان شيئا لتحقيق ذلك الشيء بإرادته نفسها.

رابعا: فاقت أحاديث هذه المثوبات حدّ التواتر، فنحن بمنزلة من قد سمع الحديث بأذنه من المعصومين عليهم السلام، فإنكارها من ضعف الإيثار، ومنتهى الجهالة؛ ولو أراد الإنسان أن يتطرق بعقله الصغير إلى الأمور الغيبية الأخروية، والتعبدية الشرعية؛ لانتهى أمره إلى إنكار الضروريّات والمسلّمات؛ لأنه ينجّر من القليل إلى الكثير رويدا رويدا، حتى يفضي به الأمر إلى جحود بديهيّات الدين.

خامسا: في الكتاب الكريم نجد ذكرًا لأمثال هذه المثوبات، نحو قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾^(٢). وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٣).

ألم ينصّ الكتاب الكريم، والسنة الشريفة، على الجنة التي يخلّد الإنسان في نعمها ورفاهها، مقابل طاعة محدودة لا تتجاوز عمر الإنسان؟. إن القضية منوطة بالرحمة الإلهية التي لا حدّ لها.

(١) الزخرف: ٧١

(٢) القدر: ٣

(٣) البقرة: ٢٦١

في بيان عدد النوافل

إن مقصود رسول الله ﷺ من قوله: «أَمَّا الصَّلَاةُ فَالْخَمْسُونَ رَكْعَةً» الموافق لسنته: «الْأَخِذْ بِسُنَّتِي فِي صَلَاتِي»، هو الصلوات من فرائضها ونوافلها عدا ركعتين بعد صلاة العشاء تؤديان من جلوس وتعدّان ركعة واحدة، فيكون مجموع عدد الركعات مع هاتين الركعتين من جلوس إحدى وخمسين ركعة. وفي بعض الروايات أنّ من المعاصي ترك النافلة، وفي بعض آخر أن الله سبحانه سيعذب الإنسان على ترك السنّة، وفي بعضها تصريح بوجوب النوافل، لتأكيد الإتيان بها، والردع عن تركها، وعن الصادق عليه السلام: «شِيعَتُنَا أَصْحَابُ الْإِحْدَى وَخَمْسِينَ رَكْعَةً»^(١)، وفي حديث علامات المؤمن عن الحسن بن علي العسكري عليه السلام قال: «عَلَامَاتُ الْمُؤْمِنِ خَمْسٌ، وَعَدَّ مِنْهَا صَلَاةَ الْإِحْدَى وَخَمْسِينَ»^(٢).

استحباب صوم ثلاثة أيام من كل شهر

ورد في فضل ذلك ما يتجاوز أربعين رواية، وبين العلماء الأعلام خلاف في كيفية ذلك، والذي شهر بينهم هو: أول خميس من الشهر، وهو يوم عرض الأعمال، والأربعاء الأول من العشرة الثانية وهو يوم نحس مستمر، ويوم نزول العذاب؛ والخميس الأخير من الشهر الذي هو يوم عرض الأعمال أيضًا. وفي الرواية عن أبي عبد الله عليه السلام: «لَأَنَّ مَنْ قَبْلَنَا مِنَ الْأُمَمِ كَانُوا إِذَا نَزَلَ عَلَى أَحَدِهِمُ الْعَذَابُ، نَزَلَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ فَصَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْأَيَّامَ لِأَنَّهَا الْأَيَّامُ الْمَخُوفَةُ»^(٣). وفي صدر هذا الحديث: «وَقَالَ لِيَعْدِلَنَّ - صِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الشَّهْرِ - صَوْمَ الدَّهْرِ».

(١) وسائل الشيعة، المجلد الثالث، الباب ٣ من أبواب أعداد الفرائض ونوافلها، ص ٤١

(٢) وسائل الشيعة، المجلد الثالث، الباب ٣ من أبواب أعداد الفرائض ونوافلها، ص ٤٢

(٣) وسائل الشيعة، المجلد ٧، الباب ٧ من أبواب الصوم المندوب، ح ١

وَعَلَّلَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ بِالْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾^(١).

أَفْضَلِيَّةُ الصَّدَقَةِ

السُّنَّةُ الثَّلَاثَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا الصَّدَقَةُ فَجُهْدُكَ حَتَّى تَقُولَ: قَدْ أَسْرَفْتُ، وَلَمْ تُسْرِفْ»، وَهِيَ مِنَ الْمُسْتَحَبَاتِ، الَّتِي قَلَّ أَنْ يَبْلُغَ مَثَوِبَتُهَا فِي الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ، عَمَلٌ آخَرٌ. وَالْأَخْبَارُ فِي التَّصَدَّقِ حَتَّى عَلَى مَنْ لَا يُوَافِقُنَا فِي الدِّينِ، وَعَلَى الْحَيَوَانَاتِ: الْبَرِّيَّةِ، وَالْبَحْرِيَّةِ، وَهَذَا بَعْضُهَا:

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَثْقَلَ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنَ الصَّدَقَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِ، وَهِيَ تَقَعُ فِي يَدِ الرَّبِّ (تَبَارَكَ، وَتَعَالَى) قَبْلَ أَنْ تَقَعُ فِي يَدِ الْعَبْدِ»^(٢).

وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي حَدِيثٍ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا إِلَّا وَلَهُ خَازِنٌ يُخْزِنُهُ إِلَّا الصَّدَقَةَ، فَإِنَّ الرَّبَّ يَلِيهَا بِنَفْسِهِ؛ وَكَانَ أَبِي إِذَا تَصَدَّقَ بِشَيْءٍ، وَضَعَهُ فِي يَدِ السَّائِلِ، ثُمَّ ارْتَدَّ مِنْهُ، فَقَبِلَهُ، وَشَمَّمَهُ، ثُمَّ رَدَّهَ فِي يَدِ السَّائِلِ»^(٣).

إِنْ تَدَبَّرَ هَذَا الْحَدِيثَ الشَّرِيفَ يَشِيرُ إِلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ عِنْدَمَا يَتَصَدَّقُ بِيَدِهِ إِذَا مَنَّ عَلَى الْفَقِيرِ أَوْ أَسَاءَ إِلَيْهِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، كَانَتْ مَنَّتُهُ وَإِسَاءَتُهُ أَوَّلًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَثَانِيًا إِلَى الْفَقِيرِ؛ وَإِذَا خَشَعَ وَتَوَاضَعَ وَأَبْدَى مَنْتَهَى الذِّلِّ وَالْمَسْكِنَةِ، كَانَ خُضُوعُهُ وَذَلُّهُ وَخُشُوعُهُ لِلَّهِ أَوَّلًا ثُمَّ لِلْفَقِيرِ الْمُؤْمِنِ ثَانِيًا.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرْضُ الْقِيَامَةِ نَارٌ مَا خَلَا ظِلُّ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّ صَدَقَتَهُ تُظِلُّهُ»^(٤)، وَعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَكَلْتُ بِالْأَشْيَاءِ

(١) وسائل الشيعة، المجلد ٧، الباب ٧ من أبواب الصوم المندوب، ح ٨

(٢) فروع الكافي، المجلد ٤، كتاب: الزكاة، فضل الصدقة، ح ٥.

(٣) فروع الكافي، المجلد ٤، كتاب: الزكاة، باب: صدقة الليل، ح ٣.

(٤) فروع الكافي، المجلد ٤، ص ٣، كتاب: الزكاة، باب: فضل الصدقة، ح ٦

غَيْرِي إِلَّا الصَّدَقَةَ فَإِنِّي أَقْبُضُهَا بِيَدِي، حَتَّى أَنْ الرَّجُلَ يَتَصَدَّقَ بِشِقَّةِ التَّمْرَةِ فَأَرْبِيهَا لَهُ كَمَا يُرْبِي الرَّجُلُ مِنْكُمْ فَصِيلَهُ وَفُلُوهُ حَتَّى أَتْرُكُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْظَمَ مِنْ أُحُدٍ»^(١).

ورود في أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ: «الصَّدَقَةُ تَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ»^(٢)، و«الْبِرُّ وَالصَّدَقَةُ يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْعُمْرِ، وَيَدْفَعَانِ سَبْعِينَ مِيتَةً سُوءٍ»^(٣)، و«إِنَّ الصَّدَقَةَ وَصْلَةُ الرَّحِمِ تُعَمِّرَانِ الدِّيَارَ وَتَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ»^(٤)، و«إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَزِيدُ الْمَالَ إِلَّا كَثْرَةً»^(٥) وعن أبي الحسن عليه السلام قَالَ: «اسْتَزِنُوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ»^(٦)، وعن أبي عبد الله عليه السلام قَالَ: «حُسْنُ الصَّدَقَةِ يَقْضِي الدِّينَ»^(٧)؛ وعن أبي جعفر عليه السلام إِنَّهُ قَالَ: «الصَّدَقَةُ عَلَى خَمْسَةِ أَجْزَاءٍ، جُزْءُ الصَّدَقَةِ فِيهِ بَعْشَرَةٌ وَهِيَ الصَّدَقَةُ عَلَى الْعَامَّةِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ وَجُزْءُ الصَّدَقَةِ فِيهِ سَبْعِينَ وَهِيَ الصَّدَقَةُ عَلَى ذَوِي الْعَاهَاتِ، وَجُزْءُ الصَّدَقَةِ فِيهِ سَبْعِمِائَةً وَهِيَ الصَّدَقَةُ عَلَى ذَوِي الْأَرْحَامِ، وَجُزْءُ الصَّدَقَةِ سَبْعَةُ آلَافٍ وَهِيَ الصَّدَقَةُ عَلَى الْعُلَمَاءِ وَجُزْءُ الصَّدَقَةِ سَبْعِينَ أَلْفًا وَهِيَ الصَّدَقَةُ عَلَى الْمَوْتَى»^(٨). وعن أبي عبد الله عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «ارْغَبُوا فِي الصَّدَقَةِ وَبَكَّرُوا بِهَا، فَمَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَتَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ حِينَ يُصْبِحُ، يُرِيدُ بِهَا مَا عِنْدَ اللَّهِ، إِلَّا دَفَعَ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ شَرَّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، أَوْ

(١) البحار، المجلد ٩٦، باب فضل الصدقة وأنواعها، ح ٤٤، ص ١٢٧.

(٢) فروع الكافي، المجلد ٤، كتاب: الزكاة، باب: فضل الصدقة، ص ٢، ح ١٠، ص ١٠، ح ٤.

(٣) البحار، المجلد ٩٦، باب فضل الصدقة وأنواعها، ح ٥٥، ص ١٣٠.

(٤) البحار، المجلد ٩٦، باب فضل الصدقة وأنواعها، ح ١٧، ص ١١٩.

(٥) مستدرک وسائل الشيعة، المجلد ٧، الباب ٧ من أبواب الصدقة، ح ١٠ ص ١٦٠.

(٦) فروع الكافي، المجلد ٤، كتاب: الزكاة، فضل الصدقة،

(٧) فروع الكافي، المجلد ٤، ص ١٠، ح ٥.

(٨) مستدرک وسائل الشيعة، المجلد ٧، الباب ١٨ من أبواب الصدقة، ح ١٠ ص ١٩٦.

قَالَ: وَقَاهُ اللَّهُ شَرَّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ^(١).

في بيان أمر دقيق آخر

وردد في الآية الشريفة قوله: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾^(٢).

وفي الحديث عن الحسين بن علي، والصادق عليه السلام: أَنَّهُمَا كَانَا يَتَصَدَّقَانِ بِالسُّكَّرِ وَيَقُولَانِ إِنَّهُ أَحَبُّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْنَا وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾^(٣).

وفي الحديث عن أبي الطفيل، قَالَ: «اشْتَرَى عَلِيُّ عليه السلام ثَوْبًا، فَأَعْجَبَهُ، فَتَصَدَّقَ بِهِ؛ وَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: مَنْ أَثَّرَ عَلَى نَفْسِهِ، أَثَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْجَنَّةِ؛ وَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا، فَجَعَلَهُ اللَّهُ قَالَ اللَّهُ (تَعَالَى) يَوْمَ الْقِيَامَةِ: قَدْ كَانَ الْعِبَادُ يُكَافِئُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَأَنَا أَكْفِيكَ الْيَوْمَ بِالْجَنَّةِ»^(٤).

و«إِنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام قَاسَمَ رَبَّهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ حَتَّى نَعْلًا وَنَعْلًا، وَثَوْبًا وَثَوْبًا، وَدِينَارًا وَدِينَارًا»^(٥).

ولا تهافت هذه الروايات المذكورة مع أحاديث أخرى، منها: «سَأَلَ رَجُلٌ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ): ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ وَلَا تُشْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾، فَقَالَ: كَانَ فُلَانٌ بَنُ فُلَانٍ الْأَنْصَارِيِّ سَمَاءً، وَكَانَ لَهُ حَرْتُ فَكَانَ إِذَا حَلَّ يَتَصَدَّقُ بِهِ فَيَقْبَلُ هُوَ وَعِيَالُهُ بِغَيْرِ شَيْءٍ فَجَعَلَ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ)

(١) مستدرک وسائل الشيعة، المجلد ٧، الباب ٧ من أبواب الصدقة، ح ١ ص ١٧٠

(٢) آل عمران: ٩٢

(٣) تهذيب الأحكام، ج ٤، كتاب: الصيام، باب: الزيارات، ح ١٠٤.

(٤) المصدر نفسه

(٥) وسائل الشيعة، المجلد ٦، الباب ٥٢ من أبواب الصدقة، ح ١، ص ٣٣٦

ذَلِكَ سَرَفًا»^(١).

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «... فَيَكُونُ مِنَ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ يُرَدُّ دُعَاؤُهُمْ، قُلْتُ: مَنْ هُمْ؟ قَالَ: أَحَدُهُمْ رَجُلٌ كَانَ لَهُ مَالٌ فَأَنْفَقَهُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَرْزُقْنِي، فَيُقَالُ لَهُ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَبِيلًا إِلَى طَلَبِ الرِّزْقِ؟»^(٢).

ووجه عدم التهافت هو أن الإكثار في التصدق قد لا يبلغ مرحلة التضيق على الأهل والعيال؛ إذ ربما أشخاص يتصدقون بنصف أموالهم أو أكثر مع المحافظة على كفاف أهلهم، وعدم دفعهم نحو الضيق والعسر.

في بيان سرّ من أسرار الصدقة

نشأ الإنسان وتربّى على حبّ المال، وقد انعكس هذا التعلق على قلبه، وتعمّق فيه، فإذا استطاع الإنسان بواسطة الصدقات، أو الإيثار على النفس، أن يستأصل من قلبه هذا التعلق، أو يخفف منه، تمكن من اجتثاث مادة الفساد، ومصدر الأعمال المشينة مدّة حياته، وفتح أبواب المعارف الإلهية، وعالم الغيب والملكوت، والملكات الفاضلة، على نفسه. وهذا من الأمور المهمّة في الإنفاق المالي، ولا سيّما المستحب إذ لا بد من الإقلاع عن التعلق بالدنيا حتى يتم البذل.

تنمّة

صدقة السر أفضل من صدقة العلانية، فعن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «الصَّدَقَةُ فِي السِّرِّ وَاللَّهُ أَفْضَلُ مِنَ الصَّدَقَةِ فِي الْعَلَانِيَةِ وَكَذَلِكَ وَاللَّهُ الْعِبَادَةُ فِي السِّرِّ أَفْضَلُ مِنْهَا فِي الْعَلَانِيَةِ»^(٣). ولعل نكتة أفضلية صدقة السرّ تكمن:

(١) وسائل الشيعة، المجلد ٦، الباب ٤٢ من أبواب الصدقة، ح ٣ و ١ و ٤ ص ٣٢٢

(٢) وسائل الشيعة، المجلد ٦، الباب ٤٢ من أبواب الصدقة، ح ٣ و ١ و ٤ ص ٣٢٢

(٣) فروع الكافي، المجلد ٤، كتاب: الزكاة، باب: فضل صدقة السر، ح ٢

أولاً: في أن عبادة السر أبعد من الرياء، وأقرب إلى الإخلاص.

ثانياً: في أن صدقة السر تحافظ على كرامة الفقراء.

والتصدق على الأرحام والأقرباء أفضل من التصدق على غيرهم؛ لأن عنوان صلة الرحم الذي هو من أفضل العبادات ينطبق عليه؛ ففي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ عَلَى ذِي الرَّحِمِ الْكَاشِحِ»^(١).

في فضيلة صلاة الليل

اهتمّ هذا الحديث الشريف لصلاة الليل، فكرر ثلاثاً: «وعليك بصلاة الليل»؛ وهذه بعض الروايات الشريفة الماثورة في فضيلة صلاة الليل.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال النبي صلى الله عليه وآله لجبرائيل: عظمي، فقال: يا محمد: عش ما شئت فإنك ميت؛ وأحب ما شئت فإنك مفارقه؛ واعمل ما شئت فإنك ملاقيه؛ واعلم أن شرف المؤمن صلاته بالليل، وعزه كفه عن أعراض الناس»^(٢).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا قام العبد من لذيذ مضجعه والنعاس في عينيه ليرضي ربه بصلاة ليله، باهى الله به الملائكة، وقال: أما ترون عبدي هذا قد قام من لذيذ مضجعه لصلاة لم أفرضها عليه، اشهدوا أنني قد غفرت له»^(٣).

في بيان الصلاة الوسطى

المقصود من صلاة الزوال في: «وعليك بصلاة الزوال»، هو نوافل صلاة

(١) فروع الكافي، المجلد ٤، ص ١٠

(٢) وسائل الشيعة، ج ٥ الباب ٣٩ من أبواب بقية الصلاة المندوبة، ص ٢٦٨ الأحاديث ٢، ٣.

(٣) وسائل الشيعة، ج ٥ الباب ٣٩ من أبواب بقية الصلاة المندوبة، ص ٢٧٦ الأحاديث ٣٤، ٣٥.

الظهر، وهو ما صرّحت بها الأحاديث، لما في هذه النوافل من خصوصية، أو لأنها من توابع الصلاة الوسطى، وامتّماتها، ومن بواعث قبولها. ويمكن أن يكون المقصود من صلاة الزوال صلاة الظهر نفسها، التي تُدعى أيضًا بالصلاة الوسطى، لوقوعها في وسط الصلوات اليومية، وقد أمر الحق المتعالى بالمحافظة على إقامتها قائلاً: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾^(١).

ويؤيد هذا الاحتمال:

أولاً: أنه المشهور بين الفقهاء (رضوان الله عليهم).
 وثانياً: أنه الأظهر من الروايات، إذ تحظى بخصائص زائدة على الصلوات الأخرى.
 وثالثاً: أنها الصلاة الأولى التي أنزلها الحق سبحانه بواسطة جبرائيل على آدم أبي البشر (على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام).
 والظاهر أن الاهتمام لها للمحافظة على شروطها، وحدودها، ونوافلها، وأوقاتها، وقد وردت أحاديث كثيرة مأثورة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام، تأمرنا بالمحافظة بالإتيان بالصلوات في وقت فضيلتها، فتأخيرها عن وقت الفضيلة من دون مسوّغ، من التهاون فيها؛ لأن من يُعنى بشيء، أنجزه في أسرع وقت وفي أفضل هيئة؛ وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ إِذْ دَخَلَ رَجُلٌ فَقَامَ يُصَلِّي فَلَمْ يُتِمَّ رُكُوعَهُ وَلَا سُجُودَهُ فَقَالَ عليه السلام نَفَرٌ كَنَفَرِ الْغُرَابِ لَئِنْ مَاتَ هَذَا وَهَكَذَا صَلَاتُهُ لَيَمُوتَنَّ عَلَى غَيْرِ دِينِي»^(٢)؛ بل قد يفضي الأمر بالإنسان من جراء الاستخفاف بالصلاة، إلى تركها.

(١) البقرة: ٢٣٨

(٢) وسائل الشيعة، المجلد ٣، الباب ٨ من أبواب أعداد الفرائض وأوقاتها، ح ٢١ ص ٢١

إننا قلّمًا يعترينا النسيان في أمر دنيوي مهمّ، لاستعظام نفوسنا له، وتعلّقها به، فلماذا الفتور في الأمور الدينية؟ إنه لعدم إيماننا بالغيب، ولأنّ مرتكزات عقائدنا واهية، والنتيجة أن جميع الأمور الدينية عندنا تافهة وموهونة.

إن هذه الصلوات الخمسة عمود الدين، والقاعدة الصلبة للإيمان، ولا يعلم عظمتها إلا الحق سبحانه، والخواص من عباده، إذ تدفع بالإنسان إلى توثيق الأواصر بينه وبين الحق المتعالى، ويقوي شجرة التوحيد الطيبة، ويعمّقها في النفس على نحو لا يمكن اقتلاعها؛ فيفلح في اختبار الحق المتعالى له لدى سكرات الموت، وأهوال المطّلع، ومشاهدة شيء من عالم الغيب، ويوجب استقرار دينه وثباته، من دون أن يكون مستودعًا وقابلًا للزوال حتى يصاب بالنسيان، لدى أقل ضغط.

في فضل تلاوة القرآن

في الحديث الشريف: «وَعَلَيْكَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»؛ إن عقلنا القاصر لا يستوعب فضيلة تلاوة القرآن وحمله وتعلّمه والتمسك به والتدبّر في معانيه وأسراره، وهذا بعض ما ورد في ذلك:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الْقُرْآنُ عَهْدُ اللَّهِ إِلَى خَلْقِهِ فَقَدْ يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ الْمُسْلِمِ أَنْ يَنْظُرَ فِي عَهْدِهِ وَأَنْ يَقْرَأَ مِنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسِينَ آيَةً»^(١).
وعن عليّ بن الحسين عليه السلام قال: «آيَاتُ الْقُرْآنِ خَزَائِنُ فَكُلَّمَا فُتِحَتْ خَزِينَةٌ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَنْظُرَ فِيهَا»^(٢).

والمفاد من هذين الحديثين أنه حريّ بقراء القرآن التدبّر في آياته، والتفكّر في

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب فضل القرآن، باب في قراءته ح ١، ٢

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب فضل القرآن، باب في قراءته ح ١، ٢

معانيه، وهذا ليس من التفسير بالرأي المنهي عنه، وكفيينا قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ أَمْرًا عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ فِي لَيْلَةٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَرَأَ خَمْسِينَ آيَةً كُتِبَ مِنَ الذَّاكِرِينَ، وَمَنْ قَرَأَ مِائَةَ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِنِينَ، وَمَنْ قَرَأَ مِائَتِي آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْخَاشِعِينَ، وَمَنْ قَرَأَ ثَلَاثِينَ آيَةً كُتِبَ مِنَ الْفَائِزِينَ، وَمَنْ قَرَأَ خَمْسِينَ آيَةً كُتِبَ مِنَ الْمُجْتَهِدِينَ، وَمَنْ قَرَأَ أَلْفَ آيَةٍ كُتِبَ لَهُ قِنْطَارٌ مِنْ بَرٍّ، الْقِنْطَارُ خَمْسَةُ عَشَرَ أَلْفَ مِثْقَالٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَالْمِثْقَالُ أَرْبَعَةُ وَعِشْرُونَ قِيرَاطًا: أَصْغَرُهَا مِثْلُ جَبَلٍ أَحَدٍ، وَأَكْبَرُهَا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(٢).

في آداب تلاوة القرآن

إنَّ المبتغى من تلاوة القرآن هو ارتسام صورة القرآن في القلب، وتأثير الأوامر والنواهي فيه، وليس الغاية الاهتمام البالغ بمخارج الألفاظ، وأداء الحروف، فمن مكائد الشيطان أن يشغل المؤمن إلى آخر عمره بألفاظ القرآن، وينسى نهائياً استيعاب سرّ نزوله، وحقيقة الأوامر والنواهي، والدعوة إلى المعارف الحقة، والخلق الفاضل الحسن.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ فِيهِ مَنَارٌ مُهْدَى، وَمَصَابِيحُ الدُّجَى، فَلْيَجْلُ جَالٍ بَصَرُهُ، وَيَفْتَحْ لِلضِّيَاءِ نَظَرُهُ، فَإِنَّ التَّفَكُّرَ حَيَاةُ قَلْبِ الْبَصِيرِ، كَمَا يَمْشِي الْمُسْتَنِيرُ فِي الظُّلُمَاتِ بِالنُّورِ»^(٣).

(١) محمد: ٢٤

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب فضل القرآن، باب ثواب قراءة القرآن، ح ٥.

(٣) أصول الكافي، المجلد ٢، كتاب فضل القرآن، ح ٥

وفي وصف أمير المؤمنين عليه السلام للمتقين: «وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ فَأَقْشَعَرَّتْ مِنْهَا جُلُودُهُمْ وَوَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ فَظَنُّوا أَنَّ صَهِيلَ جَهَنَّمَ وَزَفِيرَهَا وَشَهيقَهَا فِي أَصُولِ آذَانِهِمْ، وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعًا وَتَطَلَّعَتْ أَنْفُسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصَبَ أَعْيُنُهُمْ»^(١). فمن يتدبر في معاني القرآن الكريم، يتأثر قلبه، ويبلغ مقام المتقين شيئاً فشيئاً؛ وإن حظي بتوفيق وسداد من الله، تحوّل كل عضو منه إلى آية من الآيات الإلهية، ولعلّ جَذَوَاتَ خطاب الله وجذباته، ترفعه وتبلغ به إلى مستوى إدراك حقيقة «اقْرَأْ وَاصْغَدْ»^(٢)، في هذا العالم، وانتهى إلى مرحلة سماع الكلام من المتكلم من دون واسطة، وتحوّل إلى موجود لا يسع الإنسان فهمه واستيعابه.

الإخلاص في القراءة

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قُرَاءَةُ الْقُرْآنِ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَاتَّخَذَهُ بِضَاعَةً، وَاسْتَدَرَّ بِهِ الْمُلُوكَ، وَاسْتَطَالَ بِهِ عَلَى النَّاسِ؛ وَرَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ، فَحَفِظَ حُرُوفَهُ، وَضَيَّعَ حُدُودَهُ، وَأَقَامَهُ إِقَامَةَ الْقَدَحِ؛ فَلَا كَثْرَ اللَّهُ هُوَ لَاءٍ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ؛ وَرَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ، فَوَضَعَ دَوَاءَ الْقُرْآنِ عَلَى دَاءِ قَلْبِهِ، فَأَسْهَرَ بِهِ لَيْلَهُ، وَأَظْمَأَ بِهِ نَهَارَهُ، وَقَامَ بِهِ فِي مَسَاجِدِهِ، وَتَجَافَى بِهِ عَنْ فِرَاشِهِ؛ فَبِأُولَئِكَ يَدْفَعُ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْبَلَاءَ؛ وَبِأُولَئِكَ يُدِيلُ اللَّهُ مِنَ الْأَعْدَاءِ؛ وَبِأُولَئِكَ يُنْزِلُ اللَّهُ الْغَيْثَ مِنَ السَّمَاءِ؛ فَوَاللَّهِ هُوَ لَاءٌ فِي قُرَاءَةِ الْقُرْآنِ أَعَزُّ مِنَ الْكِبْرِيتِ الْأَحْمَرِ»^(٣).

(١) وسائل الشيعة، المجلد ٤، الباب ٣ من أبواب قراءة القرآن، ج٦

(٢) أصول الكافي المجلد الثاني كتاب فضل القرآن، باب فضل حامل القرآن، ح٤٠.

(٣) أصول الكافي المجلد ٢، ص ٦٠٤، كتاب فضل القرآن باب النادر، ١، ص ٦٢٧.

وبإسناده عن رسول الله ﷺ في حديث قال: «مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ فَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ وَآثَرَ عَلَيْهِ حُبَّ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا اسْتَوْجَبَ سَخَطَ اللَّهِ وَكَانَ فِي الدَّرَجَةِ مَعَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ يَنْبِذُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ. وَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ يُرِيدُ بِهِ سُمْعَةً وَالتَّيَّاسَ الدُّنْيَا لَقِيَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ عَظُمَ لَيْسَ عَلَيْهِ حُمٌ وَرَجَّ الْقُرْآنُ فِي قَفَاهُ حَتَّى يُدْخِلَهُ النَّارَ وَيَهْوِيَ فِيهَا مَعَ مَنْ هَوَى. وَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ حَشَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى يَقُولُ: يَا رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا، قَالَ: كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ. وَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَتَفَقُّهَا فِي الدِّينِ كَانَ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ مِثْلُ جَمِيعِ مَا أُعْطِيَ الْمَلَائِكَةُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ. وَمَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ يُرِيدُ بِهِ رِيَاءً وَسُمْعَةً لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ وَيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ وَيَطْلُبَ بِهِ الدُّنْيَا بَدَّدَ اللَّهُ عِظَامَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَمْ يَكُنْ فِي النَّارِ أَشَدَّ عَذَابًا مِنْهُ، وَلَيْسَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ إِلَّا سَيَعَذَّبُ بِهِ مِنْ شِدَّةِ غَضَبِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَخَطِهِ. وَمَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَتَوَاضَعَ فِي الْعِلْمِ وَعَلَّمَ عِبَادَ اللَّهِ وَهُوَ يُرِيدُ مَا عِنْدَ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ فِي الْجَنَّةِ أَعْظَمَ ثَوَابًا مِنْهُ وَلَا أَعْظَمَ مَنَزَلَةً مِنْهُ وَلَمْ يَكُنْ فِي الْجَنَّةِ مَنَزَلٌ وَلَا دَرَجَةٌ رَفِيعَةٌ وَلَا نَفِيسَةٌ إِلَّا وَكَانَ لَهُ فِيهَا أَوْفَرُ النَّصِيبِ وَأَشْرَفُ الْمَنَازِلِ»^(١).

في معنى الترتيل

ومن آداب قراءة القرآن الكريم الذي يبعث على التأثير في النفس، الترتيل في التلاوة، وهو: الحد الوسط بين السرعة، والتأني المفرط الموجب لتفريق الكلمات.

(١) وسائل الشريعة، المجلد ٤، الباب ٩ من أبواب تكبيرة الإحرام - ح ٧ و ١١ ص ٧٢٧

فالإنسان الذي يريد أن يتلو كلام الله، ويداوي قلبه القاسي، ويطوي طريق الوصول إلى المقامات الأخروية والمدارج الكمالية، لا بد له من توفير الأسباب الظاهرية، والباطنية، وقد ورد في الأحاديث الشريفة، الأمر بقراءة القرآن بصوت حزين وجميل: «إِنَّ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كَانَ يَقْرَأُ، قُرْبًا مَرَّةً بِالْمَارِّ فَصَعِقَ مِنْ حُسْنِ صَوْتِهِ، وَأَنَّ الْإِمَامَ لَوْ أَظْهَرَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا لَمَا احْتَمَلَهُ النَّاسُ مِنْ حُسْنِهِ»^(١).

في بيان سرّ رفع اليدين في الصلاة وتقليبهما

إن ما ورد في هذا الحديث الشريف: «وَعَلَيْكَ بِرَفْعِ يَدَيْكَ فِي صَلَاتِكَ وَتَقْلِيْبِهِمَا» ظاهر في رفع اليدين لدى التكبيرات في أثناء الصلاة. وفي معنى تقليب اليدين احتمالان:

أحدهما: جعل باطن الكفين نحو القبلة، عند رفع اليدين لدى التكبير. والآخر: رفع اليدين لدى القنوت، فيجعل باطن الكفين نحو السماء، الذي أفتى باستحبابه الفقهاء رضوان الله تعالى عليهم، والأظهر من هذه الرواية الشريفة، هو الاحتمال الأول.

وذهب بعضهم إلى وجوب رفع اليدين عند التكبير في الصلاة مستندًا إلى الأوامر، والأخبار، التي وردت في تفسير الآية الشريفة: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحَرْ﴾^(٢) بأن المقصود من النحر هو رفع اليدين عند التكبير. ومقتضى الجمع بين الروايات الصريحة في الاستحباب، هو حمل الروايات على الاستحباب

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، باب ترتيل القرآن، ح ٤

(٢) الكوثر: ٢

تحكيماً للنص على الظاهر؛ ومقتضى الاحتياط عدم تركه، ولا سيما أن من العلماء من يقول بوجوبه.

وفي رفع اليدين لدى التكبير في الصلاة، ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَخِرْ﴾، قَالَ يَا جِبْرَائِيلُ مَا هَذِهِ النُّحَيْرَةُ النَّبِيُّ أَمَرَ بِهَا رَبِّي؟ قَالَ يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنُحَيْرَةٍ، وَلَكِنَّهَا يَأْمُرُكَ إِذَا تَحَرَّمْتَ لِلصَّلَاةِ أَنْ تَرْفَعَ يَدَيْكَ إِذَا كَبَّرْتَ، وَإِذَا رَكَعْتَ، وَإِذَا رَفَعْتَ رَأْسَكَ مِنَ الرُّكُوعِ، وَإِذَا سَجَدْتَ؛ فَإِنَّهَا صَلَاتُنَا، وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ فِي السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ؛ وَأَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ زِينَةً، وَإِنَّ زِينَةَ الصَّلَاةِ رَفْعُ الْأَيْدِي عِنْدَ كُلِّ تَكْبِيرَةٍ»^(١).

ونقل عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: «إِنَّمَا تُرْفَعُ الْيَدَانِ بِالتَّكْبِيرِ لِأَنَّ رَفْعَ الْيَدَيْنِ صَرْبٌ مِنَ الْإِبْتِهَالِ، وَالتَّبَتُّلِ، وَالتَّضَرُّعِ؛ فَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ) أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ فِي وَقْتِ ذِكْرِهِ لَهُ مُتَبَتِّلًا مُتَضَرِّعًا؛ وَلَئِنْ فِي رَفْعِ الْيَدَيْنِ إِخْضَارُ النِّيَّةِ، وَإِقْبَالُ الْقَلْبِ»^(٢).

ويقول بعض أهل المعرفة في فلسفة رفع اليدين لدى التكبير: إنه من إلقاء غير الله وراء ظهره، واقتلاع أشواك طريق الوصول إلى الحبيب، وجعل نفسه خالصة مخصصة له، لبيدأ معراجة الحقيقي الروحاني، والسفر إلى الله.

ومع التكبيرات السبعة الافتتاحية نخرق الحجب السبعة الملكية، والمملوكية نهائياً، ففي كل تكبيرة منها من صلاة الأولياء خرق لحجاب؛ ثم ينكشف عليهم حجاب آخر، ويتجلى لهم على قلوبهم، تجلياً تقيدياً، فبالتكبير اللاحق يجتث الأشواك من الطريق، وكأنَّ باطن قلوبهم يهتف: الله أكبر من أن يتجلى تجلياً تقيدياً، فإلسالك إلى الله، والمسافر إلى ساحة الحبيب، والمجذوب لطريق

(١) وسائل الشيعة، المجلد ٤، الباب ٩ من أبواب تكبيرة الإحرام، ح ١٣ و ١٤

(٢) وسائل الشيعة، المجلد ٤، الباب ٩ من أبواب تكبيرة الإحرام، ح ١١

الوصول إلى المعشوق، يخرق الحجب واحداً بعد آخر، حتى ينتهي إلى التكبير الأخير، فيخرق به الحجاب السابع، ويرفض ما سواه، ويقول: ﴿وَجَهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنْيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١). كما قاله النبي إبراهيم خليل الرحمن. ثم تنفتح عليه الأبواب، وتنكشف له سبحات الجلال، فيستعيز من الشيطان الرجيم، ويدأ ببسم الله الرحمن الرحيم.

وعن أبي الحسن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ سَبْعًا وَالْأَرْضَيْنِ سَبْعًا وَالْحُجُبُ سَبْعًا، فَلَمَّا أَسْرَى بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَانَ مِنْ رَبِّهِ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى رَفَعَ لَهُ حِجَابٌ مِنْ حُجُبِهِ فَكَبَّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَعَلَ يَقُولُ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تُقَالُ فِي الْإِفْتِتَاحِ، فَلَمَّا رَفَعَ لَهُ الثَّانِي كَبَّرَ فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى بَلَغَ سَبْعَ حُجُبٍ فَكَبَّرَ سَبْعَ تَكْبِيرَاتٍ، فَلِتِلْكَ الْعِلَّةُ يُكَبَّرُ لِلْإِفْتِتَاحِ فِي الصَّلَاةِ سَبْعَ تَكْبِيرَاتٍ»^(٢).

نحن نتوهم بأن صلاة الأولياء ومعرّاجهم، مثل صلاتنا، ومعرّاجنا، غاية الأمر أننا نتصور بأن صلاتهم تفوق صلواتنا من جهة حسن القراءة، وإنجاز الآداب، والشرائط، وأنها خالية من الشرك والرياء والعُجب، أو أن عبادة الأولياء لا تكون خشيةً من النار أو طمعاً في الجنة ولا تتصور شيئاً وراء ذلك، في حين أن لصلاتهم ومعرّاجهم الروحاني مقامات سامية أخرى، لا ترقى إليها أوهامنا. يجب أن ننتبه إلى أن أسوأ الأشواك في طريق الكمال والوصول إلى المقامات الروحانية، هو إنكار المقامات والمدارج الغيبية الروحية؛ هذا الجحود رأس مال كل الأضاليل والجهالات، وسبب للوقوف والخمود عن الحركة والتقدم، وإماتة لروح الشوق التي هي مركب إلى كل الكمالات؛ وعلى العكس إذا آمن الإنسان بالمقامات

(١) الأنعام: ٧٩

(٢) وسائل الشيعة، المجلد ٤، الباب ٧ من أبواب تكبيرة الإحرام، ح ٧.

الروحانية، والمعارج العرفانية، فمن الممكن أن هذا الإيمان يُلهب جذوة العشق الفطريّ الهامد تحت رماد الرغبات النفسية، ويشعل نور الشوق في القلب، فيندفع شيئاً فشيئاً نحو الطلب والنهوض بالجهاد، فتشمله هداية الحق.

في فضل السواك

في هذا الحديث الشريف «وَعَلَيْكَ بِالسَّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ وُضُوءٍ»، ويتأكد قبل الوضوء، وقبل الصلاة، وعند قراءة القرآن، وحين السحر، ولدى القيام من النوم. عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «فِي السَّوَاكِ اثْنَتَا عَشْرَةَ خُصْلَةً: هُوَ مِنَ السُّنَّةِ وَمَطْهَرَةٌ لِلْقَمِّ وَمَجْلَاةٌ لِلْبَصَرِ وَيُرْضِي الرَّبَّ وَيَذْهَبُ بِالْبَلْغَمِ وَيَزِيدُ فِي الْحِفْظِ وَيُبَيِّضُ الْأَسْنَانَ وَيُضَاعِفُ الْحَسَنَاتِ وَيَذْهَبُ بِالْحَفْرِ وَيَشُدُّ اللَّثَّةَ وَيُشْهِي الطَّعَامَ وَيَفْرَحُ بِهِ الْمَلَائِكَةُ»^(١). والحفر: الالتهابات التي قد تحصل في أصول الأسنان من اللثة التي توجب التقيح والتعفن، إذ يختلط القيح الذي ينز منه، بالطعام الممضوغ، ويسبب أمراضاً.

فمن الحرّي بالأنسان أن يواظب على السواك الذي يفيد صحته وينظف أسنانه، مع قطع النظر عن الأمور الغيبية الباطنية التي أعظمها رضا الله سبحانه. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أَوْصَانِي جِبْرَائِيلُ بِالسَّوَاكِ حَتَّى خِفْتُ عَلَى أَسْنَانِي»^(٢)؛ و «لَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي لِأَمْرَتِهِمْ بِالسَّوَاكِ عِنْدَ وُضُوءِ كُلِّ صَلَاةٍ»^(٣).

وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله كَانَ إِذَا صَلَّى

(١) فروع الكافي، المجلد ٦، كتاب الزي والتجمل، باب السواك، ح ٦

(٢) فروع الكافي، المجلد ٦، الباب ٢ من أبواب السواك من كتاب الزي والتجمل، ح ٨

(٣) وسائل الشيعة، المجلد ١، الباب ٣ من أبواب السواك، ح ٤

الْعِشَاءَ الْآخِرَ أَمَرَ بِوُضُوئِهِ وَسِوَاكِهِ يُوضَعُ عِنْدَ رَأْسِهِ مَخْمَرًا فَيَرْقُدُ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يَقُومُ فَيَسْتَاكُ وَيَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّي أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ ثُمَّ يَرْقُدُ ثُمَّ يَقُومُ فَيَسْتَاكُ وَيَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّي ثُمَّ قَالَ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(١)»^(٢).

مبادئ محاسن الأخلاق ومساوئها

الخلق حالة نفسية، تدفع الإنسان نحو العمل من دون تروٍّ وتفكرٍ؛ فالذي يتمتع بالسخاء، يدفعه خلقه هذا إلى الجود والإنفاق من دون حاجة إلى تنظيم مقدمات، وترتيب مرجحات؛ وكأنَّ هذا الخلق غدا من الأمور الطبيعية للإنسان مثل النظر والسمع، لكنَّ قولنا: إن الخلق النفسية، طبيعية، وفطرية، لا يعني أنَّها ذاتية وغير خاضعة للتغيير، بل إن جميع الملكات والخلق النفسانية، قابلة للتبدل والتحوُّل، ما دامت النفس تعيش في هذا العالم، عالم الحركة والتغيير، وتخضع للزمان والتجدد، وتملك الهوى والقوة، ويستطيع الإنسان أن يُغيِّر خلقه النفسي ويحوِّله إلى أضداده. وفضلاً عن البراهين والتجربة، تدل على ذلك أيضاً دعوة الأنبياء الناس، للتخلق بالصفات الحميدة، والابتعاد عما يقابلها من الخلق السيء.

وقد أرجع علماء الأخلاق الفضائل النفسية كافة، إلى أمور أربعة هي:

الأولى: الحكمة، وهي فضيلة للنفس الناطقة التي تُميِّز الإنسان من غيره.

الثانية: العفة، وهي من فضائل النفس الشهوية.

الثالثة: الشجاعة، وهي من فضائل النفس الغضبية.

الرابعة: العدالة، وهي ترعى الفضائل الثلاثة.

(١) الأحزاب: ٢١

(٢) وسائل الشيعة، المجلد ١، الباب ٦ من أبواب السواك، ح ١.

إنّ المفاد من الحديث الشريف: «بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(١) أنّ سبب بعث الأنبياء، والدافع لدعوة خاتمهم ﷺ، هو إكمال مكارم الأخلاق. وأنّ الأخبار الشريفة قد أبدت الاهتمام الكبير، إجمالاً وتفصيلاً بمكارم الأخلاق أكثر من أي شيء آخر بعد الاهتمام بالمعارف الإلهية. وأهمية الفضائل الخلقية أكبر من قدرتنا على شرحها وبسط الحديث فيها، ولكن لا بد من أن نقول بأنّ أساس الحياة الأبدية الآخروية، ورأس مالها الخلق الفاضل، وأنّ الجنة الممنوحة للإنسان من جراء خلقه الكريم المسماة بجنّة الصفات، أفضل بكثير من جنّة الأعمال الجسمانية التي فيها ما طاب ولذّ.

وقد وردت روايات كثيرة لا تحصى في مكارم الأخلاق، والتحذير من الصفات التي تقابلها، ونحن ساهون ولاهون عن مراجعة تلك الأحاديث. فيا أيها العزيز: إن كنت راغباً في دراسة الأخبار والأحاديث، فراجع كتاب (أصول الكافي) حتى تعرف مدى اهتمام المعصومين ﷺ للخلق الكريم. وإن كنت من التائقين للبيان العلمي وكلمات العلماء فراجع الكتب الأخلاقية، نحو: كتاب (طهارة الأعراق) لابن مُسكويه، وكتب المرحوم فيض الكاشاني وكتب المجلسي وكتب النراقيين^(٢).

وإن وجدت نفسك في غنى عن اقتناء الفضيلة، وضرورة الابتعاد عن الخلق السيئ، فعالج جهلك الذي هو رأس الأمراض.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إِنَّ اللَّهَ خَصَّ رَسُولَهُ ﷺ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ

(١) مجمع البيان، المجلد ١٠، ص ٣٢٣

(٢) الوالد هو المولى مهدي بن أبي ذر الكاشاني النراقي صاحب كتاب «جامع السعادات» المتوفى عام ١٢٠٩هـ. والولد هو أحمد بن مهدي صاحب كتاب «معراج السعادة» المتوفى عام ١٢٤٥هـ.

فَأَمْتَحِنُوا أَنْفُسَكُمْ، فَإِنْ كَانَتْ فِيكُمْ فَأَحْمَدُوا اللَّهَ وَارْغَبُوا إِلَيْهِ فِي الزِّيَادَةِ مِنْهَا، فَذَكَرَهَا عَشْرَةً: الْيَقِينُ، وَالْقَنَاعَةُ، وَالصَّبْرُ، وَالشُّكْرُ، وَالْحِلْمُ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ، وَالسَّخَاءُ، وَالْغِيَرَةُ، وَالشَّجَاعَةُ، وَالْمُرُوءَةُ^(١).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قَالَ: «الْبِرُّ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ، يُعَمِّرَانِ الدَّيَّارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ»^(٢). وعنه عليه السلام قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ (تَبَارَكَ، وَتَعَالَى) لَيُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى حُسْنِ الْخُلُقِ كَمَا يُعْطِي الْمَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَغْدُوا عَلَيْهِ وَيَرُوحُ»^(٣).

إِنَّ حَسْنَ الْخُلُقِ يوجب كمال الإيمان، وثقل الميزان، والدخول في الجنان، وسوء الخلق يفسد الإيمان، ويلقي بصاحبه في العذاب الأليم. فعن أبي عبد الله عليه السلام قَالَ: «إِنَّ سَوْءَ الْخُلُقِ لَيُفْسِدُ الْإِيمَانَ كَمَا يُفْسِدُ الْخَلُّ الْعَسَلَ»^(٤).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قَالَ: «قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَبَى اللَّهُ (عَزَّ، وَجَلَّ) لِصَاحِبِ الْخُلُقِ السَّيِّئِ بِالتَّوْبَةِ، قِيلَ: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ إِذَا تَابَ مِنْ ذَنْبٍ وَقَعَ فِي ذَنْبٍ أَعْظَمَ مِنْهُ»^(٥).

إِنَّ الْخُلُقَ السَّيِّئَ يعذب الإنسان دائماً، ويبعث على العذاب والظلمات. والحمد لله أولاً وآخراً.

(١) من لا يحضره الفقيه، المجلد الثالث، رقم الحديث ٤٩٠١

(٢) أصول الكافي، المجلد ٢، كتاب الإيمان والكفر، باب حسن الخلق، ح ٦، ٨، ١٢

(٣) أصول الكافي، المجلد ٢، كتاب الإيمان والكفر، باب حسن الخلق، ح ٦، ٨، ١٢.

(٤) أصول الكافي، المجلد ٢، كتاب الإيمان والكفر، باب حسن الخلق، ح ٣.

(٥) أصول الكافي، المجلد ٢، كتاب الإيمان والكفر، باب سوء الخلق، ح ٣، ١، ٢، ٤.



الْجَذِبَةُ الْإِلَهِيَّةُ

أقسام القلوب

بسندي المتصل عن أبي جعفر عليه السلام قال:

«إِنَّ الْقُلُوبَ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ فِيهِ نِفَاقٌ وَإِيمَانٌ وَقَلْبٌ مَنكُوسٌ، وَقَلْبٌ مَطْبُوعٌ، وَقَلْبٌ أَزْهَرُ أَجْرَدُ. فَقُلْتُ مَا الْأَزْهَرُ؟ قَالَ: فِيهِ كَهَيْئَةِ السَّرَاجِ، فَأَمَّا الْمَطْبُوعُ فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ، وَأَمَّا الْأَزْهَرُ فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ، إِنْ أَعْطَاهُ شُكْرَ وَإِنْ ابْتَلَاهُ صَبْرٌ، وَأَمَّا الْمَنكُوسُ فَقَلْبُ الْمُشْرِكِ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١) فَأَمَّا الْقَلْبُ الَّذِي فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ فَهُمْ كَانُوا بِالطَّائِفِ فَإِنْ أَدْرَكَ أَحَدَهُمْ أَجَلُهُ عَلَى نِفَاقِهِ هَلَكَ، وَإِنْ أَدْرَكَهُ عَلَى إِيمَانِهِ نَجَا».

معاني المفردات

المنكوس: المقلوب

مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ: الإكباب: السقوط على الوجه، وهو كناية عن أن قلوب أهل الشرك، مقلوبة، وإن حركتهم وسيرهم تكون على غير الصراط المستقيم.
المطبوع: المَخْتُومُ، وَالطَّبْعُ بِالشُّكُونِ: الحَتْمُ، وَبِالتَّحْرِيكِ الدَّنَسُ وَالْوَسْخُ.
فإذا كان بمعنى المختوم كان كناية عن عدم تغلغل كلمة الحق والحقائق الإلهية في

قلوبهم، ورفضها لتقبل تلك الحقائق، ولا يكون بمعنى أن الحق سبحانه يحجب ألطافه الخاصة عن تلك القلوب، وإن كان هذا التفسير أيضًا صحيحًا، ولكن المعنى الأول هو الأنسب.

الْأَزْهَرُ: الْأَبْيَضُ الْمُسْتَنِيرُ، وَالْأَزْهَرَانِ: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَرَجُلٌ أَزْهَرُ أَيَّ أَبْيَضُ مُشْرِقُ الْوَجْهِ وَالْمَرْأَةُ: الزَّهْرَاءُ. الْأَجْرَدُ: الَّذِي لَيْسَ فِي بَدَنِهِ شَعْرٌ. وهذه كناية عن عدم تعلّق قلبه بالدنيا أو من خلّوه من الغلّ، والغشّ.

في الترغيب في إصلاح النفس

إنّ قيمة علم أحوال القلوب، وصحّتها، ومرضها، وصلاحتها، وفسادها، في أنّه مقدمة للعمل، وأداة للعلاج، والإصلاح؛ أمّا الإحاطة بهذه الأمور واستيعابها فلا يُعَدُّ من الكمالات الإنسانية؛ لذا لا بد للإنسان من أن يركّز انتباهه في إصلاح القلب، ويجعل مبتغاه كماله، حتى ينال منتهى السعادة الروحانية، والمراتب العالية الغيبية.

أقسام القلوب ومراتبها

تقسيم القلوب في الحديث الشريف على أساس تبلورها وتحركها المعنويّ، دون التحرك الفطريّ، دفعًا للتضارب بين روايات الفطرة، وهذا الحديث الشريف.

إنّ الإنسان مادام في عالم التغير والتبدل يستطيع أن ينقذ نفسه من كل مرتبة من مراتب النقص، ويبلغ بها مراتب الكمالات، ولا يتضارب هذا القول، مع

الحديث المعروف «الشَّقِيُّ شَقِيٌّ فِي بَطْنِ أُمِّهِ»^(١) إذ نستطيع القول: إنّ المراد من (بطن الأم) عالم الطبيعة المادية، التي هي أمّ لكل شيء مادي، ومشيمة لتربية ما هو من الطبيعة، ولا نستطيع أن نفسر بطن الأم بحسب المتعارف لدى الناس؛ لأن السعادة في بطن الأم بالقوّة لا بالفعل، والمفهوم من الحديث أنّها سعادة فعلية، فلا بد من مخالفة ظاهر الحديث الشريف.

وجه حصر أقسام القلوب في أربعة

إنّ القلب إما أن يؤمن بكل ما جاء به النبي ﷺ وإما لا؛ وعلى الأوّل إمّا أن يستقر فيه الإيمان من دون تزلزل، أو يؤمن حيناً، ويتراجع حيناً آخر على رغم إفصاحه عن الإيمان أيضاً؛ وعلى الثاني إمّا أن يُظهر إيمانه وإمّا لا. ويفاد من ذيل هذا الحديث أن توبة من يتحول من الإيمان إلى الكفر والنفاق مقبولة، مهما نقض التوبة، وكرّر هذا التراجع والتحول.

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «الْقُلُوبُ ثَلَاثَةٌ: قَلْبٌ مَنكُوسٌ لَا يَعْجِي شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ، وَهُوَ قَلْبُ الْكَافِرِ، وَقَلْبٌ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ فَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ فِيهِ يَعْتَلِجَانِ فَأَيُّهُمَا كَانَتْ مِنْهُ غَلَبَ عَلَيْهِ، وَقَلْبٌ مَفْتُوحٌ فِيهِ مَصَابِيحٌ تَزْهَرُ وَلَا يَطْفَأُ نُورُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُوَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ»^(٢).

ولا تنافي بين الروایتين؛ لأن القسم الأول منها يعمّ قسمين من ذلك الحديث، هما: قلب المشرك، وقلب المنافق؛ لأن قلوب الطوائف الثلاثة: المشرك، والمنافق، والكافر، منكوسة.

(١) الجامع الصغير، ج ٢، ص ٣٧

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، باب في ظلمة قلب المنافق، كتاب الإيمان والكفر، ح ٣

قلب المؤمن أزهر

لقد ثبت في العلوم الفلسفية العالية، والمعارف الإلهية الحقّة، أن حقيقة الوجود، هي حقيقة النور، وأن كل كمال عائد إلى الوجود بعينه؛ وهذا من المبادئ الأساسية المباركة التي من تشرف بها انفتحت عليه أبواب المعارف.

ولما كان الإيمان بالله من نوع العلم، ومن الكمالات المطلقة، كان أصل الوجود، وأصل حقيقة النور، وما سواه ملحق بظلمات الأعدام والماهيات، وبهذا البيان يتبين أن قلب المؤمن أزهر، فعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «نَحْمِدُ الرَّجُلَ لَا يُخْطِئُ بِلَاَمٍ وَلَا وَائٍ خَطِيئًا مُضْغِعًا وَلَقَلْبُهُ أَشَدَّ ظُلْمَةً مِنَ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، وَنَحْمَدُ الرَّجُلَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعَبِّرَ عَمَّا فِي قَلْبِهِ بِلِسَانِهِ وَقَلْبُهُ يَزْهَرُ كَمَا يَزْهَرُ الْمَصْبَاحُ»^(١).

وعبر عن قلب المؤمن في حديث بـ (المفتوح)^(٢)؛ لانفتاحه على ما يلقي عليه من حقائق الإيمان، والمعارف الحقّة، فيتلقاها بالقبول، أو إشارة إلى الفتوحات الثلاثة: القريب، والمبين، والمطلق.

إنّ المؤمن ينتهج في سيره الروحاني الجادة السوية الإنسانية؛ لما يأتي:
أولاً: سير المؤمن في ضوء فطرة التوحيد، التي هي التوجه والانشداد إلى الكمال المطلق، والجمال التام، أما القلوب الأخرى فهي خارجة عن فطرتها ومجانبة للسبيل المستقيم.

ثانياً: المؤمن يتبع الإنسان الكامل، الذي هو مظهر جميع الأسماء والصفات، أما الكائنات الأخرى فكلُّ منها مظهر لاسم من الأسماء المحيطة، أو غير المحيطة،

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب في ظلمة قلب المنافق، ح ١

(٢) وقلب مفتوح فيه مصابيح تزهر. أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب في

ظلمة قلب المنافق، ح ٣ ص ٤٢٣.

ومتصرفاً فيه، وهو على الصراط الذي يهيم عليه رب الإنسان الكامل، ودور الإنسان الكامل، المربوبية والمظهرية للمخلوق، أمّا الموجودات الأخرى، والسائررون إلى الله، فلا تنتهج الصراط المستقيم، بل تنزع إمّا نحو جانب اللطف والجمال، وإمّا نحو جانب القهر والجلال.

ولمّا كان المؤمنون تابعين في مسيرتهم للإنسان الكامل، وواضعين خطاهم في موضع أقدامه، وسائررين في ضوء نور هدايته ومعرفته، غير معتمدين على أنفسهم خطوة واحدة في سيرهم الروحاني إلى الله، كان المؤمنون على الصراط المستقيم، ومحشرون مع الإنسان الكامل، شرط محافظتهم على صفاء قلوبهم من تصرّف الشياطين والإينية والأنانية، والاستسلام في المسير كلياً للإنسان الكامل ومقام الخاتمة.

ومن إبداع الشيطان الموسوس في صدور الناس، الفريد من نوعه، هو أنه مع بيان عذب ومليح، وأعمال مغرية، قد يعلق بعض المشائخ بشحمة أذن فاتنة جميلة، ويسوّغ هذه المعصية الكبيرة، بل هذا من الشرك لدى العرفاء، بأن القلب إذا كان متعلقاً بشيء واحد، استطاع أن يقطع علاقاته بالآخرين أسرع، فيركّز كلّ توجهه أولاً في الفتاة الجميلة، ثم يقطع هذا الارتباط الوحيد ويركّز قلبه في الحق المتعالي. وقد يدفع الشيطان بإنسان أبله نحو هذا المرشد الشيخ المكّار بوصفه الإنسان الكامل، فيلتحق كلّ منهما بعالم الجن والشياطين إلى الموت، فلا تنسلخ العلقة الحيوانية عن هذا المرشد، ولا يبلغ الإنسان الأبله منشوده ومبتغاه.

قلب المشرك

قلب المشرك قد خرج عن الفطرة الإلهية، وانحرف عن النقطة المركزية

للكمال، وابتعد عن التبعية للهادي المطلق، والولي الكامل، لذا يحشر في صورة حيوان منكوس الرأس؛ لأن الصورة في ذلك العالم تتبع القلوب، وأن القشر انعكاس لللب. إِنَّ القلوب التي أعرضت عن الحق والحقيقة، وخرجت عن فطرتها المستقيمة، وأقبلت على الدنيا، أَلْقَتْ بظلالها على ذلك العالم إذ يخرج أصحابها هناك من الاعتدال منكوسين، فمن المحتمل أن يمشي بعض مكبًا على وجهه، وساقه نحو الأعلى، ويمشي بعض على بطنه، وبعض على يديه، ورجليه، كما كان اتجاهه في هذا العالم: ﴿أَمَّنْ يَمْشِي مُكَبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١)، الآية التي قال فيها أبو الحسن الماضي عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ مَثَلًا، مَنْ حَادَ عَنْ وِلَايَةِ عَلِيِّ عليه السلام كَمَنْ يَمْشِي عَلَى وَجْهِهِ لَا يَهْتَدِي لِأَمْرِهِ، وَجَعَلَ مَنْ تَبِعَهُ سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام»^(٢).

قلب المنافق

لَمَّا كَانَ قَلْبُ الْمُنَافِقِ قَدْ عُلِقَتْ فِيهِ الْأَقْدَارُ وَالظُّلُمَاتُ الَّتِي تَنَافِي فِطْرَةَ الْإِنْسَانِ، نَحْوُ: التَّعَصُّبُ الْجَاهِلِيُّ، وَالخَلْقُ الذَّمِيمُ، وَحُبُّ النَّفْسِ، غَدَا مَخْتَوِمًا وَمُغْلَقًا وَمَطْبُوعًا وَرَافِضًا لِكَلَامِ الْحَقِّ نَهَائِيًّا، فَهُوَ صَفْحَةٌ سُودَاءَ لَا تَجْدِي الرُّسُومُ عَلَيْهَا، وَتُظَاهِرُهُ بِالْذِّيانَةِ وَسِيلَةً شَيْطَانِيَّةً لِتَسْيِيرِ أُمُورِ دُنْيَاهُ.

وَإِخْتِلَافُهُ عَنِ قَلْبِ الْمُشْرِكِ، وَكِلَاهُمَا مِنْكَوسٌ، فِي أَنَّ الْمُشْرِكَ لَدَى عِبَادَتِهِ يَخْشَعُ قَلْبُهُ لَغَيْرِ الْمَعْبُودِ الْحَقِيقِيِّ، وَلَغَيْرِ الْكَمَالِ الْمَطْلُوقِ، فَيَكُونُ خَشُوعُهُ سَبَبًا لِكُدْرِ الْقَلْبِ وَنَقْصِهِ؛ أَمَّا الْمُنَافِقُ فَقَدْ يَكُونُ فِي الْحَقِيقَةِ مُشْرِكًا، فَيَسَاوِي الْمُشْرِكِينَ فِي

(١) الملك: ٢٢

(٢) أصول الكافي، المجلد الأول، كتاب الحجة، باب فيه نكت ونتف من التنزيل في الولاية، ح ٩١.

انتكاس قلبه، وقد يكون كافرًا وجاحدًا، لجميع الشرائع، فهو أيضًا منكوس القلب. وفي المنافق خصوصية أنه يصغي إلى الحق ظاهرًا، ويعيش مع المؤمنين، ولكنه بسبب الكدر والظلمات المحيطة بقلبه، يرفض الحق، ويجمده.

الغفلة عن الحق المتعالي تبعث على انتكاسة القلب

إنّ النفوس المنكبّة على الدنيا، منكوسة، على الرغم من اعتناقها الإيمان بالمبدأ والمعاد؛ لأن المقياس في انتكاس القلوب، هو الغفلة عن الحق، والانشغال بالدنيا، وتعميرها؛ وهذا الإيمان الذي لا يدفع بصاحبه إلى عمل الجوارح، والأركان، لا يعدّ إيمانًا حقيقيًا، أو يعدّ نفاقًا؛ ويمكن أن يكون مثل هؤلاء المؤمنين الشكليين، مثل قوم كانوا بالطائف، وهو ما ورد في الحديث: إن أدرك أحدهم أجله على نفاقه هلك، وإن أدركه على إيمانه نجا.

ولا بدّ من أن نحرص على تعميق الإيمان في الظاهر، والباطن، والسرّ، والعلن، حتى يتجذر في القلب فلا يزول حتّى يتم تسليم هذه الأمانة الإلهية، والقلب الطاهر المملوكوتي، الذي تخمر بالفطرة الإلهية إلى الذات المقدس من دون أن تمتد إليه يد الشيطان والخيانة. والحمد لله أولاً وآخراً.



الْحَدِيثُ الْحَادِي وَالْثَلَاثُونَ

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُوحِفُ

بالسند المتصل عن أبي جعفر عليه السلام قال:

«إِنَّ اللَّهَ (عَزَّ، وَجَلَّ) لَا يُوصَفُ، وَكَيْفَ يوصَفُ» وَقَالَ فِي كِتَابِهِ:
﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(١) فَلَا يوصَفُ بِقَدَرٍ إِلَّا كَانَ أَعْظَمَ مِنْ
ذَلِكَ. وَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يوصَفُ، وَكَيْفَ يوصَفُ عَبْدٌ اخْتَجَبَ اللَّهُ
(عَزَّ، وَجَلَّ) بِسَبْعٍ، وَجَعَلَ طَاعَتَهُ فِي الْأَرْضِ كطَاعَتِهِ فِي السَّمَاءِ، فَقَالَ:
﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾؛ وَمَنْ أَطَاعَ هَذَا
فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَاهُ فَقَدْ عَصَانِي، وَفَوَّضَ إِلَيْهِ. وَإِنَّا لَا نوصَفُ،
وَكَيفَ يوصَفُ قَوْمٌ رَفَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ الرَّجْسَ وَهُوَ الشُّكُّ. وَالْمُؤْمِنُ لَا
يوصَفُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَلْقَى أَخَاهُ فَيُصَافِحُهُ فَلَا يَزَالُ اللَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِمَا
وَالذُّنُوبُ تَتَحَاتُّ عَنْ وُجُوهِهَا كَمَا يَتَحَاتُّ الْوَرَقُ عَنِ الشَّجَرِ»^(٢).

معاني المفردات:

القدر: كون الشيء مساوياً لغيره، وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾:
كناية عن عدم القدرة على توصيف الله وتعظيمه على النحو الذي يجدر به سبحانه.

(١) الأنعام: ٩١

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب المصافحة، ح ١٦.

تَتَحَاتُّ: الْحَتْ: حَكُّ الْوَرَقِ مِنَ الْغُصْنِ، وَتَحَاتَّ الشَّيْءُ: تَنَاقَرَتْ^(١).

عدم توصيف الحق المتعالي

ليس المقصود من نفي توصيف الحق سبحانه عدم التفكير في صفاته، وعدم توصيفه مطلقاً، بل المقصود عدم توصيفه بما لا يليق بذاته المقدسة، نحو: إثبات الصورة، وغيرها من صفات المخلوقين، التي تلازم الإمكان والنقص، تعالى الله عنه.

وأما توصيف الحق، المتعالي، بما يليق ويجدر بذاته المقدس، والذي أقيمت عليه البراهين الصحيحة في العلوم العالية الفلسفية، فهو أمر مطلوب، فإن كتاب الله سبحانه، والسنة الشريفة مشحونة من ذلك، ومنها قول الإمام الصادق عليه السلام: «... أَنَّ الْمَذْهَبَ الصَّحِيحَ فِي التَّوْحِيدِ مَا نَزَلَ بِهِ الْقُرْآنُ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، فَانْفِ عَنِ اللَّهِ الْبُطْلَانَ وَالتَّشْبِيهَ، فَلَا نَفْيَ وَلَا تَشْبِيهَ، هُوَ اللَّهُ الثَّابِتُ الْمَوْجُودُ، تَعَالَى عَمَّا يَصِفُهُ الْوَاصِفُونَ، وَلَا تَعْدُوا الْقُرْآنَ فَتَضِلُّوا بَعْدَ الْبَيَانِ»^(٢)، فالحديث الشريف توجيه لمن لا يستوعبون المقياس من صفات الله سبحانه، وليس بمنع توصيف الله سبحانه بصفات لم تذكر في كتاب الله، ولهذا نرى بأن الإمام عليه السلام ينعت الحق بصفتين لم يعهد بهما في القرآن الكريم وهما: الثابت، والموجود.

نعم إذا أراد شخص أن يصف الحق المتعالي بوصف من وحي عقله القاصر المشوب بالأوهام، من دون أن يستنير بنور المعرفة والسداد الغيبي، فيسقط في ضلال التعطيل والبطلان، أو في هلاك التشبيه.

(١) الصحاح (حتت)

(٢) أصول الكافي، كتاب التوحيد، باب النهي عن الصفة، ح ١٠١.

إلهنا: تفضّل علينا وكن في عوننا، وأهدنا إلى أنوار جمالك، وجلالك، وأنر قلوبنا بضياء أسمائك وصفاتك.

العلم بحقيقة الأسماء والصفات غير ميسور

لا يخفى على أحد بأن استيعاب حقيقة أوصاف الحق، والإحاطة بها وبكيفياتها، من المسائل التي تقصر يد البرهان عن الوصول إلى قممها، وآمال العارفين مقطوعة عن البلوغ إلى مغزاها. وما ذكر من البراهين والآراء الدقيقة على يد علماء الحكمة والفلسفة أو في أبحاث الأسماء والصفات لأرباب المصطلحات العرفانية، صحيح بحسب مسلكهم ومبادئهم، التي ينطلقون منها، ولكن العلم نفسه حجاب غليظ، فإذا لم يخرق هذا الحجاب بتوفيق من الله سبحانه في ظل التقوى الكاملة والترويض المجهد للنفس، والانقطاع التام لله والمناجاة الصادقة معه، لم تُشرق في قلب السالك أنوار الجمال والجلال، ولم يشهد قلب المهاجر إلى الله، المشاهدات الغيبية، ولم يتمتع بالحضور العيني لتجليات الأسماء والصفات، فضلاً عن الخطوة بالتجليات الذاتية. وهذا المعنى يجب أن لا يُحجم الإنسان عن البحث والطلب الذي هو تذكّر للحق سبحانه. إذ إنّ من النادر جداً، غرس الشجرة الطيبة للمعرفة في القلب أو إنعاشها من دون بذر علوم حقة مع كلّ شرائطها المعهودة، فالإنسان لا بد من أن يواظب في بدء الأمر على الرياضة العلمية، مع النهوض بجميع شرائطها وامتّماتها، ولا يسحب يده منها، فقالوا: «العلوم بذر المشاهدات». وإذا لم تنتج العلوم في هذا العالم لأجل العوائق، نتيجة مجدية وتامة، أثمرت في عوالم أخرى ثمرات طيبة، ولكن المهم هو النهوض بشرائطها ومقدماتها.

العلم بحقيقة روحانية الأنبياء والأولياء

بلغ النبي الأعظم صلى الله عليه وآله مقام (قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى)، وتبعه سائر الأنبياء عليهم السلام، فيه، لذا لا يمكن معرفة مقام الأنبياء العظام، والأولياء المعصومين، عليهم السلام، بالتفكر، والتدبر، بل لا يمكن إدراك نورانيتهم، واختلاف معارجهم؛ لأن ذلك يفتقر إلى نورانية باطنية، وجذبة إلهية.

عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «سَأَلْتُهُ عَنْ عِلْمِ الْعَالَمِ، فَقَالَ لِي: يَا جَابِرُ، إِنَّ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ خَمْسَةَ أَرْوَاحٍ: رُوحَ الْقُدُسِ وَرُوحَ الْإِيمَانِ وَرُوحَ الْحَيَاةِ وَرُوحَ الْقُوَّةِ وَرُوحَ الشَّهْوَةِ. فَبِرُوحِ الْقُدُسِ - يَا جَابِرُ - عَرَفُوا مَا تَحْتَ الْعَرْشِ إِلَى مَا تَحْتَ الثَّرَى. ثُمَّ قَالَ: يَا جَابِرُ، إِنَّ هَذِهِ الْأَرْبَعَةَ أَرْوَاحٍ يُصِيبُهَا الْحَدَثَانُ إِلَّا رُوحَ الْقُدُسِ فَإِنَّهَا لَا تَلْهُو وَلَا تَلْعَبُ»^(١).

وعن أبي بصير قال: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ»، قَالَ: «خَلَقَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَعْظَمُ مِنْ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ، كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله يُخَبِّرُهُ وَيُسَدِّدُهُ وَهُوَ مَعَ الْأَئِمَّةِ مِنْ بَعْدِهِ عليهم السلام»^(٢).

يفهم من الحديث الأول، أن للأنبياء والأوصياء عليهم السلام مقامًا شامخًا من الروحانية يدعى بـ(روح القدس)، من خلاله يتمتعون بالإحاطة العلمية القيومية بجميع الكائنات، حتى ذراتها الصغيرة جدًا.

ويفاد من الحديث الثاني، أن تلك الروح المجردة الكاملة، أعظم من جبرائيل وميكائيل عليهم السلام على الرغم من أنهما أعظم القاطنين في مقام قرب الجبروت.

(١) أصول الكافي، المجلد الأول، كتاب الحجة، باب فيه ذكر الأرواح التي في الأئمة عليهم السلام، ح ٢.

(٢) الكافي، المجلد الأول، كتاب الحجة، باب الروح التي يسدد الله... ح ١

معنى احتجاب العبد بسبع

يُحتمل في معنى: «كَيْفَ يَوْصَفُ عَبْدٌ اِحتَجَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِسَبْعٍ» ما يأتي:
 الاحتمال الأول: ورد في الحديث أن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة؛
 لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره. وعلى هذا فيحتمل أن
 يكون المعنى: أنه ﷺ قد ارتفعت الحجب بينه وبين الله تعالى حتى بقي من
 السبعين ألفاً سبع^(١).

وهذا الاحتمال وإن كان أفضل الاحتمالات، ولكنه لا يخلو من مناقشة، من
 جهتين:

الأولى: لفظية، فالمناسب في مقام التوصيف، والتعريف هو نفي الحجب،
 بأن يقال «ما اِحتَجَبَ عَنِ اللهِ إِلَّا بِسَبْعٍ» أو «ما احتجب الله عنه إِلَّا بِسَبْعٍ».
 الثانية: معنوية، إذ يقتضي أن هذه الحجب السبع، أقرب إلى الله من نور الرسول
 الأكرم ﷺ الطاهر، وقد ثبت أن ذاته ﷺ هي الحجاب الأقرب، والمخلوق الأول.

الاحتمال الثاني: أن هذه الجملة تمهيد لما بعدها؛ أي: احتجب الله عن الخلق
 بسبع سماوات، وجعله ﷺ خليفة في عبادته، وأناط طاعته بطاعته، فاحتجابه
 بالسبع كناية عن عدم ظهور وحيه وأمره ونهيه وتقديراته إلا من فوق سبع
 سماوات، وإنما يظهر لنا جميع ذلك ببيانه ﷺ^(٢).

الاحتمال الثالث: كيف يوصف عبد، احتجبه الحق المتعالي بحجب سبعة،
 وجعل سبحانه لإبراز جمال عبده محمد بن عبد الله ﷺ وروحانيته، حجبا سبعة،
 ابتداءً من الطبيعة وانتهاءً بالمشية المطلقة، أو ابتداءً من عالم مُلكه ﷺ وطبيعته،

(١) ينظر: مرآة العقول، المجلد ٩، ص ٧١، والرأي للفيض الكاشاني.

(٢) ينظر: مرآة العقول، المجلد ٩، ص ٧١.

حتى مقام غيب هويته، وذلك منسجماً مع عالم المشيئة.
وهو احتمال تقبله النفس، لكنَّ صحَّته تتوقف على جواز أنَّ الفعل
«اِحْتَجَبَ» بمعنى: «حَجَبَ»، فكان متعدياً. أو أن نجوِّز تعديه بالباء الجارّة،
ويكون المفعول على كلا الاحتمالين مقدراً محذوفاً.

معنى تفويض الأمر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ

للتفويض معنيان:

أحدهما: أن الله سبحانه قد عزل نفسه - والعياذ بالله - عن التصرف القيوميِّ
في كل الأمور من عالم الخلق، والتكوين، وفوَّض أمر ذلك إلى موجود سواه،
يتصرف به على نحو تام، ومستقلّ. والتفويض بهذا المعنى باطل لأنّه يستلزم
النقص، والإمكان في واجب الوجود من جانب، ونفي الإمكان والحاجة في
الممكن من جانب آخر.

ويقابل التفويض بهذا المعنى، الجبر، الذي يقتضي نفي الآثار الخاصّة عن
مراتب الوجود، ونفي الأسباب، والمسببات نهائياً، وإلغاء الوسائط كلياً، وهو
باطل أيضاً.

والآخر: أنّه «أَبَى اللَّهُ أَنْ يُجْرِيَ الْأُمُورَ إِلَّا بِأَسْبَابِهَا»^(١)، وكما أننا العباد
الضعاف قادرون على أعمال يسيرة، مثل: الحركة والسكون، فإن العباد
المخلصين لله سبحانه، والملائكة المجردين، قادرون على أعمال عظيمة نحو:
الإحياء، والإماتة، والرزق والإيجاد والإعدام. وكما أن ملك الموت موكل

(١) نجد في كتاب أصول الكافي، المجلد الأول، كتاب الحجة، باب معرفة الإمام والرد إليه، ح ٧ من
الأحاديث ما يكون مرادفاً لهذا الكلام.

بالإماتة، وإسرافيل بالإحياء، وعملهم هذا ليس من قبيل استجابة الدعاء، كذلك الولي الكامل، والنفوس الزكية القويّة، مثل نفوس الأنبياء والأولياء، قادرة على الإعدام والإيجاد والإماتة والإحياء، بقدرة الحق المتعال؛ والتفويض بهذا المعنى حق؛ وبه جاء عن أبي جعفر عليه السلام: «قَالَ وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دِيَةَ الْعَيْنِ، وَدِيَةَ النَّفْسِ، وَحَرَّمَ النَّيْذَ وَكَلَّ مُسْكِرٍ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ جَاءَ فِيهِ شَيْءٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، لِيَعْلَمَ مَنْ يُطِيعَ الرَّسُولَ بِمَنْ يَعِصِيهِ»^(١).

ومثله روايات أخرى بأن رسول الله ﷺ زاد ركعات على الصلوات، وجعل الصيام في شهر شعبان مستحباً، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر مستحباً.

مقام الأئمة عليهم السلام

ورد في الأحاديث الشريفة، أنّ الأئمة عليهم السلام يشاركون الرسول الأكرم ﷺ مقام الروحانية، وأن أنوارهم المطهرة كانت تسبح وتقدس للذات المتعال قبل خلق العالم؛ فعن محمد بن سنان قال: «كُنْتُ عِنْدَ أَبِي جَعْفَرِ الثَّانِي عليه السلام فَأَجْرَيْتُ اخْتِلَافَ الشَّيْعَةِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ (تَبَارَكَ، وَتَعَالَى) لَمْ يَزَلْ مُتَفَرِّدًا بِوَحْدَانِيَّتِهِ، ثُمَّ خَلَقَ مُحَمَّدًا، وَعَلِيًّا، وَفَاطِمَةَ، فَمَكَثُوا أَلْفَ دَهْرٍ؛ ثُمَّ خَلَقَ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ، فَأَشْهَدَهُمْ خَلْقَهَا، وَأَجْرَى طَاعَتَهُمْ عَلَيْهَا، وَفَوَّضَ أُمُورَهَا إِلَيْهِمْ، فَهُمْ يُحِلُّونَ مَا يَشَاؤُونَ، وَيُحَرِّمُونَ مَا يَشَاؤُونَ، وَلَنْ يَشَاؤُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، هَذِهِ الدِّيَانَةُ الَّتِي مِنْ تَقَدَّمَ مَرَقٌ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا مُحِقٌ، وَمَنْ لَزِمَهَا لَحِقٌ، خُذْهَا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ»^(٢).

(١) أصول الكافي، المجلد ١، كتاب الحجة، باب التفويض إلى رسول الله، ح ٧.

(٢) أصول الكافي، المجلد الأول، كتاب الحجة، باب مولد النبي ﷺ، ح ٥ و ٧.

وَعَنِ الْمُفَضَّلِ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كَيْفَ كُنْتُمْ حَيْثُ كُنْتُمْ فِي الْأُظْلَةِ؟ فَقَالَ: يَا مُفَضَّلُ، كُنَّا عِنْدَ رَبَّنَا، لَيْسَ عِنْدَهُ أَحَدٌ غَيْرُنَا فِي ظِلَّةِ خَضِرَاءَ، نُسَبِّحُهُ وَنُقَدِّسُهُ وَنُهَلِّلُهُ وَنُمَجِّدُهُ، وَمَا مِنْ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا ذِي رُوحٍ غَيْرِنَا حَتَّى بَدَأَ لَهُ فِي خَلْقِ الْأَشْيَاءِ فَخَلَقَ مَا شَاءَ كَيْفَ شَاءَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ، ثُمَّ أَنهى عِلْمَ ذَلِكَ إِلَيْنَا»^(١).

إن الأحاديث الماثورة في فضائلهم كثيرة تبعث على تحير العقول، ولم يقف أحد على حقائقهم وأسرارهم عليهم السلام إلا أنفسهم. وفي قوله عليه السلام في الحديث الذي نشرحه: «وَكَيْفَ يوصفُ قَوْمٌ رَفَعَ اللهُ عَنْهُمْ الرَّجْسَ، وَهُوَ الشُّكُّ» إيماء إلى فضيلة واحدة من فضائلهم، وهذه الفضيلة هي آية التطهير المباركة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(٢). وفي ضوء اتفاق الشيعة والأخبار المستفيضة أو المتواترة الماثورة في تفسيرها، المراد بهم هم آل بيت العصمة والطهارة.

حقيقة العصمة

لقد فُسر «الرجس» في هذا الحديث الشريف وأحاديث أخرى، بالشك، وفي أحاديث بالعيوب بأسرها، فهم مطهرون عنها. والحق أن نفي الشك يستلزم، نفي العيوب القلبية والقالبية، بل يستلزم العصمة، التي هي حالة نفسية، وأنوار باطنية تتفجر من نور اليقين الكامل، والاطمئنان التام.

إن مصدر جميع خطايا الإنسان، هو النقص في اليقين، والإيمان. إن يقين

(١) أصول الكافي، المجلد الأول، كتاب الحجة، باب مولد النبي صلى الله عليه وآله، ح ٥ و ٧.

(٢) الأحزاب: ٣٣

الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قد أبلغه إلى مستوى يقول: «وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيَ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاحِهَا عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جَلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ»^(١).

إنَّ زوال الشرك والشك والتطهير من أرجاس عالم الطبيعة وخبائثها ومن ظلمات التعلق بغير الحق تعالى شأنه، يجعل صاحبه بحسب الإرادة الأزلية، من الأنوار القدسية الإلهية، والآيات التامة الربوبية، والخالصين المخلصين لله سبحانه، ومثل هذا الإنسان يحقق مقامًا رفيعًا لا يمكن إخضاعه للوصف والبيان، ولا تنال أيادي الآمال قمة جلاله.

الإيمان لا يوصف

الإيمان من الكمالات الروحية، التي قلما يدرك أحد حقيقتها النورية، حتى أن المؤمنين لم يعرفوا شيئًا عن نورانية إيمانهم، والكرامات التي تنتظرهم لدى ساحة قدسه المتعالي، ما داموا في عالم الدنيا، وظلام الطبيعة.

وفي هذا الحديث الشريف، ذكر لكرامة من كرامات المؤمنين التي لا تقاس لدى أصحاب المعرفة وأرباب القلوب، بأي شيء آخر، ولا تدخل في أي ميزان ومقياس، وهي: «وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَلْقَى أَخَاهُ فَيُصَافِحُهُ، فَلَا يَزَالُ اللَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِمَا».

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا التَّقَا فَنَصَافِحَا، أَقْبَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمَا بِوَجْهِهِ وَتَسَاقَطَتْ عَنْهُمَا الذُّنُوبُ كَمَا يَتَسَاقَطُ الْوَرَقُ مِنَ الشَّجَرِ»^(٢).

فماذا ينجم من توجه الحق المتعالي وإقباله سبحانه بوجهه الكريم على المؤمن

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٤. (الشيخ صبحي الصالح).

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الكفر والإيمان، باب المصافحة، ح ٤ وح ٢.

عند مصافحته لأخيه المؤمن من النور والكرامة، ومن العناية الربانية التي تنزل على المؤمن وتنجده؛ والسر في ذلك هو: تحكم الود والمحبة في الله، وتجديد عهد الأخوة في الله.

وعن أبي جعفر عليه السلام قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا التَّقِيَا وَتَصَافَحَا، أَدْخَلَ اللَّهُ يَدَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا فَصَافَحَ أَشَدَّهُمَا حُبًّا لِصَاحِبِهِ»^(١).

وفي رواية أخرى عن إسحاق بن عمار قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام إِلَى أَنْ قَالَ: أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا التَّقِيَا فَتَصَافَحَا أَنْزَلَ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) الرَّحْمَةَ عَلَيْهِمَا فَكَانَتْ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ لِأَشَدِّهِمَا حُبًّا لِصَاحِبِهِ، فَإِذَا تَوَافَقَا غَمَرَتْهُمَا الرَّحْمَةُ»^(٢). والحمد لله أولاً وآخراً.

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الكفر والإيمان، باب المصافحة، ح ٤ و ح ٢.

(٢) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الكفر والإيمان، باب المصافحة، ح ١٤.



الْحَدِيثُ الثَّانِي وَالْثَّلَاثُونَ

الرِّزْقِ

بالسند المتصل عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«مَنْ صَحَّهَ يَقِينِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ أَنْ لَا يُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَلَا يَلُومُهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِهِ اللَّهُ، فَإِنَّ الرِّزْقَ لَا يَسُوقُهُ حِرْصٌ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَّةٌ كَارِهِ، وَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ فَرَّ مِنْ رِزْقِهِ كَمَا يَفِرُّ مِنَ الْمَوْتِ لَأَذْرَكَ رِزْقُهُ كَمَا يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ بَعْدَلِهِ وَقَسَطِهِ جَعَلَ الرُّوحَ وَالرَّاحَةَ فِي الْيَقِينِ وَالرِّضَا، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسَّخَطِ»^(١).

معاني المفردات

السَّخَطُ: خلاف الرضا.

القِسْطُ: العدل، وقوله عليه السلام: إِنَّ اللَّهَ بَعْدَلِهِ وَقَسَطِهِ: من العطف التفسيري.
الرُّوحُ وَالرَّاحَةُ: الاستراحة، وهو قول الجوهري، والعطف تفسيري، أو «الرُّوح» بمعنى: راحة القلب؛ و«الراحة» بمعنى: استراحة البدن. وهو قول المجلسي.

وَالْهَمُّ وَالْحُزْنُ: مترادفان، وهو قول الجوهري، والعطف تفسيري؛ أو «الهم»: اضطراب النفس عند تحصيله. والحزن جزعها واغتمامها بعد فواته» وهو قول المجلسي.

(١) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب فضل اليقين، ح ٢

معنى قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَلَا يَلُومُهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِهِ اللَّهُ»

تواجهنا في موضوع الرزق طائفتان من الأحاديث، تؤكد الأولى أَنَّ الرزق مقسوم ومقدر، وهو المفاد من الآيات القرآنية المباركة أيضاً، وتحت الثانية على طلب الرزق، فعن علي بن عبد العزيز قال: قال أبو عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَا فَعَلَ عُمَرُ بْنُ مُسْلِمٍ؟ قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ أَقْبَلَ عَلَى الْعِبَادَةِ وَتَرَكَ التَّجَارَةَ. فَقَالَ: وَيْحَهُ، أَمَا عَلِمَ أَنَّ تَارِكَ الطَّلَبِ لَا يُسْتَجَابُ لَهُ دَعْوَةٌ؟ إِنَّ قَوْمًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أَغْلَقُوا الْأَبْوَابَ وَأَقْبَلُوا عَلَى الْعِبَادَةِ وَقَالُوا: قَدْ كُنْفِينَا، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: مَا حَمَلَكُمُ عَلَى مَا صَنَعْتُمْ؟ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَكْفَلُ اللَّهُ بِأَرْزَاقِنَا فَأَقْبَلْنَا عَلَى الْعِبَادَةِ، فَقَالَ: مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يُسْتَجَبْ لَهُ، عَلَيْكُمْ بِالطَّلَبِ^(١). ولا منافاة بين الطائفتين؛ لأن طلب الرزق من الإنسان، وأمّا ما بعده من الأرزاق، والأمور الأخرى التي تحف بالرزق، ففي يد الحق المتعالي، ولا يكفي طلبنا لوحده مستقلاً في جلب الرزق؛ لأن كل شيء من الحق المتعالي، ولا يؤثر موجود آخر في الوجود، ولا في كمالات الوجود؛ إن الطالب والطلب والمطلوب، منه سبحانه؛ أي: أَنَّ طلب الرزق من وظيفة العباد؛ وتنظيم الأمور، وترتيب الأسباب الظاهرية، وغير الظاهرية التي تخرج عن اختيار العباد غالباً، يكون بتقدير من الباري تعالى.

فقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَلَا يَلُومُهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِهِ اللَّهُ»، معناه: إذا كان هناك طلب بالقدر المتعارف فلا يلوّمهم على ما لم يؤتّه الله، وهذا لا ينافي رجحان توبيخ من تقاعس عن الطلب حتى يدفعه نحو الرزق.

(١) وسائل الشيعة، المجلد ١٢، الباب ٥، من أبواب مقدمات التجارة، ح ٧

علامات صحة اليقين

جعل هذا الحديث الشريف، علامتين لصحة اليقين وسلامته:

إحدهما: لا يُرْضي الناس بسخط الله.

والأخرى: لا يلوم الناس على ما لم يؤتّه الله.

إن الناس ينقسمون في هذه الدنيا على طبقتين:

الطائفة الأولى: يقودهم يقينهم إلى الاعتقاد بأن الأسباب الظاهرية، والمؤثرات الشكلية، مسخرة تحت الإرادة الإلهية الكاملة الوجودية، فلا يجدون دوراً لغير الحق، ولا يلتسمون من غيره شيئاً، مرددين: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾^(١). ومن البديهي أن أبواب المعارف تنفتح على هؤلاء الأشخاص، وتحوّل قلوبهم إلى قلوب إلهية، لا يعبأون برضا الناس، ولا بسخطهم، ولا يرومون إلا رضا الحق المتعالي، ولا يطمعون إلا فيه ولا يطلبون إلا منه.

الطائفة الثانية: لا يعرفون عن الحق شيئاً، وإذا علموا شيئاً كانت معرفتهم ناقصة، وإيمانهم غير تام، ولما كان انتباههم إلى الكثرات والأسباب الظاهرية قد أغفلهم عن مسبب الأسباب، ظلّوا يسعون لكسب رضا المخلوق، وقد ينتهي بهم الأمر إلى شراء رضا المخلوق الضعيف جداً، بسخط وغضب الله سبحانه: بأن يعلنوا موافقتهم لمعصية العصاة، أو يتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في وقته المناسب، أو يفتوا بالباطل، أو يغتابوا المؤمنين ويفتروا عليهم من أجل كسب مودة أهل الدنيا، ورعاية أصحاب المناصب الظاهرية؛. كل ذلك ينشأ من ضعف الإيمان، بل هو مرتبة من مراتب الشرك، تُفضي إلى مهالك كثيرة، منها ما ورد في هذا الحديث الشريف من إساءة النظر إلى عباد الله ومعاداتهم وتأنيبهم.

الراحة في اليقين والقلق في الشكّ

إنّ الإنسان الذي يعتقد بالحق وتقديره اعتقادًا يقينيًا، ويعتمد على من يتمتع بالقدرة المطلقة، والرحمة الكاملة المطلقة، والجود المطلق، إنّ مثل هذا اليقين. تتذلل الصعاب عنده، وتهون أمامه المصائب، ويختلف كثيرًا في طلبه للمعيشته عن أهل الدنيا، وأهل الشك، والشرك؛ في حين يعيش الذين يعتمدون على الأسباب الظاهرية في طلب الرزق حالة من القلق والاضطراب، وإذا اضطدموا بمشكلة، عظمت عندهم، وضائق الحياة في أعينهم؛ لأنهم لا يرونها مخوفة بالمصالح الغيبية التي يعلمها الله، ويجهلها الإنسان.

إن من يرى سعادته، في تحصيل هذه الدنيا، يواجه الآلام والعناء، وتُسلب عنه الراحة، والبهجة، وتستنزف قواه وطاقاته في هذا الطلب. إنّ أهل الدنيا دائمًا في تعب ونصب، ولن يتمتعوا باطمئنان في الروح، واستقرار في الجسم، وإذا حلّت بهم مصيبة، خارت قواهم، وحيويتهم، وزال جلدتهم، وصبرهم؛ لعدم إيمانهم بالقضاء الإلهي، وعدله.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا.



الْحَدِيثُ الثَّالِثُ وَالْإِلَافُونَ

ولاية أهل البيت عليهم السلام

بالسَّندِ الْمُتَّصِلِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مَارْدَ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام:

«حَدِيثٌ رُوِيَ لَنَا أَنَّكَ قُلْتَ: إِذَا عَرَفْتَ فَاعْمَلْ مَا شِئْتَ، فَقَالَ:

قَدْ قُلْتَ ذَلِكَ، قَالَ: قُلْتَ: وَإِنْ زَنَوْنَا وَإِنْ سَرَقْنَا وَإِنْ شَرِبْنَا

الْخَمْرَ؟ فَقَالَ لِي: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَاللَّهِ مَا أَنْصَفُونَا أَنْ

نَكُونَ أَخَذْنَا بِالْعَمَلِ وَوَضَعَ عَنْهُمْ! إِنَّمَا قُلْتَ: إِذَا عَرَفْتَ فَاعْمَلْ

مَا شِئْتَ مِنْ قَلِيلِ الْخَيْرِ وَكَثِيرِهِ فَإِنَّهُ يُقْبَلُ مِنْكَ»^(١).

معاني المفردات:

إِذَا عَرَفْتَ: معرفة الإمام عليه السلام.

وَإِنْ زَنَوْنَا: أي: إذا عرفوا فليعملوا ما شاؤوا وإن كان من الكبائر.

إِنَّا لِلَّهِ: كلمة الاسترجاع، وتقال لدى شدة المصيبة، وعظم الخطب، استرجع

الإمام حتى يثبت منتهى بَعْدَهُ عنها.

أَنْ نَكُونَ: أي: أنهم لم ينصفونا في أن نكون مكلفين، ومأخوذين على

التكاليف، وهم لعقيدتهم فينا لم يكلفوا ولم يؤخذوا على أفعالهم.

(١) الكافي، المجلد ٢، كتاب الإيمان والكفر، باب المؤمن وعلاماته، ح ٧

أَحَادِيثُ الْوَلَايَةِ

نواجه في هذا الموضوع طائفتين من الأحاديث:

الطائفة الأولى: مئات من الأحاديث المتواترة، تصف عبادة الرسول وأهل بيته عليهم السلام، وشدة تضرعهم واستكانتهم لله تعالى، ووصاياهم: بعضهم لبعض، ولخواص شيعتهم؛ منها: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «شيعتنا [هم] الشَّاجِبُونَ الذَّابِلُونَ النَّاجِلُونَ الَّذِينَ إِذَا جَنَّهُمُ اللَّيْلُ اسْتَقْبَلُوهُ بِحُزْنٍ»^(١)، وعن أبي جعفر عليه السلام، أَنَّهُ قَالَ لِحَيْثَمَةَ: «أَبْلُغْ شِيعَتَنَا، أَنَّا لَا نُغْنِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَأَبْلُغْ شِيعَتَنَا أَنَّهُ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِالْعَمَلِ، وَأَبْلُغْ شِيعَتَنَا أَنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ وَصَفَ عَدْلًا ثُمَّ خَالَفَهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَأَبْلُغْ شِيعَتَنَا أَنَّهُمْ إِذَا قَامُوا بِمَا أُمُّرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

وعن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال لي: «يا جَابِرُ أَيَكْتَفِي مَنْ يَنْتَحِلُ التَّشْيِيعَ أَنْ يَقُولَ بِحُبِّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ؟ فَوَاللَّهِ مَا شِيعَتُنَا إِلَّا مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَأَطَاعَهُ - إِلَى أَنْ قَالَ: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْمَلُوا لِمَا عِنْدَ اللَّهِ، لَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وَلَا بَيْنَ أَحَدٍ قَرَابَةٌ، أَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَأَكْرَمُهُمْ عَلَيْهِ اتَّقَاهُمْ وَأَعْمَلُهُمْ بِطَاعَتِهِ. يَا جَابِرُ وَاللَّهِ مَا نَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بِالطَّاعَةِ، مَا مَعَنَا بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ وَلَا عَلَى اللَّهِ لِأَحَدٍ مِنْ حُجَّةٍ، مَنْ كَانَ اللَّهُ مُطِيعًا فَهُوَ لَنَا وَلِيُّيٌّ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ عَاصِيًا فَهُوَ لَنَا عَدُوٌّ، وَمَا تُنَالُ وَلَا يُتَنَالُ إِلَّا بِالْعَمَلِ وَالْوَرَعِ»^(٣).

قال طاووس الفقيه: «رَأَيْتُهُ - الْإِمَامَ زَيْنَ الْعَابِدِينَ عليه السلام - يَطُوفُ مِنَ الْعِشَاءِ إِلَى السَّحَرِ وَيَتَعَبَّدُ، فَلَمَّا لَمْ يَرِ أَحَدًا رَمَقَ السَّمَاءَ بِطَرْفِهِ، وَقَالَ: إِلَهِي غَارَتْ نَجُومُ سَمَوَاتِكَ،

(١) الكافي، المجلد ٢، كتاب الإيمان والكفر، باب المؤمن وعلاماته، ح ٧

(٢) أمالي الطوسي، المجلد ١، ص ٣٨٠

(٣) أصول الكافي، المجلد ٢، كتاب الإيمان والكفر، باب الطاعة والتقوى، ح ٦.

وهجعت عيون أنامك، وأبوابك مفتّحات للسائلين، جئتُكَ لتغفر لي، وترحمني، وتريني وجه جدّي محمد صلى الله عليه وآله في عرصات القيامة، ثمّ بكى، وقال: وعزّتكَ وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك، وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شاكٌّ، ولا بنكالك جاهل، ولا لعقوبتك متعرّض، ولكن سوّلت لي نفسي وأعانني على ذلك سترك المرخي به عليّ، فالآن من عذابك من يستنقذني؟ وبحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عني؟ فوا سواتاه غدا من الوقوف بين يديك، إذا قيل للمخفّين جُوزوا، وللمثقلين حطّوا، أَمع المخفّين أجوز؟ أم مع المثقلين أحطّ؟ ويلي كلّما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب، أما أن لي أن أستحيي من ربّي؟! ثمّ بكى وأنشأ يقول:

أُحرقني بالنار يا غاية المنى فأين رجائي ثمّ أين محبّتي

أتيت بأعمال قباح زريّة وما في الورى خلق جنى كجنايتي

ثمّ بكى وقال: سبحانك تُعصى كأنك لا ترى وتحلم كأنك لم تعص تتودّد إلى خلقك بحسن الصنيع كأنّ بك الحاجة إليهم، وأنت يا سيّدي الغنيّ عنهم ثمّ خرّ إلى الأرض ساجداً؟ قال: فدنوت منه ورفعت رأسه ووضعت على ركبتي وبكيت حتّى جرت دموعي على خدّه، فاستوى جالساً وقال: من الذي شغلني عن ذكر ربّي؟ فقلت: أنا طاوس يا ابن رسول الله ما هذا الجزع والفرع؟ ونحن يلزمنا أن نفعل مثل هذا ونحن عاصون جانون، أبوك الحسين بن عليّ وأُمك فاطمة الزهراء، وجدّك رسول الله صلى الله عليه وآله؟! قال: فالتفت إليّ، وقال: هيهات هيهات يا طاوس دع عني حديث أبي وأُمّي وجدّي خلق الله الجنّة لمن أطاعه وأحسن، ولو كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولدًا قرشياً أما سمعت قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾؛ والله، لا ينفعك غداً إلّا تقدمة تقدّمها من عمل صالح^(١).

وتنضم إلى تلك الأحاديث، الآيات الكريمة القرآنية مثل قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾^(١)؛ وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(٢)؛ وقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾^(٣)؛ وغيرها من الآيات الشريفة، التي تدل على أن الورع، والعمل الصالح، هما ركيزتا نجاة الإنسان، ولا يمكن تأويل هذه الأخبار؛ لأن ذلك على خلاف الضرورة.

الطائفة الثانية: روايات ينافي ظاهرها أحاديث الطائفة الأولى؛ فإن أمكن تأويل أخبار الطائفة الثانية على نحو لا تتضارب مع تلك الأحاديث الصريحة القطعية التي تعدّ من ضروريات الدين، أخذنا بالتأويل؛ وإن أمكن الجمع بين هاتين الطائفتين على أساس الجمع العرفي بين الروايات، قمنا بهذا الجمع، وإن لم يمكن التأويل ولا الجمع العرفي، أرجعنا علمها إلى قائلها؛ منها: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الْإِيمَانُ لَا يَضُرُّ مَعَهُ عَمَلٌ، وَكَذَلِكَ الْكُفْرُ لَا يَنْفَعُ مَعَهُ عَمَلٌ»^(٤).

ويمكن تفسير هذا الخبر ونظائره، بأن نور الإيمان يعالج الإثم بالتوبة، فهذه الأخبار تحفز الإنسان على التمسك بالإيمان، والمحافظة عليه؛ فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام كَثِيرًا مَا يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ دِينَكُمْ دِينَكُمْ، فَإِنَّ السَّيِّئَةَ فِيهِ خَيْرٌ مِنَ الْحَسَنَةِ فِي غَيْرِهِ، وَالسَّيِّئَةُ فِيهِ تُغْفَرُ، وَالْحَسَنَةُ فِي غَيْرِهِ لَا تُقْبَلُ»^(٥). ويدل هذا الحديث الشريف، وأمثاله من الأخبار، التي ترغب على ملازمة الديانة الحقّة، على أنّ خطايا المؤمنين، وذوي الدين الحق، تؤوّل إلى

(١) المدثر: ٣٨.

(٢) الزلزلة: ٨.

(٣) البقرة: ٢٨٦.

(٤) أصول الكافي، المجلد ٢، كتاب الإيمان والكفر، باب الإيمان لا يضر معه سيئة، ح ٤

(٥) أصول الكافي، المجلد ٢، كتاب الإيمان والكفر، باب الإيمان لا يضر معه سيئة، ح ٢، ٦

المغفرة، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾^(١). ولهذا نستطيع أن نقول بأن سيئات المؤمنين أفضل من حسنات الآخرين التي لا تقبل أبدًا، بل لعل الحسنات التي لا تحتوي على شرائط القبول مثل الإيمان والولاية، تنطوي على ظلمات أكثر من ظلمات سيئات المؤمنين، الذين يعيشون في حال الخوف والرجاء، نتيجة نور الإيمان المشع في قلوبهم. وعلى أي حال لا يدل هذا الحديث على أن أهل الإيمان لا يُحاسبون على سيئاتهم، كما هو الظاهر.

ومن الأحاديث التي يقال إنها مشهورة بين الفريقين، الحديث القائل: «حُبُّ عَلِيٍّ حَسَنَةٌ لَا يَضُرُّ مَعَهَا سَيِّئَةٌ، وَبُغْضُهُ سَيِّئَةٌ لَا يَنْفَعُ مَعَهَا حَسَنَةٌ»^(٢)، ومعناه: إمّا ما ذكره المرحوم المجلسي من أن المقصود من الضرر المنفي هو الخلود في النار أو الدخول فيها، فيكون المعنى: حُبُّ عَلِيٍّ (عليه السلام)، الذي هو أساس الإيمان، وإكماله، وإتمامه، يوجب بواسطة شفاعة الشافعين، التخلّص من النار. وعليه كما قلنا لا ينافي هذا الاحتمال ألوان العذاب في عالم البرزخ. وقد ورد في ذلك عن الصادق (عليه السلام): «وَاللّٰهُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ إِلَّا الْبَرْزَخَ فَأَمَّا إِذَا صَارَ الْأَمْرُ إِلَيْنَا فَتَحْنُ أَوَّلِيَّ بِكُمْ». أو ما ذكرناه من أن حُبَّ الإمام علي (عليه السلام) يبعث على نور وإيمان يجنبان صاحبهما الآثام، ويدفعانه إلى التوبة والإنابة إذا ابتلي بالمعصية من دون أن يفسح المجال أمامه للتمادي في الغي والعصيان.

ومن تلك الأحاديث، الأخبار الواردة في تفسير الآيات الشريفة المذكورة في سورة الفرقان. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ

(١) الزمر: ٥٣

(٢) كتاب مناقب ابن شهر آشوب، المجلد ٣، ص ١٩٧

الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَكَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ^(١). ونحن نقتصر على ذكر واحدة من تلك الأخبار؛ لأنها جميعًا متقاربة في المضمون: عن محمد بن مسلم الثقفي، قال: «سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ): ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ^(٢)، فَقَالَ عليه السلام: يُؤْتَى بِالْمُؤْمِنِ الْمَذْنِبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَامَ بِمَوْقِفِ الْحِسَابِ، فَيَكُونُ اللَّهُ (تَعَالَى) هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى حِسَابَهُ لَا يُطْلَعُ عَلَى حِسَابِهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ، فَيَعْرِفُهُ ذُنُوبُهُ حَتَّى إِذَا أَقَرَّ بِسَيِّئَاتِهِ قَالَ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) لِلْكَتَبَةِ: بَدِّلُوهَا حَسَنَاتٍ وَأَظْهَرُوهَا لِلنَّاسِ، فَيَقُولُ النَّاسُ حِينَئِذٍ: مَا كَانَ لِهَذَا الْعَبْدِ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ! ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ، فَهَذَا تَأْوِيلُ الْآيَةِ، وَهِيَ فِي الْمَذْنِبِينَ مِنْ شِيعَتِنَا خَاصَّةً ^(٣)، وَالْبَاعِثُ عَلَى ذِكْرِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ بِأَسْرَها، وَإِطَالَةِ الْكَلَامِ هُنَا، هُوَ أَنَّ الْبَحْثَ مَهْمٌ، وَأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُطْبَاءِ قَدْ شَوَّهُوا مَعْنَى هَذِهِ الْأَخْبَارِ لِلنَّاسِ، وَأَنَّ رِبْطَ الْخَبَرِ بِالْآيَةِ لَا يُفْهَمُ إِلَّا إِذَا ذَكَرْنَا الْآيَةَ نَفْسَهَا. وَمَنْ يَقْرَأِ الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةَ الثَّلَاثَةَ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، يَفْهَمُ بِأَنَّ النَّاسَ جَمِيعًا مَطْوَّقُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَيُحَاسَبُونَ عَلَى قِبَائِحِهَا، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا، وَتَابُوا مِنْ جَرَائِرِهِمْ، وَعَمِلُوا عَمَلًا صَالِحًا فَكُلٌّ مِنْ تَوَافُرَتْ فِيهِ هَذِهِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ، فَازَ وَشَمَلَتْهُ أَلْطَافُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَأَصْبَحَ مَكْرَمًا أَمَامَ سَاحَةِ قُدْسِهِ، فَتَتَحَوَّلُ سَيِّئَاتُهُ وَأَثَامُهُ إِلَى حَسَنَاتٍ. وَقَدْ فَسَّرَ الْإِمَامُ الْبَاقِرُ عليه السلام الْآيَةَ الْمُبَارَكَةَ بِهَذَا التَّفْسِيرِ أَيْضًا، وَجَعَلَ كَيْفِيَةَ حِسَابِ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ وَمَوْقِفَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الشَّكْلِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ. وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ يَخْتَصُّ بِشِيعَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَيَحْرَمُ مِنْهُ النَّاسُ الْآخَرُونَ. لِأَنَّ الْإِيمَانَ لَا

(١) الفرقان: ٦٨-٧٠

(٢) أمالي الشيخ الطوسي، المجلد ١، ص ٧٠

يحصل إلا بواسطة ولاية عليٍّ وأوصيائه المعصومين الطاهرين عليهم السلام، بل لا يقبل الإيمان بالله ورسوله من دون الولاية. إذن لا بد من اعتبار هذه الآية المباركة، والأخبار التي وردت في تفسيرها، من الطائفة الأولى من الروايات؛ لأنها تدلّ على أن الشخص إذا كان مؤمناً ولم يحاول القضاء على سيئاته بالتوبة والعمل الصالح لا تشمله الآية الكريمة. فيا أيها العزيز لا يغرنك الشيطان، ولا تخدعك الأهواء النفسية، ومن المعلوم أن الإنسان الحامل المبتلى بالشهوات، وحبّ الدنيا، والجاه، والمال، يبحث عن مسوّغ لخموله، ويقبل على كل ما يوافق شهواته، ويدعم رغباته النفسية، وأوهامه الشيطانية، ويفتح بكل وجوده على مثل هذه الأخبار، من دون أن يفحص عن مغزاها، أو يتأمل في الأخبار الأخر التي تعارضها وتقابلها.

إن هذا المسكين يظن أن مجرد إدعاء التشيع، وحبّ أهل بيت الطهارة والعصمة، يسوّغ له - والعياذ بالله - اقتراف كل محرّم من المحظورات الشرعية، ويرفع عنه قلم التكليف. إن هذا السيء الحظ لم ينتبه إلى أن الشيطان قد ألبس الأمر عليه، ويخشى عليه في نهاية عمره أن تُسلب منه هذه المحبة الجوفاء التي لا تجدي، ولا تنفع، ويحشر يوم القيامة صفر اليدين وفي صفوف نواصب أهل البيت عليهم السلام. إن إدعاء المحبة من دون دليل وبيّنة، لا يكون مقبولاً. إنه لا يمكن أن أكون صديقك وأضمر لك الحبّ والإخلاص، وأقوم بكل ما هو مناقض لرغباتك وأهدافك. إن شجرة المحبة تنتج وتثمر العمل في المحبّ، بحسب درجة المحبة ومستواها، وإن لم تحمل تلك الشجرة هذه الثمرة فهي محبة وهمية.

إن النبي الأكرم وأهل بيته العظام عليهم السلام، قد بذلوا حياتهم في نشر الأحكام الشرعية والعقائد والأخلاق، وأرادوا في ذلك البلوغ إلى منشودهم الوحيد وهو إبلاغ أحكام الله وإصلاح الإنسان وتهذيبه، واستساغوا في هذا السبيل الشريف أنواع

السلب والقتل والإذلال والإهانة، ولم يتوانوا في ذلك. فمحب أهل البيت، هو الذي يشاركهم في أهدافهم، ويعمل في ضوء أخبارهم وآثارهم. إن ما ذكر في الأخبار الشريفة من أن الإقرار باللسان، والعمل بالأركان، من دعائم الإيمان، هو بيان لسر طبعي، ولسنة الله الجارية؛ لأن حقيقة الإيمان، تلازم العمل. إن العاشق في جوهر طبيعته، يظهر العشق تجاه المعشوق ويتغزل به، وإن المؤمن إذا لم يعمل بمتطلبات الإيمان وما تستدعيه محبة الله وأوليائه، لم يكن مؤمناً ومحباً. وإن هذا الإيمان الشكلي والمحبة الجوفاء، من دون جوهر ومضمون، ينتفي ويزول أمام حوادث صغيرة، وضغوط يسيرة، وينتقل هذا المحب إلى دار جزاء الأعمال، صفر اليدين.

ولاية أهل البيت شرط قبول الأعمال

من ضروريات مذهب التشيع المقدس، أن ولاية أهل البيت ومعرفتهم شرط في قبول الأعمال؛ بل هو شرط في قبول الإيمان بالله والنبي الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
 فعن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «ذُرْوَةُ الْأَمْرِ وَسَنَامُهُ وَمِفْتَاحُهُ وَبَابُ الْأَشْيَاءِ وَرِضَا الرَّحْمَنِ الطَّاعَةُ لِلْإِمَامِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ... أَمَا لَوْ أَنَّ رَجُلًا قَامَ لَيْلَهُ وَصَامَ نَهَارَهُ وَتَصَدَّقَ بِجَمِيعِ مَالِهِ وَحَجَّ جَمِيعَ دَهْرِهِ وَلَمْ يَعْرِفْ وَلَايَةَ وَلِيِّ اللَّهِ فَيُؤَالِيَهُ وَتَكُونَ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ بِدَلَالَتِهِ إِلَيْهِ، مَا كَانَ لَهُ عَلَى اللَّهِ حَقٌّ فِي ثَوَابِهِ، وَلَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ»^(١).
 وبإسناده عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «مَنْ لَمْ يَأْتِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ، لَمْ يُتَقَبَلْ مِنْهُ حَسَنَةٌ وَلَمْ يَتَجَاوَزْ لَهُ عَنْ سَيِّئَةٍ»^(٢).

والحمد لله أولاً وآخراً.

(١) أصول الكافي، المجلد ٢، كتاب الإيمان والكفر باب دعائم الإسلام، ح ٥

(٢) وسائل الشيعة، الباب ٦٩، من أبواب مقدمة العبادات ح ٣ و ٥



الْحَدِيثُ الْبَرَّاءُ وَالْبَلَّاءُ

المؤمن

بالسند المتصل، عن أبي جعفر عليه السلام قال:

«لَمَّا أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ صلى الله عليه وآله قَالَ: يَا رَبِّ مَا حَالُ الْمُؤْمِنِ عِنْدَكَ؟ قَالَ: يَا مُحَمَّدٌ، مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمَحَارَبَةِ، وَأَنَا أُسْرِعُ شَيْءٍ إِلَى نُصْرَةِ أَوْلِيَائِي، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ كَتَرَدُّدِي فِي وَفَاةِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ. وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْغِنَى، وَلَوْ صَرَفْتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ لَهْلَكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْفَقْرُ، وَلَوْ صَرَفْتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ لَهْلَكَ. وَمَا يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّافِلَةِ حَتَّى أَحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ إِذَا سَمِعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَلِسَانَهُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، إِنْ دَعَانِي أَحْبَبْتُهُ، وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ»^(١).

معاني المفردات

«أُسْرِيَ»: السرى: السير في الليل.

ما حال المؤمن؟: ما شأن المؤمن، وما منزلته؟

(١) أصول الكافي، المجلد ٢، كتاب الإيمان والكفر، باب من آذى المسلمين، ح ٨

مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا: أَهَانَهُ: اسْتَخَفَّ بِهِ، وَاللَّامُ فِي كَلِمَةِ - لِي - يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّقًا بِفِعْلِ «أَهَانَ»، وَعَلَيْهِ تَكُونُ إِهَانَةُ الْمُؤْمِنِ لِإِيْمَانِهِ بِاللَّهِ، وَلَأَجْلِ الْحَقِّ الْمُتَعَالِي. وَيُمْكِنُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِالـ «وَلِيِّ» وَعَلَيْهِ يَكُونُ الْمَقْصُودُ هُوَ إِهَانَةُ الْمُؤْمِنِ بِأَيِّ هَدَفٍ كَانَ. وَالـ (وَلِيِّ): الْمَحَبُّ.

بَارَزَنِي: بَرَزَ الرَّجُلُ يَبْزُزُ بُرُوزًا: أَيُّ خَرَجَ. وَالْمُبَارَزَةُ بِالْمَحَارَبَةِ: الْخُرُوجُ لِلْحَرْبِ، أَوْ إِظْهَارُهُ.

مَسَاءَتُهُ: مُصْدَر مِمِّي مِنْ سَاءَةٍ، أَيُّ: أَكْرَهَهُ.

وَجُمْلَةُ (إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْغِنَى)، لِلْإِجَابَةِ عَلَى سُؤَالٍ قَدْ يُطْرَحُ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُونَ النِّظَامَ الْأَتَمَّ، وَالْقَضَاءُ الْإِلَهِي الْمَكْنُونُ، وَهُوَ: إِذَا كَانَ الْمُؤْمِنُ مُقَرَّبًا إِلَى سَاحَةِ الْحَقِّ تَعَالَى بِدَرَجَةٍ تَكُونُ إِهَانَتَهُ، مُحَارَبَةً لِلَّهِ سُبْحَانَهُ فَلَمَّا إِذَا يُبْتَلَى بِالْفَقْرِ، وَالْحَاجَةِ؟ فَأَجَابَ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ بِأَنَّ الْحَالَاتِ النَّفْسِيَّةَ لِعِبَادِي مُخْتَلِفَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ مُتَغَايِرَةٌ، فَبَعْضُهُمْ لَا يَصِيرُ صَالِحًا إِلَّا فِي ظُرُوفِ الْبُؤْسِ وَالْفَقْرِ، فَأُفْقِرُهُ حَتَّى تَصْلِحَ أَحْوَالُهُ. وَبَعْضُهُمْ يَحْتَاجُ إِلَى الْغِنَى وَالثَّرَةِ حَتَّى يَتَحَوَّلَ إِلَى مُؤْمِنٍ صَالِحٍ، فَأُغْنِيَهُمْ، وَهَاتَانِ الْحَالَاتَانِ مِنْ كَرَامَةِ الْمُؤْمِنِ وَعِزَّةِ جَاهِهِ فِي سَاحَةِ قُدْسِ الْحَقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَالْحَدِيثُ الشَّرِيفُ يَقْسِمُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى ثَلَاثِ طَوَائِفٍ عِنْدَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ، هِيَ:
الْأُولَى: الْمُؤْمِنُونَ عَلَى نَحْوِ عَامٍ، الْمُتَحَدِّثُ عَنْهُمْ فِي جُمْلَةٍ: «مَا تَرَدَّدْتُ فِي أَمْرِ» حَتَّى قَوْلُهُ «مَا يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ»؛ لِأَنَّهُمْ يَكْرَهُونَ الْمَوْتَ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرَ يَعْثَبَانِ بِقُلُوبِهِمْ، وَهَاتَانِ خَصِيصَتَا الْمُتَعَارَفِ مِنْ أَهْلِ الْإِيْمَانِ، لَا الْكَمَلِينَ مِنْهُمْ.

الثَّانِيَّةُ: الْمُؤْمِنُونَ الْكَمَّلُونَ وَقَدْ تَحَدَّثَ عَنْهُمْ الْحَدِيثُ الْمَذْكُورُ مِنْ قَوْلِهِ: «مَا يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ عَبْدٌ...» إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ. وَقَدْ قَسَمَ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ هَذَا الشَّطْرَ مِنْ

الحديث على طائفتين:

إحداهما: الذين يتقربون إلى الله بالفرائض.

والأخرى: الذين يتقربون إلى الله بالنوافل.

يَبْطِشُ: المراد به هنا: مطلق الأخذ، الأعم من الأخذ بالعنف أو اللين.

نسبة التردد والتحير إلى الحق المتعالي

إن جميع الكائنات غير مستقلة في ذاتها، وإنما هي عين الفقر إليه سبحانه، مسخرات بأمره، قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَنَكِبَ اللَّهُ رَمَىٰ﴾^(١). إن هذا الإثبات والنفي ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ إشارة إلى مقام الأمر بين الأمرين، بمعنى: إنك رميت، وفي الوقت نفسه إنك لم ترم بقدرتك المستقلة، بل إنما حصل الرمي بواسطة ظهور قدرة الحق في مرآتك، ونفوذ قدرته في عالم مُلكك وملكوتك.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾^(٢)، وملك الموت هو المسؤول عن توفي النفوس. وهكذا النفخة الإلهية من صور إسرافيل؛ إذ توجد تعددية: نفخة إلهية، ونفخة إسرافيلية، من جهة، والوحدة من جهة أخرى، إذ إنَّ الجميع منه، وإليه.

فمن منظار الوحدة لا يُنسب لأحد شيئاً مقابل مُلك المَلِك مطلقاً، ومقابل إرادة الحق النافذة ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾^(٣).

(١) الأنفال: ١٧

(٢) الرعد: ٧

(٣) الزخرف: ٨٤

ومن منظار الكثرة، والانتباه إلى الأسباب والمسببات، جميع الأسباب صحيحة، وذات دور فاعل، فالنظام الكوني الأتم قائم على أساس نظم وتنسيق بين الأسباب والمسببات، فلو تعطل سببٌ وواسطة في تسلسل الأسباب والوسائط في هذا الكون لتوقفت عجلة الوجود.

وعندما يرى بعض الملائكة الموكلين بنفوس المؤمنين، وبقبض أرواحهم المقدسة، مقام المؤمنين لدى محضر الحق المقدس المتعالي، ويرون من جانب آخر أن المؤمنين يكرهون الموت، تتناهم حالة من التزلزل، والتردد. وقد نسب (سبحانه) هذه الحالة إلى نفسه: «وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ كَتَرَدَّدِي فِي وَفَاةِ الْمُؤْمِنِ»، كما نسب إلى نفسه التوفي.

ولنسبة التردد إلى الله تعالى في الحديث الشريف توجيه آخر، وهو أن العباد ثلاثة:

إمّا أولياء الله، لا يلتفتون إلى غيره سبحانه من العوالم، بل لا يفكرون في أنفسهم وكما لا تهم.

وإمّا منغمرون في زخارف الدنيا، وظلماتها، وهم الملحدون في أسماء الله. وإمّا مؤمنون ينتبهون إلى العالم الأرفع نتيجة نور إيمانهم، ويكرهون الموت لالتفاتهم إلى هذا العالم. وقد عبّر الله سبحانه عن هذا التجاذب بين الملك والملكوت، والغيب والمادة والآخرة والدنيا، بالتردد؛ ونسبة هذا التجاذب والتردد إلى الحق سبحانه على أساس ما ذكرناه في الوجه السابق.

كيفية إصلاح الحق المتعالي أحوال المؤمنين

إن كل ما يوفره الحق سبحانه للمؤمنين من الغنى والفقر، والصحة والمرض

والأمن والاضطراب وغير ذلك، فهو لأجل إصلاح المؤمنين، وصيرورة قلوبهم لله سبحانه، مثله في ذلك مثل الطبيب الذي يعالج مرضاه لإبعادهم عما لا يصلحهم.

ولا ينافي هذا الحديث الشريف الأحاديث الأخرى الكثيرة الواردة في باب شدة ابتلاء المؤمنين؛ لأن الحق المتعالي نتيجة لرحمته الواسعة، يعامل كل مؤمن بحسب حالته، حتى يكون بعيداً من الدنيا. فقد يعطي لأحد ثروة، وفي الوقت نفسه يصيبه ببلايا آخر بحسب شدة إيمانه، وضعفه، بل إن ثروته وغناه تحفّ بمصائب ومحن تصرفه عن الدنيا وحبّها، فلو كان فقيراً لأصبح من الهالكين؛ لأنه يرى السعادة في المال والجاه، فيتوجه إلى الدنيا، وينهمك فيها، ولكنه لو تمكن من الدنيا، المحفوفة بالمكاره والآلام الخارجية والداخلية لانصرف عنها. كان أحد مشايخنا العظام يقول: يحسب الإنسان أن في تعدد الزوجات دخولاً في الدنيا ورغبة فيها، ولكنه عندما يدخل ويبتلى بها يخرج منها وينصرف عنها.

الفرائض والنوافل تُقرب الإنسان من الله

إن مبدأ السفر الروحاني إلى الله سبحانه هو بيت النفس المظلم. ومنازل هذه الرحلة: المراتب الآفاقية، والمراحل الأنفسية؛ ونهاية هذا السفر الذات الحق المقدس، إذ يكون للإنسان الكامل في المرحلة الأولى، الذات مع جميع الصفات، والأسماء. وفي المرحلة الأخيرة الذات مضمحلاً فيه الأسماء، والصفات؛ ولغير الإنسان الكامل الذات المقدس مع اسم وصفة وتعيّن من الأسماء، والصفات، والتعيّنات.

وبعد أن يطأ السالك برجله هامة إنيته، وأُنانيته، ويبلغ مستوى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^(١). ويفنى في الأسماء، والذات، والأفعال. وبعد هذه المراحل التي يجتازها، ينسلخ عن نفسه ويحصل له المحو الكلي وتظهر له حالة الصعق، ويصير الحق المتعالي فيه فعّالاً؛ فيسمع بسمع الحق، ويبصر بعين الحق، ويبطش بيد قدرة الحق، وينطق بلسان الحق، ويرى الحق، ولا يرى غيره، ويتكلم بالحق دون غيره، فهو تجاه غير الحق أعمى، وأصم، وأبكم؛ وتجاه الحق بصير، وسميع، وناطق. ولا يحصل هذا المقام إلا مع الجذب الربوبي، ويُسْعَفُ بواسطة الجذبة الربوبية التي تحصل إثر حبّ الذات المقدس، حتى لا ينزلق في وادي الخيرة، ولا يُبْتَلَى بالشطحات، وغيرها، التي هي من رواسب الأنانية. وقد أشير إلى هذين الأمرين في قوله: «وَأِنَّهُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّافِلَةِ حَتَّى أُحِبَّهُ».

فيوجب التقرب بالنوافل، الفناء الكلي، وتكون نتيجته: «كُنْتُ سَمْعُهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ - إلخ» وبعد هذا الفناء التام، والمحو الكلي، والمحق المطلق، والصعق التام، قد تشملته العناية الأزلية ويرجع إليه وعيه، ويعيده إلى عالمه ويعتريه الصحو، وتحصل له حال الأنس والطمأنينة، وتنكشف له سُبُحات الجمال والجلال، وفي هذه الحال من الصحو تتجلى في مرآة الذات، الصفات، وفيها تنكشف الأعيان الثابتة، ولوازمها، ويكون وضع أهل السلوك في هذا المقام مثل المقام الأول في أن عينه الثابتة، تنفى في الاسم الذي تتبعه، وتبقى معه وينكشف عليه حين الصحو الاسم نفسه والعين الثابتة التابعة لذلك الاسم.

إذن تنكشف عن الإنسان الكامل، المنظوي تحت الاسم الجامع الأعظم، مطلق الأعيان الثابتة مع لوازمها أزلاً وأبداً، وتنكشف له حالات الكائنات واستعداداتها، وكيفية سلوكها وطريقة وصولها وتليق به زينة الخاتمة والنبوة الخاتمة اللتان تكوّنتا نتيجة الكشف المطلق، وتنكشف على بقية الأنبياء كلّ بحسب مظهريته لاسم من الأسماء الإلهية؛ وبحسب إحاطة ذلك الاسم وسعته، تنكشف الأعيان التابعة لذلك الاسم، وتنطلق منها سعة دائرة الدعوة وضيقها، والكمال والنقص، والأشرفية وغيرها، وتعود إلى التبعية للأسماء الإلهية.

ومجمل الكلام، بعد أن يتحقق الصحو بعد المحو، يتحوّل وجوده إلى وجود حق، يرى الحق سبحانه في مرآة جماله، الموجودات الأخرى، بل يتحول إلى موجود منسجم مع المشيئة. وإذا كان الإنسان كاملاً، انسجم مع المشيئة المطلقة، وصارت روحانيته عين مقام الظهور الفعلي للحق عز وجل. وفي هذه الصورة يرى به الحق المتعالي ويسمع ويبطش، ويصير هو الإرادة النافذة للحق ومشيئته الكاملة، وعلمه الفعلي فالحق يُسَمَّعُ بِهِ، وَيُبْصَرُ بِهِ، «عَلَيَّ عَيْنُ اللَّهِ وَسَمِعُ اللَّهِ وَجَنُبُ اللَّهِ» إلى غير ذلك.

إذن التقرب بالفرائض يقود الإنسان إلى الصحو بعد المحو، وثماره ما سمعته.

ونستطيع أن نعدّ القرب الحاصل بالنوافل فناءً إسمياً، والقرب الحاصل بالفرائض، فناءً ذاتياً، وعليه تكون النتيجة للتقرب عن طريق الفرائض المحو المطلق.

وقال أفضل المتأخرين، وأكمل المتقدمين، الخواجه نصير الدين الطوسي (قدّس سرّه القدوسي): «العارف إذا انقطع عن نفسه، واتصل بالحق، رأى كلّ

قدرة مستغرقة في قدرته المتعلقة بجميع المقدورات، وكل علم مستغرقاً في علمه الذي لا يعزب عنه شيء من الموجودات وكل إرادة مستغرقة في إرادته التي لا يتأبى عنها شيء من الممكنات، بل كل وجود وكل كمال وجود فهو صادر عنه فائض من لدنه. فصار الحق حينئذٍ بصره الذي يبصر به وسمعه الذي يسمع به وقدرته التي يفعل بها وعلمه الذي يعلم به، وجوده الذي يوجد به، فصار العارف حينئذٍ متخلقاً بأخلاق الله في الحقيقة»^(١). والحمد لله أولاً وآخرًا.

(١) مرآة العقول، المجلد العاشر، كتاب: الإيمان والكفر، باب: من آذى المسلمين، ح ٨، ص ٣٥٩.



الْحَدِيثُ الْخَامِسُ وَالْثَلَاثُونَ

الحسنات من الله
والسيئات من الإنسان

قال أبو الحسن الرضا عليه السلام:

«قَالَ اللَّهُ: يَا ابْنَ آدَمَ بِمَشِيئَتِي كُنْتَ أَنْتَ الَّذِي تَشَاءُ لِنَفْسِكَ مَا تَشَاءُ،
وَبِقُوَّتِي أَدَيْتَ فَرَائِضِي وَبِنِعْمَتِي قَوَيْتَ عَلَى مَعْصِيَتِي، جَعَلْتُكَ سَمِيعًا
بَصِيرًا قَوِيًّا، مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ
فَمِنْ نَفْسِكَ، وَذَلِكَ أَنِّي أُولَى بِحَسَنَاتِكَ مِنْكَ، وَأَنْتَ أُولَى بِسَيِّئَاتِكَ
مِنِّْي، وَذَاكَ أَنَّنِي لَا أَسْأَلُ عَمَّا أَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ»^(١).

مقاما أسماء الحق سبحانه

لأسماء الحق المتعالي مقامان:

أحدهما: مقام الأسماء والصفات الذاتية؛ فالذات المقدس الواجب الوجود
بحيثة واحدة، وجهة بسيطة محضة، مستجمع لجميع الأسماء، والصفات، وعين
كل الكمالات؛ وكل ما وراء الوجود نقص وقصور وعدم.

والآخر: مقام الأسماء والصفات الفعلية، الذي هو مقام الظهور بالأسماء
والصفات الذاتية، ومرتبة التجلي بالصفات الجمالية والجلالية. وهذا المقام هو
مقام معية القيومية: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾^(٢). ومقام وجه الله: ﴿فَإِنَّمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُهُ

(١) أصول الكافي، كتاب التوحيد، باب المشيئة والإرادة، ح ٦

(٢) المجادلة: ٧

اللَّهُ ^(١). ومقام النورية: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ^(٢). ومقام المشيئة المطلقة: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ^(٣). «خَلَقَ اللَّهُ الْأَشْيَاءَ بِالْمَشِيَّةِ وَالْمَشِيَّةِ بِنَفْسِهَا» ^(٤)، ولهذا المقام اصطلاحات وألقاب أخرى على السنة أهل الله. وقد أشير إلى هذين المقامين في الآية الشريفة من الكتاب الإلهي: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ^(٥).

إن مقام المشيئة الفعلية المطلقة، ذو إحاطة قيومية بجميع الموجودات الملكية والملكوتية. وإن جميع الموجودات من تعينات من ناحية، ومن مظاهره من ناحية أخرى. إن كل ما يحصل في هذا العالم الوجودي يتحقق بقيومية الحق سبحانه، ونفوذ قدرته، وإحاطة قوته. وعليه يصح القول: «بِقُوَّتِي أَدَيْتَ فَرَائِضِي»؛ ومقام المشيئة المطلقة هو مقام الرحمة الواسعة، والنعمة الجامعة، كما يقول: «وَبِنِعْمَتِي قَوَيْتَ عَلَى مَعْصِيَتِي».

الجبر والتفويض

أثبت الإمام الرضا عليه السلام في هذا الحديث الشريف المشيئة والقوة للعبد، وفي الوقت نفسه جعلها مشيئة الحق سبحانه. قائلًا «يَا ابْنَ آدَمَ بِمَشِيَّتِي كُنْتَ أَنْتَ الَّذِي تَشَاءُ لِنَفْسِكَ مَا تَشَاءُ وَبِقُوَّتِي أَدَيْتَ فَرَائِضِي وَبِنِعْمَتِي قَوَيْتَ عَلَى مَعْصِيَتِي» فلا تنتفي الأفعال والأوصاف والوجودات على نحو مطلق، ولا يثبت للإنسان

(١) البقرة: ١١٥

(٢) القلم: ٣٥

(٣) الدهر: ٣٠

(٤) أصول الكافي، كتاب التوحيد، باب الإرادة أنها من صفات الفعل، ح ٤

(٥) الحديد: ٣

كل تلك الأمور على نحو مطلق.

وقد يُعْتَرَض بأنه بناءً على هذا العرض تنسب إلى الحق المتعالى النقائص والردائل والمعاصي أيضاً كما تنسب الكمالات والفضائل، فأجاب عليه السلام على هذا الزعم بأن الحق (عزّ، وجلّ) لما كان كمال صرف وخير محض وعين الجمال والبهاء، كانت الكمالات والخيرات من ناحيته؛ وما يعود إلى النقص والرديله والشرّ والوبال، فهو عائد إلى العدم والتعّين ومن لوازم الماهية، وهو غير مجعول، وغير مفاضٍ من الحق سبحانه.

إذن، جميع أنواع السعادة الدنيوية والأخروية، وجميع أنواع الخير المملكية والمملكوتية قد أفيضت من ينبوع الخير والسعادة؛ وإن جميع أنواع الشقاء الدنيوي والأخروي وشرو هذا العالم والعوالم الأخرى من القصور الذاتي للموجودات ونقصها.

وقد يقال: إننا بحسب البيان المذكور عزلنا الكائنات الموجودة عن الخير والسعادة، عندما ربطناها بالحق المتعالى وهذا من الجبر المرفوض؛ وجعلنا الشرّ والشقاء من الإنسان وعزلناها عن القدرة الواجبة وهذا من التفويض المستنكر، فكيف يتمّ التوفيق بين الكلام السابق وما يلزمه من الجبر أو التفويض؟. فأجاب الإمام عليه السلام: إن الحق المتعالى أولى بالحسنات من العباد، وهم أولى بالسيئات من الذات المقدس للحق، وفي إثبات هاتين، إثبات الانتساب إلى الطرفين.

أما بيان أولوية الحق سبحانه في الخير من عباده، فلأن نسبة الخير إلى مبدأ المبادئ بنية وجودية بالذات، فإن الخير ذاتي الوجود وهو في الواجب عين الذات، وفي الممكن بالجعل والإفاضة، وعليه يكون مصدر إفاضة الخير من الواجب تعالى، ولكن مرآة ظهوره، ومظهره هو الممكن. وتلك النسبة الظاهرية

والمفوضة، أتم من هذه النسبة المظهرية والقبالية.

وأما في السيئات والشُرور فالأمر معكوس لأن ما يفاض من الحق يكون خيراً، ويلازمه تخلّل الشرّ على أساس الانجرار والتبعية، فتكون نسبة الشر إلى الحق بالعرض، وإلى الماهية بالذات لنقصانها وقصورها. وقد تولت الآية الكريمة بيان هاتين النسبتين. فعندما تتحكم الوحدة، وتتلاشى الكثرات والنقائص، يقول سبحانه: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾^(١)؛ ولدى مراعاة الكثرات بالعرض والوسائط يقول الله (عز وجل): ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾^(٢).

الحق تعالى لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون

ذلك للأسباب الآتية:

أولاً: ما كان كما لا مطلقاً وواجباً بالذات، كان واجباً من جميع الجهات. فأفعاله كذاته بعيدة عن توجيه السؤال نحوها؛ على خلاف سائر الموجودات. ثانياً: لما كان ذاته المقدس كاملاً مطلقاً وجميلاً مطلقاً، صار كعبة آمال الموجودات، في حين لا كعبة لآماله وراء ذاته المقدس: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾^(٣).

ثالثاً: لما كان ذاته المقدس في المنتهى الأقصى من الجمال والكمال، كان نظام دائرة الوجود، الذي هو ظل جمال الحق سبحانه، في الغاية القصوى من الكمال الممكن، ونظامه أتم الأنظمة المتصورة، فلا استفهام عن الغاية والفائدة، منبعث عن الجهل والنقص، في حين أن الموجودات الأخرى تُسأل لأنها ليست كذلك.

(١) النساء: ٧٨.

(٢) النساء: ٧٩.

(٣) الأنبياء: ٢٣.

رابعاً: كل ما يصدر من وجوده المقدس، صادر من حقيقة ذاته، وأصل حقيقته، فهو فاعل بالذات فلا يصح السؤال عن فعله، أمّا الموجودات الأخرى فهي فاعلة بالعرض ويصح السؤال عن فعلها. ولما كانت الإرادة، والمشية، والقدرة عين ذاته المقدس، كانت الفاعلية بالذات عين الفاعلية بالإرادة والقدرة. ويفاد من البيان الذي ذكرناه، ارتباط الجمل المذكورة في الحديث الشريف بعضها ببعض على أساس الرابطة العلية، وذلك أن الحق لا يُسأل عن فعله لأن فعله كامل تام، يحتوي على نظام أتم، وأما الآخرون فليسوا كذلك فيسألون وذلك لأنه سبحانه أولى بالحسنات، والعبد أولى بالسيئات وهو علة لصدور السيئات، وأما الحسنات فمن الحق عز وجل.

والحمد لله أولاً وآخراً.



الْحَدِيثُ السَّادِسُ وَالْثَّلَاثُونَ

الصفات الذاتية لله سبحانه

عن أبي بصير قال: سَمِعْتُ أبا عبد الله عليه السلام يَقُولُ:

«لَمْ يَزَلِ اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ) رَبَّنَا وَالْعِلْمُ ذَاتُهُ وَلَا مَعْلُومٌ، وَالسَّمْعُ
ذَاتُهُ وَلَا مَسْمُوعٌ، وَالْبَصَرُ ذَاتُهُ وَلَا مُبْصَرٌ، وَالْقُدْرَةُ ذَاتُهُ وَلَا
مَقْدُورٌ؛ فَلَمَّا أَحْدَثَ الْأَشْيَاءَ وَكَانَ الْمَعْلُومُ وَقَعَ الْعِلْمُ مِنْهُ عَلَى
الْمَعْلُومِ وَالسَّمْعُ عَلَى الْمَسْمُوعِ وَالْبَصَرُ عَلَى الْمُبْصَرِ وَالْقُدْرَةُ عَلَى
الْمَقْدُورِ. قَالَ: قُلْتُ: فَلَمْ يَزَلِ اللهُ مُتَحَرِّكًا؟ قَالَ: فَقَالَ: تَعَالَى اللهُ
عَنْ ذَلِكَ، إِنَّ الْحَرَكََةَ صِفَةٌ مُحَدَّثَةٌ بِالْفِعْلِ. قَالَ: فَقُلْتُ: فَلَمْ يَزَلِ
اللهُ مُتَكَلِّمًا؟ قَالَ: فَقَالَ: إِنَّ الْكَلَامَ صِفَةٌ مُحَدَّثَةٌ لَيْسَتْ بِأَزْلِيَّةٍ كَانَ
اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ) وَلَا مُتَكَلِّمًا»^(١).

معاني المفردات

لَمْ يَزَلِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَبَّنَا: المراد: إثبات الأزلية للعلم.
وَكَانَ الْمَعْلُومُ: كان هنا تامة، ومعناها: لما أوجد الأشياء وتحقق المعلوم.
مُحَدَّثَةٌ بِالْفِعْلِ: الصفة التي تتحقق بالإيجاد والخلق، لا يمكن أن تكون صفة
للخالق سبحانه.

(١) أصول الكافي، كتاب التوحيد، باب صفات الذات، ح ١.

عَيْنِيَّةُ صِفَاتِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ مَعَ الذَّاتِ الْمُتَعَالِي

فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ قَاعِدَتَانِ:

الأولى: أَنَّ الْبَسِيطَ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، هُوَ بِنَفْسِهِ جَمِيعُ الْكِمَالَاتِ مِنْ حَيْثِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَجِهَةٌ فَرِيدَةٌ، فَمِنْ الْحَيْثِيَّةِ الَّتِي بِهَا صَارَ الْبَسِيطُ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ مَوْجُودًا، يَكُونُ عَالَمًا، وَقَادِرًا، وَحَيًّا، وَمُرِيدًا؛ وَيَصْدُقُ عَلَيْهِ جَمِيعُ الْأَسْمَاءِ، وَالصِّفَاتِ: الْجَمَالِيَّةِ، وَالْجَلَالِيَّةِ؛ فَهُوَ عَالَمٌ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ قَادِرٌ، وَقَادِرٌ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ عَالَمٌ مِنْ دُونِ أَدْنَى اخْتِلَافٍ حَتَّى لَدَى الْعَقْلِ. إِنَّ بَسِيطَ الْحَقِيقَةِ، بَسِيطٌ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، وَعَلَيْهِ لَا بَدَّ مِنْ انْتِزَاعِ كُلِّ الْمَفَاهِيمِ الْكِمَالِيَّةِ مِنْ حَيْثِيَّةٍ وَاحِدَةٍ. وَإِذَا انْتَزَعْتَ مَفَاهِيمَ الْكِمَالِ مِنْ حَيْثِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَمَصَادِرَ مُتَعَدِّدَةٍ (كَمَا هُوَ شَأْنُ بَعْضِ الْمُمَكِّنَاتِ)، كَانَ هَذَا التَّغَايِيرُ أَمْرًا عَارِضًا، طَارِئًا، وَنَاتِجًا مِنْ تَنْزُلِ حَقِيقَةِ الْوُجُودِ، وَتَشَابُكِهِ مَعَ الْعَدَمِ بِالْعَرَضِ.

الثانية: إِنَّ الْكَامِلَ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، وَمَا هُوَ صَرَفُ الْكِمَالِ وَالْخَيْرِ، لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ بَسِيطًا مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ.

وَتُقَادُ أَيْضًا بِالتَّبَعِ قَاعِدَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: أَنَّ الْمَرْكَبَ مَهْمَا كَانَ نَوْعُهُ، لَا يَكُونُ كَامِلًا مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، إِذْ إِنَّ النِّقْصَ وَالْعَدَمَ قَدْ تَسَرَّبَا إِلَيْهِ.

وَالْأُخْرَى: أَنَّ النَّاqِصَ لَا يَكُونُ بَسِيطًا مُطْلَقًا.

إِذْ لَمَّا كَانَ الْحَقُّ الْمُتَعَالَى بَسِيطًا تَامًا، وَبَعِيدًا كُلَّ الْبَعْدِ عَمَّا يَسْتَلْزِمُ الْإِمْكَانَ، وَالْفَقْرَ، وَالتَّعَلُّقَ بِغَيْرِهِ، كَانَ كَامِلًا مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، وَمَشْتَمَلًا عَلَى جَمِيعِ الْأَسْمَاءِ، وَالصِّفَاتِ، وَحَقِيقَةِ أَصِيلَةٍ، وَوُجُودًا صَرِيحًا مِنْ دُونِ أَنْ يُخَامِرَهُ غَيْرُ الْوُجُودِ، وَيَخَالِطُ الْكِمَالِ غَيْرَ الْكِمَالِ، فَهُوَ وَجُودٌ صَرَفٌ، إِذْ لَوْ تَدَخَّلَ غَيْرُ

الوجود فيه لتحقيق التراكب بين الوجود والعدم. فهو صرف العلم، وصرف الحياة، وصرف القدرة، وصرف البصر، والسمع، وجميع الكمالات. وعليه يصحّ كلام الإمام الصادق عليه السلام: «وَالْعِلْمُ ذَاتُهُ؛ وَالْقُدْرَةُ، وَالسَّمْعُ، وَالْبَصَرُ، ذَاتُهُ».

في تحقيق عينية الصفات مع الذات المقدسة

لأوصاف الذات الأقدس مرتبتان:

إحدهما: مرتبة الذات، والأوصاف الذاتية، ونستطيع أن نتزع من هذه المرتبة العلم، والعالمية، والقدرة، والقادرية.

وأما الأوصاف السلبية، مثل: القدوس، والسبوح، والأسماء التنزيهية، فإنها من لوازم الذات المقدس، ويكون الذات المقدس مصداقاً بالعرض لتلك الأوصاف السلبية؛ لأن الحق المتعالي كمال مطلق ويصدق عليه سبحانه الكمال المطلق بالذات - لا بالعرض - لأنه سبحانه أساس الحقيقة وأصلها، ومن لوازمه سلب النقائص، فيكون الكمال مصداقاً عرضياً لسلب النقائص.

ويرى أهل المعرفة وأصحاب القلوب أن مقام التجلي بالفيض الأقدس مبدأ للأسماء الذاتية. وأن مقام التجلي بالفيض المقدس، مبدأ للأوصاف الفعلية، ويعتقدون بأن هذا المقام لا يكون غير الذات، كما لا يكون عين الذات.

العلم قبل الإيجاد

هذا الحديث الشريف قد أوماً إلى أن العلم بالمعلوم قد كان في الأزل قبل الإيجاد، وأن هذا العلم عين الذات المقدس، وأن علمه سبحانه تفصيلي، وليس بإجمالي، إذ قال: «وَالسَّمْعُ ذَاتُهُ وَلَا مَسْمُوعٌ، وَالْبَصَرُ ذَاتُهُ وَلَا مُبْصَرٌ»؛ ومن

الواضح أن البصر والسمع شهود للمبصر والمسموع تفصيليًا. وأشار أيضًا في هذا الحديث إلى علمه التفصيلي سبحانه عندما قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَإِذَا أَحْدَثَ الْأَشْيَاءَ وَكَانَ الْمَعْلُومُ وَقَعَ الْعِلْمُ مِنْهُ عَلَى الْمَعْلُومِ - إلخ» لأنه سبحانه لم يجدد علمه بعد الإيجاد، وإنما وقع العلم منه على المعلوم بعد حدوثه.

إن عِلَّةَ واجب الوجود تعالى شأنه، ومبدئيته، تختلف عن عِلَّةِ الفاعل الطبيعي، إذ إن العلة الطبيعية تتركب المواد الموجودة، وتجزأها، مثل النجار الذي يغير القطعة الخشبية، فيزيد قطعة وينقص أخرى. ومثل البناء الذي يجمع ويركب المواد الموجودة، ولكن الحق المتعالي فاعل إلهي يخلق الأشياء بإرادته من دون حاجة إلى مواد أولية مسبقة، وأن علمه وإرادته علة ظهور الأشياء ووجودها، فدار التحقق محاطة بعلمه، وتخرج من غيب الهوية، عندما يريد الله سبحانه إظهارها: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾^(١).

فجميع العوالم الموجودة محاطة بعلمه، وتظهر منه، وتعود إليه: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٢).

وبعبارة أوضح: إن العلم بسبب الشيء وعِلَّتُهُ التامة، يستلزم العلم بذلك الشيء، فإن علم المنجم بالخسوف والكسوف في ساعة محدّدة من يوم معلوم، يكون نتيجة علمه بالأسباب، إذ يرصد حركة الشمس والقمر، وحيلولة القمر بين الأرض والشمس، فيحصل له العلم بالكسوف والخسوف، وإذا كان رصده دقيقًا لا يتخلف الكسوف والخسوف عن علمه.

ولما كانت حلقات الأسباب والمسببات من هذا العلم تنتهي إلى الذات

(١) الأنعام: ٥٩

(٢) البقرة: ٥٦

المقدس المبدأ لكل المبادئ، وكان الحق سبحانه عالماً بذاته، وأن علمه بذاته الذي هو سبب لجميع الموجودات، علم بالمسبب أيضاً، ولما كانت كذلك، كان الله سبحانه عالماً بكل الأشياء، وكان علمه بنفسه سبباً لخلق جميع الأشياء.

معنى سمع الحق سبحانه وبصره

إن السمع والبصر من العلوم الزائدة على أصل العلم، وأنها يغايران حقيقة العلم ويعدّان من الكمالات المطلقة للوجود، فلا بد من إثباتهما للحق المتعالي الذي يعدّ مبدءاً للوجود، ومصدراً لكمالاته.

وإن الوحدة كلما كانت في الوجود أقوى وأتمّ، كان صدق مفاهيم الكمال عليه أوفى، وعدد الأسماء والصفات فيه أوفر. وعلى العكس، كلما كان الوجود إلى الكثرات أقرب، كان صدق مفاهيم الكمال عليه أقلّ وكان ما يصدق عليه من مفاهيم الكمال أوهى. وأقرب إلى المجاز - دون الحقيقة - وكلّ ذلك من أجل أن الوحدة تساوي الوجود، وتعدّ من كمالات الوجود بما هو موجود، ومعنى مساواة الوحدة للوجود، هو أن الوجود مع الوحدة وإن اختلفتا مفهوماً، ولكن حقيقة الوجود هي حقيقة الوحدة في الخارج، كما أنه أينما كانت الكثرات كان هناك النقص والعدم والشرّ والضعف والفتور.

ولهذا كلما تهاوى الوجود في منحدر المراتب النازلة كانت الكثرات أكثر من جميع مراتب الوجود؛ وعليه يتنزّه مقام الربوبية، وساحته المقدسة (جل وعلا)، الذي هو صرف الوحدة والبساطة عن الكثرة والتركيب. فالحق المتعالي يستجمع جميع الكمالات والأسماء والصفات، من دون رجوع إحداها إلى الأخرى، بل يصدق حقيقة كل من الكمالات والأسماء والصفات على الذات المقدس فكل

من سمعه سبحانه وبصره وإرادته وعلمه. يشتمل على مداليه ومعانيه على نحو الحقيقة، ويصدق على الذات (عز وجل) كل منها حقيقة من دون أن تستلزم كثرة في ذاته (سبحانه) بوجه من الوجوه. فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَالْأَمْثَالُ الْعُلْيَا وَالْكَبَرِيَاءُ وَالْآلَاءُ.

كيفية تعلق علمه سبحانه بالمعلوم

في ضوء ما أشرنا إليه من قبل، تنكشف على الحق المتعالي من خلال علمه البسيط الذاتي، والكشف الواحد الأزلي، جميع الموجودات، ويتم له سبحانه العلم؛ وهذا الكشف على رغم كونه بسيطاً، وواحدًا تامًا، يكون تفصيليًا على نحو لا تخرج عن حیطة علمه سبحانه ذرة من سماوات الأرواح، وأراضي الأشباح أزلاً وأبدًا. وهذا العلم والكشف يكون منذ الأزل، ويكون عين ذاته المقدس. والمعلوم المتعين والمحدود، الذي يعود تعيينه وتحديدته إلى العدم والنقص، يتحقق بالعرض عندما يتعلق به الإيجاد، ويصير معلومًا بالعرض، فيكون التعلق بالعرض بعد الإيجاد. وأشار (عليه الصلاة والسلام) في هذا الحديث إلى هذا المعنى، عندما قال: «فَلَمَّا أَحْدَثَ الْأَشْيَاءَ وَكَانَ الْمَعْلُومُ وَقَعَ الْعِلْمُ مِنْهُ عَلَى الْمَعْلُومِ»؛ وعليه يكون معنى هذه الجملة: فَلَمَّا تَجَلَّى بِفَيْضِهِ الْمُقَدَّسِ، وَظَهَرَ الْكَوْنُ بِالْعَرَضِ، وَقَعَ الْعِلْمُ عَلَى الْمَعْلُومِ؛ أَيِ ظَهَرَ الْفَيْضُ فِي مِرَاةِ الْمُسْتَفِيزِ بِالْعَرَضِ.

ويُحْتَمَلُ أن تكون هذه الجمل إشارة إلى العلم الفعلي، الذي يحصل نتيجة التجلي للفيض المقدس. ويكون المقصود من المعلوم، المعلوم بالذات، الذي هو هويّات وجودية قد تعلق بها الفيض المقدس، وتجلّ، ظهوري، نوري؛ وعليه

يكون المعنى: فَلَمَّا تَجَلَّى بِفَيْضِهِ الْمُقَدَّسِ وَظَهَرَ وُجُودُ الْكَوْنِ بِالذَّاتِ، أَيِّ بِلَا حَيْثِيَّةٍ تَقْيِيدِيَّةٍ وَقَعَ الْفَيْضُ عَلَى الْمُسْتَفِيزِ بِالذَّاتِ.

وعلى كلا الاحتمالين، لا يكون هذا التجلي الذي يحصل بالفيض المقدس من جرّاء الحوادث الزمانية والظروف المتغيرة، فإن إيجاد الحق سبحانه مقدس ومنزه من كل ما فيه شائبة الحدوث والتغير بل التعيّن والتحديد. فكما أن العلم الذاتي بسيط من جميع الجهات، ومحيط بتمام الحثيات، فكذلك العلم الفعلي الذي هو آية حقيقية للحق المتعالي، وظهور لعلمه الذاتي ومرآة له، يكون بسيطاً تاماً، وواحداً بالمطلق، ومحيطاً بجميع دائرة الكون والتحقّق، من دون أن يحدث فيه تعيّن وتجدّد وتركيب، غاية الأمر أن هذا العلم الفعلي متقوم بالذات بذاته المقدس سبحانه، وأنه تعلّق محض. ولهذا يكون فانياً في كبرياء الحق (عزّ، وجلّ) وحضوراً في محضر ذي الجلال. ومن هذا المنطلق يعدّونه علم الحق سبحانه. كما أنه إيجاد النفس الناطقة للحقائق العقلية في عالم العقل والمثل الخيالية في لوح الخيال، علم فعلي للنفس وفانٍ فيها.

وقال الحكماء: إن نسبة عالم الأمر إلى الحق سبحانه، تضاهي نسبة الصور العلمية إلى النفس. ومن أجل هذه الإحاطة والسعة والبساطة والنفوذ للحق سبحانه، ذهبوا إلى أن الحق المتعالي يعلم الجزئيات بالعلم الكلي أي أن جزئية المعلوم ومحدوديته ومحاطيته، لا تبعث على محدودية في العلم. فعلمه سبحانه: محيط وقديم وأزلي وغير متغيّر وأما المعلوم فهو محاط ومحدود وحادث ومتغير.

المقياس في الصفات الثبوتية والسلبية

إن الصفات الثبوتية لو لم تثبت للذات المقدس للزم إما أن لا يكون الذات

المتعالى، وجودًا صرفًا ومحضًا، أو لا يكون الوجود الصرف محض كمال وجمال. وهذا الأمران باطلان لدى العرفاء والحكماء.

وإن كل صفة لا تُعدّ من حقيقة الوجود، بل ترجع إلى الماهية، هي من الصفات المسلوقة التي يمتنع تحقيقها في الذات الكامل المطلق؛ لأن الذات الكامل المطلق والوجود الصرف كما يكون مصداقًا للكمال الصرف، يكون مصداقًا لسلب النقائص والحدود والأعدام والماهيات.

وبعدما اتضح المقياس في الصفات الثبوتية والسلبية، نستطيع أن نفهم بأن الحركة التي تتقوم بالقوة والهيولى، والحدوث والتجدد المتغلغل في ذات القوة، لا تتسرب إلى ذاته المقدس جل جلاله.

والتكلم بمعناه الدارج العرفي، الذي هو محل سؤال الراوي في الحديث الشريف، هو صفة محدثة متجددة يتنزه الحق المتعال عنها؛ لكن حقيقة التكلم، لا تتوقف على خروج الأحرف من المخارج الخاصة في الحنجرة والفم؛ وما هو شائع لدى أبناء اللغة وعرف الجمهور من الناس من أن التكلم يتقيد وينصرف إلى خروج الأحرف الأبجدية من مخارجها، ناتج من العادة، وأنس ذهن الناس بمثل هذا التفسير، وأما أصل معنى التكلم فلا يتقيد بالأحرف أبدًا.

إن حقيقة الكلام هي إظهار ما في الضمير، بالأدوات المادية الحسية أو من دونها، وعليه يكون الكلام من الأوصاف الكمالية للوجود؛ لأن الظهور والإظهار من حقيقة الوجود، ويعودان إلى حقيقة الوجود. وكلما كان الوجود أكمل وأقوى كلما كان الظهور والإظهار أكثر، إلى أن يصل الأمر إلى الأفق الأعلى والمقام الواجب الأسنى، الذي هو نور الأنوار ونور على نور، وظهور على ظهور. وبواسطة الفيض المقدس وكلمة (كُنْ) الوجودية يتم إظهار ما في

الغيب من مقام الواحدية. ومن خلال الفيض الأقدس والتجلي الذاتي الأحدي، يتم إظهار الغيب المطلق، ومقام اللامقام من الأحدية، وفي هذا التجلي الأحدي، يكون المتكلم: هو الذات المقدس الأحدي، والكلام: هو الفيض الأقدس، والتجلي الذاتي، والسماع: الأسماء والصفات. وبهذا التجلي نفسه تتم طاعة تعيّنات الأسماء والصفات وتتحقق علميًا. وفي التجلي الواحد بالفيض المقدس يكون المتكلم، الذات المقدس الواحد المستجمع لجميع الأسماء والصفات، والكلام، نفس التجلي، والسماع والمطيع هما تحقيق الأعيان العلمية، الملازمة للأسماء والصفات واللذان تحققا بواسطة أمر «كُن» تحققًا خارجيًا عينيًا «فَإِذَا قَالَ لِكُلِّ عَيْنٍ أَرَادَ إِيجَادَهَا: كُنْ، فَيُطِيعُ الأَمْرَ الإِلَهِيَّ فَيَكُونُ وَيَتَحَقَّقُ».

والحمد لله أولاً وآخراً.



الْحَدِيثُ السَّابِعُ وَالْثَّلَاثُونَ

معرفة الله بالله
والرسول بالرسالة

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«اعْرِفُوا اللَّهَ بِاللَّهِ، وَالرَّسُولَ بِالرَّسَالَةِ، وَأُولِي الْأَمْرِ بِالْأَمْرِ
بِالْمَعْرُوفِ وَالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ»^(١).

معاني المفردات

اعْرِفُوا: قيل في الفرق بين العلم، والعرفان أو المعرفة ما يأتي:
أولاً: يختص العلم بالكمليات، والمعرفة بالجزئيات، فالفرق في المتعلق،
ويقال: إن العارف بالله هو الذي يتعرف الحق سبحانه بالمشاهدة الحضورية،
والعالم بالله هو الذي ينتهي إلى الحق سبحانه من خلال البراهين الفلسفية.
ثانياً: العلم هو ما يدركه الإنسان ابتداءً، والمعرفة ما كان معلوماً فغُفِلَ عنه،
ونُسي، ثم أُدرِك، وإنما يقال للعارف عارفاً؛ لأنه يتذكر النشآت السابقة على كونه
المُلْكِي، ونشأته الطبيعية، وادّعى بعض أهل السلوك العرفاء أن سبب التسمية
هو تذكر عالم الذرّ، ويقول بأنه لو أزيح حجاب الطبيعه الباعث على الغفلة
والنسيان عن أعين السالك، لتذكر العوالم السابقة.

المقصود من قوله: اعْرِفُوا اللَّهَ بِاللَّهِ

للذات المقدس الحق (عز جلاله) اعتبارات، ولكل اعتبار اصطلاح خاص

به؛ هي:

(١) أصول الكافي، المجلد ١، كتاب التوحيد، باب أنه لا يعرف إلا به، ح ١.

الأول: اعتبار الذات من حيث هو، بلا اسم أو رسم، ومن دون إمكان بلوغ آمال العرفاء، وذوي القلوب والأولياء إليه؛ وقد يعبر عنه حيناً لدى أرباب المعرفة بعنقاء المغرب. قال الشاعر:

أيها الصياد انتبه بأن العنقاء لا يسقط في الفخ فاسحب مصيدتك
وحيثاً ثانياً بالعلماء، أو العمى، روي أنه قيل للنبي صلى الله عليه وآله: «أَيْنَ كَانَ رَبُّكَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ؟ قَالَ: فِي عَمَاءٍ»^(١). وحيثاً ثالثاً بغيب الغيوب، والغيب المطلق؛ وكل هذه المصطلحات، قاصرة عن أداء المعنى.

الثاني: اعتبار الذات بحسب مقام التعيين الغيبي، وعدم الظهور المطلق، المسمّى بمقام الأحدية. والتعبيرات المذكورة في الاعتبار السابق تلائم هذا المقام. ويتحوّل في هذا المقام اعتبار الأسماء الذاتية، بحسب اصطلاح العلماء، إلى الأسماء، نحو: الباطن المطلق، والأول المطلق، والعلّيّ والعظيم، كما يفاد من حديث (الكافي): أن أول اسم اتخذته الحق لنفسه هو العليّ والعظيم.

الثالث: اعتبار الذات بحسب مقام الواحدية، ومقام جمع الأسماء والصفات، وهو مقام الاسم الأعظم، والاسم الجامع «الله».

الرابع: اعتبار الذات بحسب مرتبة التجليّ بالفيض المقدس، ومقام ظهور الأسماء، والصفات في مرائي الأعيان، كما يكون مقام الواحدية بسبب تجلي الفيض الأقدس. مقام ظهور الأسماء هذا، يقال له: مقام الظهور الإطلاقي ومقام الألوهية.

إنّ هذه الاعتبارات المذكورة على ألسنة أهل المعرفة وأصحاب القلوب، إخبار عن دور تجليات الحق سبحانه على قلوبهم الصافية، وتكون تلك

(١) عوالي اللآلي: ج ١، ص ٥٤، ومسنّد أحمد، ج ٤، ص ١٢.

التجليات بحسب مراتب ومقامات سلوك الأولياء، وحسب منازل سير السائرين إلى الله ومراحلها، مبتدئة من مقام ظهور الأسماء والصفات، الذي هو مقام الإلهوية والمسمى بـ «الله» والآية الكريمة: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْكَوْفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْيَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَضَرِبَ اللَّهُ الْأَمْثَلُ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١)، إشارة إلى ذلك، ومنتهية بمقام الغيب الأحدي، ومرتبة الأسماء الذاتية والاسم المستأثر، الذي هو نهاية السير والمقصد. ويمكن أن يكون قوله تعالى: ﴿أَوَادْنِي﴾^(٢) إشارة إلى هذا المقام.

وعندما يلجأ الإنسان إلى الفكر والبرهان في طلبه للحق، وسيره إلى الله، يكون سيره عقلياً عملياً، ولا يكون من نوع سير أهل المعرفة وأرباب العرفان. إن الشرط الأول في السير إلى الله، هو الخروج من البيت المظلم للنفس واختفاء أثارها ومعالمها؛ لأنه ما دامت آثار التعينات مشهودة وأصوات الكثرات مسموعة، لا يكون الإنسان مسافراً، بل يتخيل السفر، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾^(٣).

وبعد أن يغادر السالك إلى الله بيت النفس، ويتحقق له السفر إلى الله سبحانه، يتجلى له الحق المتعالي قبل كل شيء، على قلبه المقدس، بالالوهية، ومقام ظهور الأسماء والصفات. هذا التجلي ينطلق من الأسماء المحاطة، مروراً

(١) النور: ٣٥.

(٢) النجم: ٩.

(٣) النساء: ١٠٠.

بالأسماء المحيطة، بحسب شدة السير، وضعفه؛ وبحسب قوة قلب السالك، وضعفه، حتى ينتهي إلى رفض كل تعيينات عالم الوجود سواء كانت تعيينات تعود إلى نفسه أو تعيينات راجعة إلى غيره، وبعد الرفض المطلق، يتم التجلي بالألوهية، ومقام الله الذي هو مقام أحدية جمع ظهور الأسماء، وتظهر «اعرفوا الله بالله» في مرتبتها الأولى النازلة.

ولدى وصول العارف إلى هذا المقام والمنزلة، يفنى في هذا التجلي، فإذا وسعته العناية الأزلية، حصل للعارف الفاني في هذا التجلي، استيناسًا، وزالت عنه وحشة الطريق ونَصَب السفر، واستفاق، فلم يقنع بهذا المقام، ويستمر بخطوات ملؤها الشوق والعشق، وفي سفر العشق هذا يكون الحق المتعالي مبدأ السفر والباعث على السفر ونهاية السفر، وتتم خطواته في أنوار التجلي، فيسمع هاتفاً يقول له: «تَقَدَّمْ» ويستمر في التقدم إلى أن تتجلى في قلبه بصورة مرتبة ومنظمة، الأسماء والصفات في مقام الواحدية، حتى يبلغ مقام الأحدية، ومقام الاسم الأعظم، الذي هو اسم الله، فيتحقق في هذا المقام «اعرفوا الله بالله» في مرتبة عالية.

عدم حمل الأحاديث المأثورة على المعاني الدارجة

مقصودنا من شرح الحديث الشريف في ضوء مسلك أهل العرفان، لدفع توهم حصر معاني الأحاديث المنقولة في باب معارف أصول الدين، في المعاني الرائجة العرفية؛ لأنها تحتوي على أدق المعاني الفلسفية، وقمة معارف أهل المعرفة.

ولا ينافي هذا التفسير الدقيق العرفاني صياغة أئمة أهل المعرفة، العلماء بالله

لكلامهم الشريف في أسلوب جامع، تقطف كل طائفة بحسب مسلكها قدرًا من الثمار، فنستطيع أن نشرح الحديث الشريف المذكور شرحًا عرفيًا رائجًا بأن نقول: معنى: «اعْرِفُوا اللَّهَ بِاللَّهِ» هو: اعرفوا الله بآثار صنعه، واتقان عمله، فهما من آثار الألوهية.

ويجب معرفة النبي بالرسالة وآثاره المتقنة لدعوته، ومعرفة أولي الأمر بكيفية أعمالهم من قبيل الأمر بالمعروف والعدالة؛ إذ نتعرف من خلال الآثار أصحابها. وهذا لا ينافي وجود معنى أدق للحديث، يكون بمنزلة البطن له، ووجود معنى آخر أدق من المعنى الثاني بمنزلة بطن البطن.

وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنَ الزَّلَلِ وَالْفَسَلِ وَالْكَسَلِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا



الْحَدِيثُ الثَّامِنُ وَالْإِلَهُونُ

إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ

عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عما يروون أن الله خلق آدم عليه السلام على صورته، فقال:

«هي صورة محدثة مخلوقة [و] اصطفاه الله واختارها على سائر الصور المختلفة فأضافها إلى نفسه كما أضاف الكعبة إلى نفسه والروح إلى نفسه فقال: «بَيْتِي» و﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾»^(١).

معاني المفردات

آدم: يحتمل أن يكون وجه تسمية أبي البشر بـ(آدم) هو أنه عليه السلام كان أسمر اللون، ففي اللغة: الآدم من الناس: الأسمر. وفي بعض الروايات أن سبب التسمية بآدم هو: أنه من أديم الأرض أي من على وجه الأرض. على صورته: الصورة في اللغة، بمعنى: المثل والهيئة. اصطفاه: «الصفوة» بمعنى: الخالص من الشوائب، والصافي من الكدر، والاصطفاء: هو أخذ الخالص والصافي هو يلازم الخالص. الكعبة: اسم لبيت الله؛ وإنما سُمي بالكعبة لأنه يضاهي الجسم المكعب، أو لكونه مربعًا. والمكعب لدى الرياضيين هو الجسم المحفوف بسطوح ستة تكون الزوايا فيها قائمة.

(١) أصول الكافي، المجلد الأول، كتاب التوحيد، باب الروح، ح ٤.

والروح: الروح لدى الأطباء: البخار اللطيف الناجم عن حرارة دم الحيوان في القلب؛ وقد تطلق الروح على الدم المتجمع في الكبد، الذي يجري في الأوردة، ويسمى بالروح الطبيعية. وقد تستعمل الروح في مصطلح الحكماء، في الروح النفسية التي تنبعث من الدماغ، وتجري في الأعصاب، وتكون مظهرًا ومرتبة نازلة من الروح المجرد، التي هي السرّ السبحاني، وروح الله المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾^(١).

الإنسان مظهر تامّ لله والاسم الأعظم للحق (جل وعلا)

الإنسان الكامل مظهر الاسم الجامع، ومראה تجلي الاسم الأعظم، وقد أشير إلى هذا المعنى في الكتاب والسنة كثيرًا. قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾^(٢). وقد تمّ هذا التعليم الإلهي على يدي الجمال والجلال تجاه باطن آدم بواسطة التخمير الغيبي الجمعي لدى الحضرة الواحدية، وتمّ التعليم الإلهي تجاه صورة آدم وظاهره، في عالم الشهادة بمظهره الطبيعي المادي، بواسطة ظهور يدي الجلال والجمال. قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(٣).

والأمانة لدى العرفاء: الولاية المطلقة التي لا يليق بها غير الإنسان، وهذه الولاية المطلقة، هي مقام الفيض المقدس. وقد أشير إليه في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(٤). وعن أبي جعفر عليه السلام: «نَحْنُ حُجَّةُ اللَّهِ،

(١) الحجر: ٢

(٢) القصص: ٨٨

(٣) الأحزاب: ٧٢

(٤) القصص: ٨٨

وَنَحْنُ بَابُ اللَّهِ، وَنَحْنُ لِسَانُ اللَّهِ وَنَحْنُ وَجْهُ اللَّهِ وَنَحْنُ عَيْنُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَنَحْنُ
وُلَاةُ أَمْرِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ^(١) وفي دعاء الندبة: «أَيْنَ وَجْهُ اللَّهِ الَّذِي يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ الْأَوْلِيَاءُ؟
أَيْنَ السَّبَبُ الْمُتَّصِلُ بَيْنَ أَهْلِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ^(٢)»، وفي زيارة الجامعة الكبيرة:
«وَالْمَثَلُ الْأَعْلَى^(٣)». وهذا المثل الأعلى وذلك الوجه الإلهي، هو الوارد في الحديث
الشريف: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» ومعناه: أن الإنسان هو المثل الأعلى
لِلْحَقِّ سبحانه، وآيته الكبرى، ومظهره الأتم، وأنه مرآة لتجلي الأسماء
والصفات، وأنه وجه الله، وعين الله، ويد الله، وجنب الله، «هُوَ يَسْمَعُ وَيُبْصِرُ
وَيَبْطِشُ بِاللَّهِ، وَاللَّهُ يُبْصِرُ وَيَسْمَعُ وَيَبْطِشُ بِهِ». ووجه الله هذا هو النور المذكور في
قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٤).

وعن أبي خالد الكابلي، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله (عز وجل):
﴿فَتَأْمُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾، فَقَالَ: «يَا أَبَا خَالِدٍ النُّورُ وَاللَّهُ نُورُ الْأَئِمَّةِ
مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُمْ وَاللَّهُ نُورُ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ،
وَهُمْ وَاللَّهُ نُورُ اللَّهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ^(٥)» وعن الإمام الباقر (روحي لتراب
مقدمه الفداء) في تفسيره عليه السلام للآية الشريفة: ﴿عَمَّ يَسَاءَلُونَ﴾ * عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿قَالَ:
«هِيَ فِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: مَا لِلَّهِ تَعَالَى آيَةٌ هِيَ أَكْبَرُ مِنِّي،
وَلَا لِلَّهِ مِنْ نَبِيٍّ أَعْظَمُ مِنِّي»^(٦).

(١) أصول الكافي، المجلد الأول، كتاب التوحيد، باب النوادر، ٧

(٢) مفاتيح الجنان، دعاء الندبة

(٣) مفاتيح الجنان، زيارة الجامعة الكبيرة.

(٤) النور: ٣٥.

(٥) أصول الكافي، المجلد الأول، كتاب الحجة، باب أن الأئمة نور الله، ح ١.

(٦) أصول الكافي، المجلد الأول، كتاب الحجة، باب أن الآيات التي ذكرها الله في كتابه، ح ٣.

وملخص الحديث: أن الإنسان الكامل الذي يكون آدم أبو البشر فردًا منه، أكبر آية ومظهر لأسماء وصفات الحق سبحانه، وأنه مَثَلُ الحق المتعالي وآيته. ولا بد من تنزيه الله سبحانه وتقديسه عن المِثْلِ بمعنى: الشبه، ولا يلزم تنزيه ذاته المقدس عن المِثْلِ الذي هو بمعنى: الآية: والعلامة: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾^(١).

إن جميع ذرّات الكون، آيات ومرآة تجلي ذاك الجمال الجميل عز وجل كل بحسب حجمه ومنزلته الوجودية. فَاللَّهُ تَعَالَى خَلَقَ الْإِنْسَانَ الْكَامِلَ وَالْآدَمَ الْأَوَّلَ عَلَى صُورَتِهِ الْجَامِعَةِ وَجَعَلَهُ مِرْآةَ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ. والحمد لله أولاً وآخراً.



الْحَدِيثُ النَّاسِجُ وَالْبَلَاءُونَ

الخير والشر

بالسند المتّصل عن معاوية بن وهب قال: سَمِعْتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول:

«إِنَّ مِمَّا أَوْحَى إِلَيَّ اللهُ إِلَى مُوسَى عليه السلام وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ فِي التَّوْرَةِ: إِنِّي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، خَلَقْتُ الْخَلْقَ وَخَلَقْتُ الْخَيْرَ وَأَجْرِيئُهُ عَلَى يَدَيَّ مِنْ أَحَبُّ، فَطَوْبَى لِمَنْ أَجْرِيئُهُ عَلَى يَدَيْهِ، وَأَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، خَلَقْتُ الْخَلْقَ وَخَلَقْتُ الشَّرَّ وَأَجْرِيئُهُ عَلَى يَدَيَّ مِنْ أُرِيدُهُ، فَوَيْلٌ لِمَنْ أَجْرِيئُهُ عَلَى يَدَيْهِ»^(١).

معاني المفردات

إله: تطلق الإلهية والألوهية غالباً في لسان أهل الله - العرفاء - على مقام التجلي بالفعل، وعلى مقام الفيض المقدس. ويطلق عندهم اسم الجلالة: الله، غالباً على مقام الذات المستجمع للصفات. وقد يستعملون على العكس من ذلك - فتطلق الألوهية والإلهية على مقام الذات والله على مقام التجلي بالفعل ومقام الفيض المقدس. ويحتمل أن يكون (الإله) في هذا الحديث الشريف بمعناه اللغوي العرفي أي: أنا المعبود ولا معبود غيري؛ وعليه يكون قصر العبودية في الله سبحانه إما على أساس أن غيره لا يستحق العبادة وإن أخطأ الناس، ورأوا غيره معبوداً. وإمّا على مذهب أهل القلوب، وأرباب المعرفة من أن العبادة في أي صورة ومظهر كانت، تكون للكمال المطلق، وأن الإنسان بحسب ﴿فَطَرَتِ اللهُ إِلَيَّ فَطَرَ النَّاسَ

(١) أصول الكافي، المجلد الأول، كتاب التوحيد، باب الخير والشر، ح ١.

عَلَيْهَا^(١) يطلب الجميل المطلق، وإن كان الإنسان العابد محجوبًا عن هذه الفطرة، وزاعمًا أنه قد ارتبط بالمتعين والمحدود - من غير الإله سبحانه.

ولعلَّ المقصود من الإله بحسب ما ورد في ذيل الحديث الشريف من نسبة الخير والشر إليه سبحانه، هو مقام الألوهية، وهو إشارة إلى مقام توحيد الأفعال، الذي عبّر عنه الحكماء العظام بقولهم: لا مُؤَثَّرٌ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ.

الخير: الخير والشر في موارد استعماليهما بمعنى: الكمال، والنقص، في الذات، أو الصفات، وفي الوجود وكمالاته، وأن جميع ما هو خير بحسب ذاته، فهو عائد إلى حقيقة الوجود، وإذا أطلق على غيره، فهو من أجل الوجود. والشر بالذات، هو العدم أو عدم كمال الوجود، وإطلاقه على غير ذلك مثل الموجودات المؤذية والحيوانات الضارة، فإنها هو إطلاق بالعرض والمجاز لا بالذات والحقيقة.

طوبى: فيها أقوال، منها: مشتقة من الطيّب، ومنها: طيب العيش، والخير، و: أقصى الأمنية، ومنها: اسم للجنة بلغة أهل الهند، ومنها: شجرة في الجنة. وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله: «طُوبَى شَجَرَةٍ فِي الْجَنَّةِ أَصْلُهَا فِي دَارِي وَفَرْعُهَا فِي دَارِ عَلِيٍّ فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ لِي: دَارِي وَدَارِ عَلِيٍّ فِي الْجَنَّةِ بِمَكَانٍ وَاحِدٍ^(٢)».

ويل: قيل إنها كلمة عذاب^(٣)؛ وقيل: إنها واد في جهنم لو أرسلت فيه الجبال لذابت من حرّه^(٤)؛ وقيل إنه اسم بئر في جهنم^(٥).

(١) الروم: ٣٠.

(٢) مجمع البحرين: (طيب)، ومجمع البيان: تفسير الآية ٢٩ من سورة الرعد.

(٣) الصحاح (ويل).

(٤) مجمع البحرين: (ويل).

(٥) القاموس المحيط في تفسير كلمة (ويل) يروي حديثًا عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنه واد في جهنم

يهوي فيه الكافر أربعين خريفًا قبل أن يبلغ قعره» (تفسير: نور الثقلين، ج ١، ص ٩٣. التفسير

الكبير، ج ٣، ص ١٤٠).

خلق الخير والشر

قد ثبت في الفلسفة المتعالية، أن نظام الكون في أسمى مرتبة من الكمال والخير، وأقصى درجة من الحسن والجمال. إنّ كلّ الكمالات نتيجة جمال الجميل المطلق، وتجلي النور المقدس للكمال المطلق؛ وأما الكائنات الأخرى فهلاك في أنفسها، وفقر محض وبطلان مطلق. فجميع الكمالات تصدر من الوجود وتعود إلى الوجود.

إن جميع الشرور والاخترام - الموت المبكر - والهلاك والأمراض والحوادث الغريبة والمهلكة والحيوانات المؤذية وغير ذلك من المصائب والآلام الموجودة في هذا العالم المادي الطبيعي، وفي هذه الهاوية الضيقة المظلمة، ينشأ من التضاد والاصطدام الحاصل بين الموجودات، هذا التضاد، لم يكن نتيجة الجهة الوجودية للموجودات بل يحصل من جرّاء النقص في هذه النشأة وضيق المحلّ للموجودات، ويعود ذلك إلى الحدود والنقائص الخارجة عن إطار نور الجعل بل هي في الحقيقة دون الجعل.

إنّ ما هو مخلوق ومجموع بالذات لله سبحانه هو الخير والكمال، وإنّ تخلّل الشرور والمضارّ وغيرها في القضاء الإلهي، يكون بالتبع والانجرار. وقد أشار قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾^(١) إلى المقام الأول: الوجود مصدر الخير والكمال؛ وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾^(٢). إلى المقام الثاني: الخير مجموع بالذات، والشرور والنقائص مجعولة بالعرض. ووردت في الآيات الشريفة وأحاديث أهل بيت العصمة عليهم السلام إشارات كثيرة إلى هذين الاعتبارين، ومن تلك الأخبار هذا الحديث الشريف: «خَلَقْتُ الْخَلْقَ وَخَلَقْتُ الشَّرَّ».

(١) النساء: ٧٩.

(٢) النساء: ٧٨.

كيفية إجراء الحق سبحانه الخير والشر على أيادي عباده

لا يمكن أن يكون موجود من الكائنات مستقلاً في عمل من الأعمال، إلا بعد أن ينهض الموجد والفاعل، بسدّ كل أبواب العدم التي قد تنفتح على المعلول. مثلاً إذا كان لوجود معلول وتحقيقه مئة شرط مثلاً، وقامت العلة بتوفير تسع وتسعين شرطاً، أي بإغلاق تسع وتسعين باباً من العدم المنفتحة على المعلول المفروض - إذ في عدم تحقق كل شرط عدم للمعلول - ولم يبق إلا باب واحد، لما أمكن أن تكون العلة مستقلة في إيجاد المعلول، فالاستقلال في العلية يتوقف على قيام العلة بسدّ أبواب العدم الممكن فتحها على المعلول سداً نهائياً.

ومن المعلوم بالضرورة والبرهان، أن القوى الفعالة الظاهرية والباطنية من جميع الممكنات في هذا العالم من أهل عالم الجبروت العظمى والملكوت العليا حتى سُكَّانَ عالم الملك والمادة، قاصرون وعاجزون عن القيام بمثل هذا العمل؛ لأن العدم الأول الذي يمكن أن ينفتح على المعلول، هو عدم المعلول عند عدم علته الفاعلة والمؤثرة، ولا تجد في سلسلة الممكنات، موجوداً يستطيع أن يغلق هذا الباب بنفسه؛ لأن ذلك يوجب انقلاب ما هو ممكن بالذات إلى ما هو واجب بالذات، وخروج الممكن عن حدود بقعة الإمكان، وهو محال بالبدهة والضرورة، لدى العقل. فاتضح بأن الاستقلال في الإيجاد يتطلب الاستقلال في الوجود، وهذا الشيء لا يتحقق في عالم الممكنات؛ ولا يمكن التفويض في الإيجاد، في أي شأن من الشؤون الوجودية، لأي موجود، من الكائنات، وأنّ عدم الإمكان هذا، يعمّ المكلف وأفعاله وغيرهما، وبذلك يثبت عدم إمكان التفويض في أي أمر من الأمور، ولأي موجود من الكائنات.

في إبطال الجبر

لا شك في أن الموجودات تختلف فيما بينها من جهة تقبل الوجود، فبعض الموجودات، تقبل الوجود ابتداءً واستقلالاً مثل الجواهر، وبعض الموجودات لا تقبل الوجود إلا بعد موجودة شيء آخر، وتبعاً لموجود آخر، مثل الأعراض، والأشياء التي وجودها ضعيف، نحو: تكلم زيد، إذ لا يتحقق ولا يوجد إلا تبعاً لزيد. ومثل الأعراض والأوصاف التي تأبى الوجود من دون وجود الجواهر والموصوفات، وترفض التحقق لوحدها. هذا الرفض نتيجة النقص الذاتي، والنقص الوجودي لهذا الموجود، وليس من آثار نقص الفاعل وموجدية الحق تعالى شأنه. فتبين أن الجبر ونفي الوسائط الوجودية غير ممكن في سلسلة الكائنات الموجودة بل هناك وسائط في الإيجاد.

ومن البراهين القوية السديدة في موضوع بطلان الجبر هو أن الماهيات في نفسها عديمة التأثير والتأثر، وغير مجعولة بالذات، في حين أن حقيقة الوجود بذاته منشأ للتأثير، وأن سلب التأثير عنه مطلقاً يستلزم الانقلاب الذاتي أي سلب ما هو من ذاته التأثير عن ذاته كي يتحول إلى عدم التأثير. فإيجاد مراتب من الوجود غير مؤثرة ومسلوبة التأثير كلياً، غير ممكن، وموجب لنفي الشيء عن ذاته بل تكون مؤثرة وموجدة بحسب الوسائط والمراتب.

فتبين إجمالاً أن مذهب التفويض والجبر نتيجة البراهين القاطعة، والمقاييس العقلية باطلان وممتنعان، وأن مذهب الأمر بين الأمرين لدى أهل المعرفة والفلسفة العالية هو الثابت والصحيح.

غير أن العلماء (رضوان الله عليهم) قد اختلفوا في معنى الأمر بين الأمرين اختلافاً عظيماً، والقول السديد المتقن، الأبعد من المناقشات، والأقرب إلى

التوحيد، هو رأي العرفاء الشاخصين وأصحاب القلوب. ولكن مسلك العرفاء في كل موضوع من المعارف الإلهية من قبيل (السهل الممتنع) إذ لا يمكن فهمه على أساس البحث والبرهان، ولا استيعابه من دون التقوى الكاملة والسداد الإلهي، ولهذا نتركه لأهله الذين هم أولياء الحق سبحانه، ونسلك منهج الأصحاب في البحث وهو: أننا نرفض كلاً من التفويض الذي هو استقلال الموجودات في التأثير، والجبر الذي هو عدم تأثير الموجودات نهائياً ونؤمن بالمنزلة بين المنزلتين التي هي إثبات التأثير ونفي الاستقلال في التأثير، ونقول: إن منزلة الإيجاد مثل الوجود وأوصافه، فكما أن الكائنات موجودة وليست بمستقلة في الوجود، وأن الأوصاف ثابتة لها وغير مستقلة فيها، وأن الآثار والأفعال ثابتة فيها وصادرة عنها ولكنها غير مستقلة في الوجود، فكذا الفاعل والموجد، يفعل ويوجد ولكنه غير مستقل في الفاعلية والإيجاد.

إن كلاً من الخير والشر يصحُّ أن ينتسب إلى كل من الحق والخلق، ولهذا قال عليه السلام في الحديث الشريف «وَخَلَقْتُ الْخَيْرَ وَأَجْرِيَّتُهُ عَلَى يَدَيَّ مَنْ أَحَبَّ فَطُوبَى لِمَنْ أَجْرِيَّتُهُ عَلَى يَدَيْهِ، وَأَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا خَلَقْتُ الْخَلْقَ وَخَلَقْتُ الشَّرَّ وَأَجْرِيَّتُهُ عَلَى يَدَيَّ مَنْ أُرِيدُ» ومع ذلك تكون نسبة الخير إلى الحق سبحانه، بالذات، وإلى العباد والكائنات، بالعرض، في حين أن نسبة الشرور إلى الموجودات الأخرى بالذات، وإلى الحق سبحانه بالعرض، وقد أشار إلى هذا المعنى الحديث القدسي: «يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا أَوْلَى بِحَسَنَاتِكَ مِنْكَ وَأَنْتَ أَوْلَى بِسَيِّئَاتِكَ مِنِّي»^(١). والحمد لله أولاً وآخراً.



الْجَدِيدُ الْمُؤَفَّى لِلْأَرْبَعِينَ

تفسير سورة التوحيد
وَالآيَاتِ الْأُولَى مِنْ سُورَةِ الْحَدِيدِ

بالسند المتصل عن عاصم بن حميد قال: سئل عليُّ بنُ الحسينِ عليه السلام عن التَّوْحِيدِ، فقال:

«إِنَّ اللَّهَ (عَزَّ وَجَلَّ) عَلِمَ أَنَّهُ سَيَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَقْوَامٌ مُتَعَمِّقُونَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَالآيَاتِ مِنْ سُورَةِ الْحَدِيدِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فَمَنْ رَامَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ»^(١).

معاني المفردات

التوحيد: الانتساب إلى الوحدة.

مُتَعَمِّقُونَ: العمق والعمق - بفتح العين وضمها - قعر البئر، كأنَّ للأبحاث العلمية عمق وقعر، والشخص المتعمق: الدقيق النظر، يغور في العمق، ويستخرج الحقائق منه.

رَامَ: طلب.

وَرَاءَ: خلف.

إشارة مختصرة إلى تفسير سورة التوحيد المباركة

عن الإمام باقر العلوم عليه السلام بعد عرضه صلى الله عليه وآله نبذة من أسرار حروف الصمد

(١) أصول الكافي، كتاب التوحيد، باب النسبة، ح ٣.

المباركة أنه قال: «لو وَجَدْتُ لِعَلْمِي الَّذِي آتَانِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَنَشَرْتُ التَّوْحِيدَ وَالْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ وَالدينَ وَالشَّرَائِعَ مِنَ الصَّمَدِ»^(١).

وقال الفيلسوف الكبير صدر المتألهين في خصوص الآيات الأولى من سورة الحديد: «اعلم أن كل آية من الآيات الست التي أشير إليها في هذا الحديث، تشتمل على علم غزير في التوحيد والألوهية وتتضمن معارف كثيرة من العلوم الصمدية والربوبية، فلو ساعد الزمان وأعان الدهر عارفاً ربانياً، أو حكيماً إلهياً الذي استوحى علمه من مشكاة النبوة المحمدية (على الصاعد بها وآله أفضل السلام والتحية)، واستقى فلسفته من أحاديث أهل العصمة والطهارة عليهم السلام، لكان من حَقِّ ذلك العارف أو الحكيم ومن حق تلك الآيات، أن يضع لتفسير كل آية مجلداً واسعاً بل مجلدات كثيرة»^(٢).

(بِسْمِ اللَّهِ) من كل سورة، تتعلق على مذهب أهل العرفان بالسورة المدعوة بها نفسها، وليس بـ (أُسْتَعِينُ) أو أمثاله.

فالسالك إلى الله والعارف بالله يرى من جهة، ظهور المشيئة المطلقة في جميع الأفعال والموجودات وفناء تلك المشيئة فيها، ويرى من خلال هذا المنظار هيمنة سلطان الوحدة، ويكون لديه (بسم الله) في جميع السور القرآنية، والأعمال، والأفعال، بمعنى واحد. ومن جهة أخرى عندما يلتفت إلى عالم الفرق - الكثرة والاختلاف - وفرق الفرق، يرى لكل واحد من (بسم الله) في أول كل سورة وبدء كل عمل، معنى يغاير المعنى الآخر.

ولما كانت الآية الشريفة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تجمع بين الأحدية الغيبية،

(١) تفسير البرهان، المجلد ٤، ص ٥٢٦.

(٢) شرح أصول الكافي، كتاب: التوحيد، باب: النية، ح ٣، ص ٢٤٨.

والألوهية الأسمائية، كان المقصود من (اسم الله)، المقام الثالث، وهو مقام البرزخية الكبرى، التي هي مظهر اسم الله، الذي هو مقام المشيئة المطلقة، وصاحب التعيين، وظهور الرحمانية في عين الرحيمية، وصاحب البسط في الوقت نفسه الذي هو صاحب القبض.

ثم يأتي الخطاب بعد مقام الغيب الأحدي، متوجهاً إلى القلب التقي النقي الأحدي الأحمدي المحمدي، قائلاً ﴿قُلْ﴾.

هو: هذه الكلمة الشريفة، إشارة إلى مقام الهوية المطلقة من حيث هي من دون أن تتعين بتعين الصفات، أو تتجلى بتجلي الأسماء، حتى الأسماء الذاتية التي تُعدّ في مقام الأحدية، ولا يمكن أن تكون هذه الإشارة من غير صاحب ذلك القلب التقي النقي الأحدي الأحمدي ومن غير صاحب هذا المقام العظيم، ولو لم يكن النبي محمد ﷺ مأموراً بإظهار نسب الحق المتعالي، لما تفوّه بهذه الكلمة الشريفة في الأزل، والأبد. ولكن جرى في قضاء الله سبحانه أن ينطق النبي الخاتم ﷺ، بهذه الإشارة (هو).

ولما لم يستمر ﷺ في الجذبة المطلقة، وحاز على مقام البرزخية قال ﷺ: الله أَحَدٌ.

الله: هو الاسم، الجامع الأعظم، للرب المطلق، للخاتم. وإن ما ترى العين البرزخية، من كثرة الأسماء في مقام ظهور الواحدية، هو نفس التجلي الغيبي الخفي في مقام الأحدية، فلا غلبة، في قلب مثل هذا السالك لمقام الأحدية على مقام الواحدية، ولا غلبة لمقام الواحدية على مقام الأحدية.

إنّ (هو) إشارة إلى مقام انقطعت عنه آمال العارفين وإيماهم، ويتقدّس عن كل اسم ورسم ويتنزّه عن كل تجلٍّ وظهور.

و(الله) إشارة إلى تجلي الأسماء الظاهرية.

و(أحد): إشارة إلى تجلي الأسماء الباطنية الغيبية.

وبهذه الأمور الثلاثة: - هو - الله - أحد - تتحصل الاعتبارات الأولية لحضرة الربوبية.

وأن الأسماء الأربعة الأخرى - الصمد - لم يلد - لم يولد - لم يكن له كفوءاً - التي يكون (الصمد) جامعاً لها، من الأسماء السلبية التنزيهية، التي تُعَدُّ تبعاً للأسماء الثبوتية الجمالية، وقد أشير إليه في نهاية حديث من الأحاديث المتقدمة. هذا كله على القول بأن (بسم الله) متعلق بالكلمة الشريفة (قُلْ). ونستطيع أن نجعل (بسم الله) متعلقاً بكل واحد من كلمات هذه السورة المباركة وعليه يختلف تفسير هذه السورة وتفسير (بسم الله) من متعلق إلى آخر.

إشارة مختصرة إلى تفسير الآيات الستة الشريفة

الآية الشريفة الأولى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تدل على تسبيح جميع الكائنات حتى النباتات والجمادات لله سبحانه. إن حقيقة الوجود عين الشعور والعلم والإرادة والقدرة والحياة وكل الشؤون الحياتية، فإذا لم يكن لشيء علم ولا حياة نهائياً فليس له وجود. ومن ذاق طعم حقيقة أصالة الوجود واشترأكه المعنوي، على مسلك العرفاء مثل العلم والإرادة والتكلم... وإذا بلغ مقام المشاهدة بترويض النفس والحالات المعنوية، شاهد بأم عينه وسمع دويّ تسبيح الموجودات وتقديسها. ومن المؤسف أن سُكِرَ المادة والطبيعة قد أوهن العين والسمع والحواس الأخرى. فلا بد من عدّ حياة الكائنات وتسبيحها عن وعي وإدراك، من البدييات

والضروريات في الفلسفة العالية، ومن مسلّمات أصحاب الشرائع والعرفان. ولكن لكيفية تسييح كل موجود، والأذكار الخاصة بكل كائن، وأن للإنسان الذكر الجامع، وللموجودات كافة أذكار تناسب نشأتها وتكوينها، وكيفية تسييح كل موجود؛ لكل ذلك أبحاث ودراسات: إجمالها أن هناك مقياساً علمياً وعرفانياً يرتبط بعلم الأسماء، وتفصيلها يرتبط بالعلوم التي تشهد بالعيان، وتكشف على الإنسان، وهي مختصة بالأولياء الكاملين.

وقد بينا في الفصل السابق بأن (بسم الله) من كل سورة، يتعلق بالسورة المبدوءة به، وعليه يكون (بسم الله) من هذه السورة، سورة الحديد، متعلقاً بـ ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ﴾.

ويفاد من الآية المباركة المذهب الحق في مسألة الجبر والتفويض؛ لأن فيها نسبتين: نسبة إلى الله الذي هو مقام المشيئة الفعلية، ونسبة إلى الأشياء الموجودة في السماوات والأرض، بصوره لطيفه تعدّ منتهى كشف أرباب الشهود والمعرفة. وتقديم النسبة إلى مشيئة الله لإفهام قيومية الحق.

وأما الآية الثانية الشريفة: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. فهي إشارة إلى مالكية الحق (جل جلاله) للملكوت السماوات والأرض. ومن المعلوم أنه يتم الإحياء والإماتة والظهور والرجوع والبسط والقبض، تبعاً لهذه المالكية، والإحاطة في السلطة، ونفوذ القدرة والتصرف. وهذه النظرة تستوجب اضمحلال جميع التصرفات وأنواع التدبير، في تصرف الحق وتدبيره، الذي يكون منتهى التوحيد الفعلي. ولهذا نسب إلى نفسه: مالكية الذات المقدس، الإحياء والإماتة - الأمرين اللذين يعدّان من المظاهر العظيمة للتصرف الملكوتي أو هما القبض والبسط - ونسبة الأحياء والإماتة إلى المالكية:

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ على رغم أن الإحياء من شؤون الرحمانية والإماتة من الشؤون المالكية، يمكن أن يكون للتنبيه إلى أمر عرفاني جليل، وهو استجماع كل اسم لجميع الأسماء على وجه الأحدية، والجهة الغيبية التي لا مجال لذكرها فعلاً.

وأما الآية الثالثة المباركة: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فقد علم العارف بالمعارف الحققة لأصحاب المعرفة واليقين، والسالك لطريق أصحاب القلوب والسالكين، أن منتهى سلوك السالكين، وغاية آمال العارفين، هو فهم هذه الآية الشريفة المحكمة. وقسماً بذاته العزيز، لا توجد للتعبير عن حقيقة التوحيد الذاتي، أسمى وأفضل من هذا التعبير. وينبغي على كل أصحاب المعارف، السجود أمام هذا العرفان التام النبوي المحمدي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمام هذا الكشف الجامع الأحدي وهذه الآية المحكمة الإلهية، والسقوط على التراب إذلاً لها. وقسماً بحقيقة العرفان والعشق، إن العارف المجذوب والعاشق لجمال المحبوب، عندما يسمع هذه الآية الشريفة، تستولي عليه هزة ملكوتية، وانبساط إلهي، يقصر عن استيعابه أي موجود من الكائنات، ويعجز عن شرحه البيان. فسبحان الله ما أعظم شأنه وأجل سلطانه وأكرم قدره وأمنع عزه وأعز جنابه!

وأما الآية الشريفة الرابعة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. فهي إشارة إلى خلق السموات والأرض في ستة أيام واستوائه سبحانه على العرش.

لقد تحيرت في تفسير هذه الآية المباركة عقول أرباب العقل فاتخذ كل بحسب مسلكه في العلم، وهواه في العرفان، تفسيراً لهذه الآية المباركة.

وفي ضوء مسلك بعض العرفاء، الذين يرون للوجود مراتب نازلة، حتى آخر مرتبة منها، وهي مرتبة احتجاب شمس الوجود في حجب التعينات، وهي حقيقة ليلة القدر، وابتداء يوم القيامة من المرتبة الأولى منه إلى مرتبة رجوع المُلْك إلى الملكوت، وخرق حجب التعينات حتى نهاية مراتب الظهور والرجوع الذي هو الظهور التام للقيامة الكبرى - فإن هذه الأيام الستة التي تمّ فيها خلق السموات والأرض وانتهى به الأمر إلى عرش الله الرحمن الذي هو غاية غايات الاستيلاء والاستواء والقهارية للحق المتعالى، هذه الأيام الستة الصعودية في العالم الكبير. عرش استواء الحق، الظاهر بالقهارية التامة والملكية، وهي مرتبة المشيئة والفيض المقدس الرحماني الذي هو الظهور التام بعد انسلاخ التعينات والفراغ من خلق السموات والأرضين. وما دامت السماوات والأرضون موجودة، لم يتم خلقها عند أهل المعرفة، بحسب قوله تعالى: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾^(١). وبحسب عدم حصول التكرار في التجلي.

وتكون المراتب الستة في الإنسان الكبير والعالم الأكبر من المرتبة السابعة اللطيفة التي هي عرش الرحمن والذي هو مرتبة القلب الحقيقي.

وهنا احتمال آخر لا ينافي ما ذكره العرفاء، وينسجم مع العلوم الحديثة، وهو أن وراء منظومتنا الشمسية، منظومات شمسية أخرى كثيرة، لا يحصي عددها إلا الله، فالمقصود من السموات والأرض: هذه المنظومة الشمسية وكواكبها وأفلاكها، والمقصود من الستة أيام المحددة في الآية الكريمة، الأيام الستة في ضوء منظومة شمسية أخرى. وهذا الاحتمال أقرب إلى الظاهر والفهم من جميع

الاحتمالات الأخرى من دون أن يتضارب مع الاحتمالات العرفانية؛ لأنه يُعدُّ بطنًا من بطون القرآن.

وأشير في نهاية الآية المباركة بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى علم الحق المتعالي بكل جزئي من مراتب الوجود في سلسلة عالم الغيب والشهود في قوس النزول والصعود. وأشير بقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ إلى المعية القيومية للحق سبحانه. ولا يعرف أحد كيفية علم الحق سبحانه بالجزئيات، الذي يكون على أساس الإحاطة الوجودية، والسعة القيومية، وكذلك لا يعرف أحد إدراك حقيقة هذه القيومية للحق سبحانه، إلا الخواص من أوليائه تعالى.

وأما الآية المباركة الخامسة: ﴿لَهُ، مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ فهي إشارة إلى مالكيه الحق، وعود كل نظام دائرة الوجود إليه عز وجل، وإشارة إلى أن نظام الوجود راجع ومرتبط باسم المالك. كما ذكر في سورة الحمد المباركة: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

أما الآية الشريفة السادسة: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾. فهي إشارة إلى اختلاف الليل والنهار وأن القدر الذي ينقص من أحدهما يزداد على الآخر، وأن كل ما يزداد على أحدهما ينقص من الآخر، وفي هذا الاختلاف منافع كثيرة.

وللآية الشريفة معنى عرفاني آخر امتنعنا عن ذكره.

خاتمة:

إن ما ورد في ذيل الحديث الشريف من قوله عليه السلام: «مَنْ رَامَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ»، إشارة إلى أن هذا المستوى من المعارف المذكورة في هذه الآيات الشريفة،

وسورة التوحيد المباركة، هو منتهى العلوم البشرية، وغايتها القصوى. فلو ظن أحد بأن فوق هذا المستوى من المعارف، معارف أخرى لسقط في الخطأ. والأقل من هذا المستوى من المعارف التي تتوافر في هذه الآيات المباركة، يُعد أيضًا من الهلاك والموت ومن الجهل بمقام الربوبية.

ومن الواضح أن هذا الحديث الشريف يحث الإنسان على التأمل والتفكير في هذه الآيات المباركات؛ ولكن لكل علم، أهل؛ ولكل ميدان، فارس؛ ولا يحسب إنسان بأنه يستطيع استيعاب آيات التوحيد بفكره وتأمله على أساس الظهور العرفي في القرآن الكريم، والسنة الشريفة.

والله شهيد على ما أقول وكفى به شهيدًا إنني لا أروم من هذا الكلام التشجيع على دراسة الفلسفة التقليدية أو العرفان التقليدي، بل المقصود، دفع إخواني المؤمنين ولا سيّما أهل العلم، نحو معارف أهل البيت عليهم السلام، وحثهم على قراءة القرآن، وعدم الابتعاد عنه، فإن الهدف الأهم والأسمى لبعثة الرسل وإنزال الكتب هو معرفة الله، التي تتوافر في ظلها سعادة الدنيا والآخرة. ولكن المؤسف أن الإنسان ما دام يعيش في هذا العالم، فهو واقع في الحجب المختلفة، التي تمنعه من رؤية طريق السعادة. وكلما دعاه الأولياء والأنبياء والعلماء ونصحوه لم يفتق من نومه، ولم يصغ لهذه الإرشادات. وعندما يستيقظ، يجد السعادة قد أفلتت من يديه ولا يملك إلا الحسرة والندامة.

دعاء وختام

إلهي أنت الذي ملأت قلوب الأولياء بنور المحبة، وأخرست ألسنة عشاق الجمال من التحدث عن أنفسهم والآخرين. وأبعدت أيادي الأنانيين المنحطين عن أذيال كبريائك. إلهي أيقظنا من سكر غرور الدنيا، من النوم العميق الذي غمرنا من جراء الانغماس في عالم المادة والطبيعة، ومزّق لنا بإشارة واحدة الحجب الغليظة والستائر السميكة من الإعجاب والذاتية، وخذ بأيدينا إلى مجلس الطاهرين لدى ساحتك، ومحفل المخلصين المقدسين، وأبعد عنا شراسة الطبيعة وسوء الخلق، وغلظ اللسان، والنفاق والانحراف، وأقرن حركاتنا وسكناتنا وأفعالنا وأعمالنا وأولنا وآخرنا وظاهرنا وباطننا بالإخلاص والصفاء.

إلهي إن نعمك قد ابتدأت علينا (لا يشترط عطاء الحق بقابلية المعطى له) وعطاياك غير متناهية وباب رحمتك مشروع ومائدة نعمك غير المتناهية مبسوبة، هب لنا حالاً مضطرباً، وقلباً ملتهباً وعيناً تذرف الدموع، ورأساً لا يعرف القرار، وصدرًا ينفث بالهموم والآلام واختتم حياتنا بالإخلاص إليك وحب خواص ساحتك وهم مقدمة كتاب الوجود وخاتمه نظام الغيب والشهود محمد وأهل بيته الطاهرين (صلوات الله عليه وعليهم أجمعين). والحمد لله أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

المصادر

- القرآن الكريم .
- إحياء علوم الدين : للغزالي (ت ٥٠٥هـ).
- الارشاد، للشيخ المفيد
- أصول الكافي : للكليني، محمد بن يعقوب الكليني .
- بحار الأنوار : للمجلسي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، ١٢٠٣ ق .
- البرهان في تفسير القرآن، للسيد هاشم البحراني (ت ١١٠٧هـ). - تفسير نور الثقلين، للشيخ الحويزي (ت ١١١٢هـ)، تصحيح وتعليق : السيد هاشم الرسولي المحلاتي، مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع - قم، ط ٤، مطبعة مؤسسة إسماعيليان، ١٤١٢ - ١٣٧٠ ش - تهذيب الأخلاق، لابن مسكويه
- التوحيد، للشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ)، تصحيح وتعليق : السيد هاشم الحسيني الطهراني، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة.
- ثواب الأعمال، للشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ)،
- الجامع الصغير، لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ).
- الخصال، للشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ)، تصحيح وتعليق : علي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، ١٤٠٣ هـ - ١٣٦٢ ش.

- سنن الدارمي، لعبد الله بن الرحمن الدارمي (ت ٢٥٥ هـ). - صحيح مسلم، لمسلم النيسابوري، (ت ٢٦١ هـ)، دار الفكر - بيروت - لبنان، طبعة مصححة ومقابلة على عدة مخطوطات ونسخ معتمدة.
- عدة الداعي، لابن فهد الحلي (ت ٨٤١ هـ)، تصحيح: أحمد الموحدي القمي، مكتبة وجداني - قم.
- علم اليقين: محمد بن مرتضى الكاشاني، انتشارات بيدار، قم، ١٣٨٥ ش.
- علل الشرائع، للشيخ الصدوق (ت ٣٨١ هـ)،
- عوالي اللئالي، لابن أبي جمهور الأحسائي (ت ٨٨٠ هـ)، تقديم: السيد شهاب الدين النجفي المرعشي، تحقيق: الحاج آقا مجتبی العراقي، ط ١، مطبعة سيد الشهداء، قم المقدسة، ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م.
- فروع الكافي: محمد بن يعقوب الكليني، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٤٧ ش.
- كشف الريبة عن أحكام الغيبة، للشهيد الثاني (ت ٩٦٥ هـ). - مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، للعلامة المجلسي (ت ١١١١ هـ)، إخراج ومقابلة وتصحيح السيد جعفر الحسيني، دار الكتب الإسلامية، ط ٢، مطبعة الحيدري، طهران، ١٤٠٠ هـ.
- مجمع البحرين، للشيخ الطريحي (ت ١٠٨٥ هـ)، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، أعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة وما بعده على طريقة المعاجم العصرية: محمود عادل، مكتب النشر الثقافة الإسلامية، ط ٢، ١٤٠٨ هـ - ١٣٦٧ ش.
- مجمع البيان، لفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ)،

- المحجة البيضاء، للفيض الكاشاني.
- مسند احمد، لاحمد بن حنبل، (ت ٢٤١هـ)، دار صادر - بيروت - لبنان.
- مفاتيح الجنان، للشيخ عباس القمي.
- منازل السائرين، للخواجة عبد الله الأنصاري
- النهاية في غريب الحديث، لأبن الأثير (ت ٦٠٦ هـ)،
- نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام، شرح : الشيخ محمد عبده،: دار الذخائر - قم - ايران، ط ١، مطبعة النهضة - قم، ١٤١٢ - ١٣٧٠ ش.
- وسائل الشيعة (الإسلامية)، للحر العاملي (ت ١١٠٤هـ)، تحقيق وتصحيح وتذييل : الشيخ عبد الرحيم الرباني الشيرازي، ط ٥ ، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م.

المحتويات

٥	مقدمة الطبعة الأولى
٧	مقدمة الطبعة الثانية
٩	مقدمة الإمام الخميني رحمته الله
١١	الحديث الأول: جهاد النفس
١٣	معاني المفردات
١٣	نشأتا الإنسان
١٤	مقامات النفس وكيفية مجاهدتها
١٤	المقام الأول: منزل الملك والظاهر، وعالمها
١٧	المقام الثاني: مملكة النفس الباطنية، ونشأتها الملكوتية
٢٠	أولاً: السيطرة على الخيال
٢٠	ثانياً: التفكير بعقد الموازنات
٢٣	كيف تعالج مفاصل الأخلاق؟
٢٥	الحديث الثاني: الرياء
٢٧	معاني المفردات
٢٧	مراتب الرياء ومقاماته
٣٦	علامات المرائي
٣٧	استئصال جذور الرياء
٣٩	الحديث الثالث: العُجب

- ٤١..... معاني المفردات
- ٤٢..... درجات العجب
- ٤٢..... منشأ العجب
- ٤٢..... مراتب العجب
- ٤٣..... عجب أهل الفساد بفسادهم
- ٤٤..... حيل الشيطان
- ٤٥..... مفاصد العُجب
- ٤٦..... كيفية استئصال العجب
- ٤٩..... الحديث الرابع: الكبر
- ٥١..... معاني المفردات
- ٥١..... درجات الكبر
- ٥٣..... أسباب الكبر
- ٥٤..... أنماط التعبير عن الكبر
- ٥٥..... في مفاصد الكبر
- ٥٧..... عوامل التكبر
- ٥٨..... في معالجة الكبر
- ٦٢..... الحسد والتكبر
- ٦٣..... الحديث الخامس: الحسد
- ٦٥..... معاني المفردات
- ٦٦..... أنواع الحسد ودرجاته
- ٦٦..... من أسباب الحسد
- ٦٦..... من مفاصد الحسد

٦٨.....	علاج الحسد
٦٩.....	حديث الرفع
٧١.....	الحديث السادس: مَنْ أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَالْدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ
٧٣.....	معاني المفردات
٧٤.....	سبب ازدياد حب الدنيا
٧٥.....	تأثير الحظوظ الدنيويّة في القلب ومفاسده
٧٦.....	الإنسان وحب الكمال
٧٩.....	الحديث السابع: الغضب
٨١.....	معاني المفردات
٨١.....	فوائد القوة الغضبيّة
٨٢.....	علاج خمود القوة الغضبيّة
٨٢.....	مفاسد الإفراط في الغضب
٨٤.....	علاج الغضب المشتعل
٨٥.....	معالجة الغضب باقتلاع جذوره
٨٧.....	الحديث الثامن: العصبية
٨٩.....	معاني المفردات
٩٠.....	العصبية تفسد الإيمان
٩١.....	الصورة المملكوّية للعصبية
٩١.....	مفاسد العصبية
٩١.....	في عصبيات أهل العلم
٩٣.....	الحديث التاسع: النفاق
٩٥.....	معاني مفردات

٩٥.....	مراتب النفاق
٩٦.....	مفاسد النفاق
٩٧.....	في معالجة النفاق
٩٨.....	في النفاق مع الله
١٠١.....	الحديث العاشر: إتياع الهوى وطول الأمل
١٠٣.....	معاني المفردات
١٠٣.....	في ذم إتياع هوى النفس
١٠٥.....	مراتب الأهواء النفسية
١٠٦.....	في ذم طول الأمل
١٠٩.....	الحديث الحادي عشر: الفطرة
١١١.....	معاني المفردات
١١١.....	معنى الفطرة
١١٢.....	فطرية وجود الله تعالى
١١٤.....	فطرية التوحيد
١١٥.....	فطرية المعاد
١١٧.....	الحديث الثاني عشر: التفكر
١١٩.....	معاني المفردات
١١٩.....	فضيلة التفكر
١٢١.....	في التفكر في المصنوع
١٢٣.....	في التفكر في أحوال النفس
١٢٥.....	في فضيلة صلاة الليل
١٢٦.....	في التقوى

أهمية التقوى	١٢٦
مراتب التقوى	١٢٧
في تقوى العامة	١٢٧
الحديث الثالث عشر: التوكل	١٣١
معاني المفردات	١٣٣
معنى التوكل ودرجاته	١٣٤
الفرق بين التوكل والرضا	١٣٦
الفرق بين التفويض والتوكل والثقة	١٣٦
الحديث الرابع عشر: الخوف والرجاء	١٣٩
معاني المفردات	١٤١
نظرتا الإنسان العارف	١٤١
أسباب الخوف	١٤٣
أسباب الرجاء	١٤٤
في الفرق بين الرجاء والغرور	١٤٥
في سبب تعادل الخوف والرجاء	١٤٦
الحديث الخامس عشر: البلاء	١٤٧
معاني المفردات:	١٤٩
معنى الامتحان وآثاره ونسبته إلى الحق تعالى	١٥٠
فلسفة شدة ابتلاء الأنبياء والأوصياء والمؤمنين	١٥١
الأنبياء مبرؤون من العيوب الجسدية	١٥٣
الدنيا ليست محلاً لثواب الحق المتعالي وعقابه	١٥٤
شدة المعاناة الروحية توازي شدة الإدراك	١٥٥

- ١٥٧..... الْحَدِيثُ السَّادِسُ عَشَرَ: الصَّبْرُ
- ١٥٩..... معاني المفردات:
- ١٥٩..... أسر الشهوة مصدرٌ كلُّ أسرٍ وأساسُ البلاء.
- ١٦٢..... معنى الصبر ومنزلته.
- ١٦٣..... في نتائج الصبر.
- ١٦٥..... في درجات صبر المتوسّطين.
- ١٦٦..... في بيان درجات صبر أهل المعرفة.
- ١٦٩..... الْحَدِيثُ السَّابِعُ عَشَرَ: التَّوْبَةُ.
- ١٧١..... حقيقة التوبة.
- ١٧٢..... نقطتان مهمّتان.
- ١٧٣..... ركنا التوبة وشرائطها.
- ١٧٣..... شروط قبول التوبة.
- ١٧٧..... في نتيجة الاستغفار.
- ١٧٨..... التوبة النصوح.
- ١٧٩..... الْحَدِيثُ الثَّامِنُ عَشَرَ: الذِّكْرُ.
- ١٨١..... ذكر الله.
- ١٨٢..... خصائص ذكر الله تعالى.
- ١٨٤..... في الفرق بين مقامي: التفكّر، والتذكّر.
- ١٨٥..... مراتب الذكر بحسب آثاره.
- ١٨٦..... أحاديث في فضل ذكر الله.
- ١٨٩..... الْحَدِيثُ التَّاسِعُ عَشَرَ: الْغِيَّةُ.
- ١٩١..... معاني المفردات.

١٩١.....	تعريف الغيبة
١٩٢.....	في مساوئ الغيبة
١٩٥.....	المفاسد الاجتماعية للغيبة
١٩٦.....	في علاج الغيبة
١٩٨.....	موارد جواز الغيبة
٢٠٠.....	في استماع الغيبة
٢٠١.....	تتميم
٢٠٣.....	الحديث العشرون: النية
٢٠٥.....	معاني المفردات:
٢٠٥.....	نسبة الابتلاء إلى الحق تعالى
٢٠٧.....	الخشية والنية الصادقة وصواب الأعمال
٢٠٩.....	في الإخلاص
٢١٣.....	الحديث الحادي والعشرون: الشكر
٢١٥.....	معاني المفردات
٢١٥.....	توجيه عرفاني للآية الشريفة
٢١٨.....	في حقيقة الشكر
٢١٨.....	أركان الشكر
٢١٩.....	في كيفية الشكر
٢١٩.....	مراتب الشكر
٢٢١.....	فضيلة الشكر وآثاره في الأخبار المأثورة
٢٢٢.....	تتميم
٢٢٣.....	الحديث الثاني والعشرون: الإنسان وكرهه للموت
٢٢٦.....	كرهه الموت

٢٢٨.....	الجنة والنار وأعمال الإنسان
٢٢٩.....	تغريب الشيطان والنفس
٢٣١.....	الحديث الثالث والعشرون: المراء والجدل
٢٣٤.....	معاني المفردات:
٢٣٦.....	كيفية حصول العلم الصحيح
٢٣٧.....	مفاسد المراء والجدل
٢٣٩.....	في المراتب الظاهرية والباطنية للمراء وآثارها
٢٤٠.....	ومن الآثار الظاهرية للجهل والمراء
٢٤٠.....	العلماء بين الاستقامة والانحراف
٢٤١.....	علامات أهل الفقه والفلسفة
٢٤٣.....	الحديث الرابع والعشرون: العلم
٢٤٥.....	معاني المفردات
٢٤٦.....	أقسام العلوم النافعة
٢٤٨.....	الآية المحكمة، والفريضة العادلة، والسنة القائمة
٢٤٩.....	علامات العلوم النافعة
٢٥١.....	أقسام العلوم بحسب الحديث الشريف
٢٥٣.....	الحديث الخامس والعشرون: الشك والوسوسة
٢٥٥.....	مقدمة
٢٥٦.....	الوسوسة من الأعمال الشيطانية
٢٥٨.....	معالجة الوسوسة
٢٦١.....	الحديث السادس والعشرون: طالب العلم
٢٦٣.....	العلم

٢٦٤.....	الملائكة وطالب العلم
٢٦٦.....	الاستغفار لطالب العلم
٢٦٧.....	فضل العالم على العابد
٢٦٩.....	العلماء ورثة الأنبياء ﷺ
٢٧١.....	الحديث السابع والعشرون: حضور القلب
٢٧٣.....	معاني المفردات
٢٧٣.....	كيفية حصول التفرغ للعبادة
٢٧٧.....	مراتب حضور القلب
٢٨٠.....	من أسرار العبادة وتحسيم الأعمال
٢٨٢.....	التفرغ في العبادة يوجب الغنى في القلب
٢٨٤.....	تنبيه
٢٨٥.....	الحديث الثامن والعشرون: لقاء الله
٢٨٧.....	معاني المفردات
٢٨٧.....	لقاء الله وكيفيته
٢٩٠.....	انكشاف بعض الأحوال الغيبية لدى الموت
٢٩٣.....	معنى حب الحق المتعالي وبغضه
٢٩٥.....	الحديث التاسع والعشرون: وصية النبي لعلّي بخصال
٢٩٨.....	معاني المفردات
٢٩٩.....	مقدمة
٢٩٩.....	في مفاصد الكذب
٣٠١.....	في حقيقة الورع ومراتبه
٣٠٢.....	مفاصد الخيانة وحقيقة الأمانة

- ٣٠٥..... في بيان الخوف من الحق المتعالي
- ٣٠٦..... اختلاف الناس في مراعاة حضور الحق
- ٣٠٦..... في فضل البكاء
- ٣٠٧..... المكافأة العظيمة على الأعمال اليسيرة
- ٣٠٩..... في بيان عدد النوافل
- ٣٠٩..... استحباب صوم ثلاثة أيام من كل شهر
- ٣١٠..... أفضلية الصدقة
- ٣١٢..... في بيان أمر دقيق آخر
- ٣١٣..... في بيان سرّ من أسرار الصدقة
- ٣١٣..... تتمّة
- ٣١٤..... في فضيلة صلاة الليل
- ٣١٤..... في بيان الصلاة الوسطى
- ٣١٦..... في فضل تلاوة القرآن
- ٣١٧..... في آداب تلاوة القرآن
- ٣١٨..... الإخلاص في القراءة
- ٣١٩..... في معنى الترتيل
- ٣٢٠..... في بيان سرّ رفع اليدين في الصلاة وتقليبهما
- ٣٢٣..... في فضل السواك
- ٣٢٤..... مبادئ محاسن الأخلاق ومساوئها
- ٣٢٧..... الحديث الثلاثون: أقسام القلوب
- ٣٢٩..... معاني المفردات
- ٣٣٠..... في الترغيب في إصلاح النفس

٣٣٠	أقسام القلوب ومراتبها
٣٣١	وجه حصر أقسام القلوب في أربعة
٣٣٢	قلب المؤمن أزهر
٣٣٣	قلب المشرك
٣٣٤	قلب المنافق
٣٣٥	الغفلة عن الحق المتعالي تبعث على انتكاسة القلب
٣٣٧	الحديث الحادي والثلاثون: إن الله (عزَّ وجلَّ) لا يوصف
٣٣٩	معاني المفردات:
٣٤٠	عدم توصيف الحق المتعالي
٣٤١	العلم بحقيقة الأسماء والصفات غير ميسور
٣٤٢	العلم بحقيقة روحانية الأنبياء والأولياء
٣٤٣	معنى احتجاب العبد بسبع
٣٤٤	معنى تفويض الأمر إلى رسول الله ﷺ
٣٤٥	مقام الأئمة عليهم السلام
٣٤٦	حقيقة العصمة
٣٤٧	الإيمان لا يوصف
٣٤٩	الحديث الثاني والثلاثون: الرِّزْق
٣٥١	معاني المفردات
٣٥٣	علامات صحَّة اليقين
٣٥٤	الراحة في اليقين والقلق في الشك
٣٥٥	الحديث الثالث والثلاثون: ولاية أهل البيت عليهم السلام
٣٥٧	معاني المفردات:

- أحاديث الولاية ٣٥٨
- ولاية أهل البيت شرط قبول الأعمال ٣٦٤
- الحديث الرابع والثلاثون: المؤمن ٣٦٥
- معاني المفردات ٣٦٧
- نسبة التردد والتحير إلى الحق المتعالي ٣٦٩
- كيفية إصلاح الحق المتعالي أحوال المؤمنين ٣٧٠
- الفرائض والنوافل تُقَرِّب الإنسان من الله ٣٧١
- الحديث الخامس والثلاثون: الحسنات من الله والسَّيِّئَات من الإنسان ٣٧٥
- مقاماً أسماء الحق سبحانه ٣٧٧
- الجبر والتفويض ٣٧٨
- الحق تعالى لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ٣٨٠
- الحديث السادس والثلاثون: الصفات الذاتية لله سبحانه ٣٨٣
- معاني المفردات ٣٨٥
- عينية صفات الحق سبحانه مع الذات المتعالي ٣٨٦
- في تحقيق عينية الصفات مع الذات المقدسة ٣٨٧
- العلم قبل الإيجاد ٣٨٧
- معنى سمع الحق سبحانه وبصره ٣٨٩
- كيفية تعلق علمه سبحانه بالمعلوم ٣٩٠
- المقياس في الصفات الثبوتية والسلبية ٣٩١
- الحديث السابع والثلاثون: معرفة الله بالله والرسول بالرسالة ٣٩٥
- معاني المفردات ٣٩٧
- المقصود من قوله: إَعْرِفُوا اللَّهَ بِاللَّهِ ٣٩٧

٤٠٠	عدم حمل الأحاديث المأثورة على المعاني الدارجة.....
٤٠٣	الحديث الثامن والثلاثون: ان الله خلق آدم على صورته
٤٠٥	معاني المفردات.....
٤٠٦	الإنسان مظهر تام لله والاسم الأعظم للحق (جل وعلا)
٤٠٩	الحديث التاسع والثلاثون: الخير والشر
٤١١	معاني المفردات.....
٤١٣	خلق الخير والشر
٤١٤	كيفية إجراء الحق سبحانه الخير والشر على أيادي عباده
٤١٥	في إبطال الجبر
٤١٧	الحديث الموقف للأربعين: تفسير سورة التوحيد والآيات الأولى من سورة الحديد
٤١٩	معاني المفردات.....
٤١٩	إشارة مختصرة إلى تفسير سورة التوحيد المباركة
٤٢٢	إشارة مختصرة إلى تفسير الآيات الستة الشريفة
٤٢٦	خاتمة:
٤٢٩	دعاء وختام
٤٣١	المصادر
٤٣٥	المحتويات